

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م

عنوان البحث

# الجانبيات الأوروبية في ولاية حلب

(١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م)

الموسم

بحث لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر

إشراف

أ. د: يوسف نعيسة

إعداد

الطائب: مهنا المحمد

للعام الدراسي: ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م



التقسيمات الادارية لسوريا تحت الحكم العثماني (١)

(١) - طربين ، أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٦٤٢.

## مقدمة:

يتناول البحث فترة مهمة من تاريخ ولاية حلب خلال الحكم العثماني ٩٢٢ - ١٣٣٧ هـ / ١٥١٦ - ١٩١٨ م ، حيث يتحدث عن أوضاع الجاليات الأوروبية (البندقية - الفرنسية - الإنكليزية - الهولندية) من النواحي الادارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية في ولاية حلب ، خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م ، التي أقامت في الولاية المذكورة ، منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ، حيث توافدت من أوروبا ، ونظمت نفسها في مستعمرات مستقرة ، وذلك بحصول الدول الأوروبية على معاهدات وامتيازات تسهل إقامة وحياة رعاياها في معظم أنحاء السلطنة العثمانية. ولم تكن تلك الجاليات في الواقع سوى مظهر من مظاهر الاستعمار الأوروبي الذي أراد السيطرة على البلاد ونهب خيراتها وثرواتها.

وجاء هذا البحث استكمالاً لبحث سابق ، قامت بإعداده الدكتورة ليلي الصباغ بعنوان (الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين).

وتم اختيار هذا البحث للأسباب التالية:

١- الرغبة في الكشف عن بدلية الاستعمار الأوروبي الحديث ، الذي تم بالسيطرة على أجزاء من الوطن العربي في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. فهذه الجذور أبعد غوراً من هذين القرنين.

فمن خلال الاستعمار الاستكشافي الذي قامت به الدول الأوروبية في القرن السادس عشر ، بدأ يتبلور اهتمام الغرب الأوروبي بالشرق الأدنى عامة وبلاد الشام خاصة ، لأنها منطقة ذات أهمية اقتصادية وذات موقع استراتيجي توصلهم إلى مناطق التوابل والتحرير والمواد الخام اللازمة لتغذية المصانع الأوروبية، وسوقاً لتصرف البضائع الأوروبية بعد قيام الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي.

٢- الرغبة في تسليط الضوء على الدور الذي قامت به الجاليات الأوروبية ، كونها بوابر تسلك الاستعماري غربي أوروبي نحو بلاد الشام ، فكانت بمثابة العيون الساهرة والأذان المنصتة لدولهم الأوروبية ، والتي بدأت بإرسالهم في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وزاد نشاطهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

٣- الرغبة في توضيح أهمية ولاية حلب - كونها من أهم ولايات بلاد الشام - بالنسبة للسلطنة العثمانية ، والدول الأوروبية لأنها تتمتع بأهمية اقتصادية ، حيث شكلت سوق واسعة للبضائع اللازمة للثورة الصناعية الناهضة في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وطوال

القرن الثامن عشر ، وأهمية إستراتيجية بسبب موقعها المميز على مفترق الطرق التي تصلها بآسيا من الشرق ، وآسيا الصغرى من الشمال وجنوب بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية من الجنوب ، وبالبحر المتوسط الذي يؤدي إلى أوروبا من الغرب ، كذلك وقوعها على طريق الحرير التجاري العالمي بين الشرق والغرب.

٤- كشف الأسلوب الأوروبي الذي تغير من الحالة العسكرية الحربية ، إلى تسليح سلمي هادئ عبر إرسالياتهم التبشيرية إلى بلاد الشام ، لنشر النفوذ الأوروبي الاستعماري عن طريق استغلال رجال الدين وحتى الدين نفسه ، وذلك من خلال جذب رعايا السلطان العثماني المسيحيين إلى بابا روما وأحضار الدول الأوروبية ، ومسارة فرنسا لبسط حمايتها على مسيحيي الشرق من أجل استغلالهم ، عن طريق إعلان حمايتها عليهم للتدخل في الشؤون الداخلية للسلطنة العثمانية. بغية تحقيق مصالحها الاستعمارية فسارعت الدول الأوروبية لإرسال إرسالياتها في النصف الأول من القرن السابع عشر إلى ولاية حلب ، لنشر المذهب الكاثوليكي بين أبناء مسيحيي الشرق الأرثوذكسي، وداعية إلى الاتحاد مع كنيسة البابا والارتباط بها. فعملت تلك الإرساليات على تثبيت نفوذ الغرب، ونجحت في بذر بذور الشقاق بين المسيحيين ، وجلب بعضهم إلى الكتكئة والبروتستانتية.

ومن أبرز الصعوبات التي واجهت البحث هي قلة المصادر والمراجع. فهي نادرة ولا مبالغة في ذلك ، فلم يكتب في هذا الموضوع في سوريا سوى الدكتور ليلي الصباغ في أطروحتها سابقة الذكر ، وللحصول على الوثائق الأصلية التي يحتاجها البحث لا بد من التنقل بين مجموعة من الدول الأوروبية للاطلاع على ما لديها من وثائق. ولا بد من معرفة اللغات المكتوبة بها ، لذلك ما توفر لي من تلك الوثائق والكتب الأجنبية استعنت ببعض الأشخاص على ترجمتها.

قسم البحث إلى تمهيد وأربعة فصول ، حيث تم التعرف في التمهيد على موقع حلب الجغرافي وأهميته ، ودخولها ضمن السلطنة العثمانية بعد معركة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م. وبداية وجود الجاليات الأوروبية فيها من خلال الامتيازات التي حصلت عليها من السلطنة العثمانية.

الفصل الأول قد خصص للحديث عن النظام الإداري للجاليات الأوروبية ، بدءاً من السلطات الوطنية المشرفة عليها من أوروبا ، ثم السفراء في إسطنبول، ثم القناصل وبقية الجهاز الإداري للقنصلية في ولاية حلب.

بينما الفصل الثاني تحدث عن النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب ، من خلال استعراض الأوضاع العامة للتجارة ، وكذلك التعرف على النشاط التجاري لكل جالية على حده ، بالتعرف على مود التبادل التجاري (الصادرات والواردات) التي حصلت عليها الجاليات عن طريق الوسطاء (الروم

والأرمن واليهود). والنقود التي تعاملوا فيها ، وتناول البحث الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات ، وانتهى الفصل بالحديث عن الطرق التجارية والموانئ البحرية لولاية حلب على البحر المتوسط.

والفصل الثالث فتناول الحديث عن الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية ، بالتعرف على الحياة الخاصة لها ، وعلاقتها مع بعضها البعض ، وعلاقتها مع القوى الاجتماعية في ولاية حلب ، وعلاقتها مع الإدارة العثمانية الحاكمة.

أما الفصل الرابع والأخير فتعرض للعلاقة بين الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية ، من خلال التعرف على الإرساليات التبشيرية وأنواعها ، ووسائلها المتبعة لجذب أهالي حلب المسيحيين إلى بابا روما ، عن طريق نشر المذهب الكاثوليكي ، وبين الإرساليات التبشيرية والسلطات العثمانية ، وتناول العلاقة بين الإرساليات والدول الأوروبية الداعمة لها بكل ما تملك من قوة وطاقاة في سبيل تحقيق مصالحها.

وبعد أن أنهيت جولتي ورحلتي العلمية المتواضعة منتقلاً بين بطون كتب التاريخ المهمة التي وقعت بين يدي ، لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الخالص لكل أساتذة قسم التاريخ في جامعتي دمشق وحلب ، الذين علموني ورشدوني ، وأخص بالذكر منهم أستاذي الفاضل الدكتور يوسف نعيسة ، الذي رعاني ووجهني التوجيه السديد ، فكان لتوجيهاته وتشجيعه الأثر الكبير في إعداد هذا العمل وإخراجه إلى النور.

وهذا - وفقني الله وإياكم - ماكتبته من سطور ، أرجو أن أكون غير مقصر فيما اخترت من صناعته وأربيت من كتابته ، فإن وقع على الحال الذي أردتم وبالمنزلة التي أملت ، فهذا كله بتوفيق من الله ، وحسن تأييده ، وإن وقع بخلافها فيعلم الله أنني ما قصرت بالاجتهاد ولعل حرمت التوفيق ، والله أعلم.

نعتذر مما طغى به القلم أو زل به الفكر على أنه قد قيل في المثل السائر " ليس الفاضل من لا يغلط بل الفاضل من يعترف بغلطه ".

وإن تجد عيباً فسد الخلا  
وجل من لا عيب فيه ولا

والله ولي التوفيق

## المادة داخل:

الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافي وبيئتها الطبيعية.

توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام واوضاع ولاية حلب.

الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية

(Capitulation).

اسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة.

بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب.

## ١ - الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافي وبيئتها الطبيعية:

تقع مدينة حلب على ارتفاع يتراوح بين (٣٧٥ - ٣٩٠) متراً فوق مستوى سطح البحر في منخفض مستو من الأرض أغلبه إلى الشرق من مجرى نهر قويق الذي تجاوزه العمران إلى غربه اليوم.

وهو موقع فريد من نوعه ، لا نجد له مثيلاً في شمال سورية ، عند تقاطع خط عرض شمالي خط الاستواء (٣٦) درجة و (١٢) دقيقة و (١٣) ثانية مع خط طول شرقي غرينتش (٣٧) درجة و (٩) دقائق و (٣٠) ثانية ، ويتمتع هذا الموقع بالكثير من الخصائص والميزات أبرزها:

١- يبعد مسافات متقاربة عن مجرى نهر الفرات وواديه في الشرق وعن البحر المتوسط في الغرب، وعن أقدام جبال طوروس في الشمال ، وعن بدايات الجبال الوسطى في الجنوب ، حيث يحوم معدل المسافات (٨٠ - ١٠٠) كم.

٢- يحل مكاناً استراتيجياً مهماً ، إذ قامت المدينة في منخفض من الأرض يشبه وعاء ترتفع حول حافته تلالٌ كلسية تعلو حتى (٤٢٠ - ٤٣٠) متراً فوق سطح البحر ما عدا حافته الجنوبية المنخفضة التي يعبرها وادي نهر قويق الذي يشق أرض المنخفض قاصداً من الشمال إلى الجنوب. ويراوح فرق الارتفاع العام بين أرض المنخفض والهضاب المطلة عليه والمحيطه به بين (٤٠ - ٤٥) متراً تقريباً. لكن ذلك لا يعيق المواصلات من حلب وإليها لكثرة الممرات وللمعابر بين أرض المنخفض والهضاب. ويتوسط هذا المنخفض تلة كبيرة تعرف بـ (تلة القلعة) ارتفاعها (٤٣٧) متراً فوق سطح البحر ، وارتفاعها فوق أرض المنخفض (٤٥) متراً تقريباً.

إن هذا الموقع الجغرافي له خاصيته الدفاعية الطبيعية جعلت من حلب ملجأ للسكان يحميهم عبر عصور التاريخ. وقد أكد المؤرخون والباحثون في المدن على الأهمية الطبيعية الدفاعية لموقع حلب ، وقصموها على الأهمية التجارية والصناعية. فوجود حلب واستمرار هذا الوجود والبقاء نتيجة أساسية لأهمية الموقع ذي الأهمية الاستراتيجية الكبيرة التي وفرت لحلب الحماية الطبيعية والدفاع السهل <sup>(١)</sup>.

٣- تقع حلب عند تقاطع الطرق المتجهة من الجنوب إلى الشمال ، أي باتجاه الأناضول وأوروبا ، فضلاً عن الطرق المتجهة نحو الجنوب ، أي نحو الحجاز واليمن ، ومنها نحو المحيط الهندي ، وتلك التي تتجه من الشرق إلى الغرب ، الواصلة بين الخليج العربي والبحر المتوسط. وإن عقدة طرق كهذه مؤهلة بحكم طبيعتها موقعها ، لتكون مركز توزيع دولي منذ فجر التاريخ ، هذا فضلاً عن اتصال المعمورة على هذه الطرق المختلفة ، حيث يتوفر الماء وتكثر المراكز الحضرية ، فضلاً عن سهولة المواصلات فوق هذه الطرق المتشعبة من حلب ، التي تؤدي دور العنكبوت وسط شبكتها، بسبب ندرة الجبال المرتفعة التي تؤلف

(١)- عبد السلام ، عادل: الموقع الجغرافي لحلب ، مجلة الحوادث الأثرية للعربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة، دمشق ، ١٩٩٩

حواجز طبيعية في وجه المواصلات، أضف إلى ذلك توفر الممرات الجبلية المنخفضة كممر بيلان المؤدي إلى ميناء إسكندرونة، أو منخفض إنطاكية والذي يقود بكل سهولة إلى ميناء السويدية عند مصب العاصي<sup>(١)</sup>

٤- كان لموقع حلب الاستراتيجي وغنى محيطها الجغرافي بمنتجاته الاقتصادية، الأثر الأكبر في تطور هذه المدينة وإعطائها دوراً في النشاط التجاري بكل معانيه على الصعيدين الداخلي والخارجي، وبحكم موقع حلب الاستراتيجي، مثلت هذه المدينة نقطة مهمة في تجارة القوافل مع العراق وفارس، يضاف إلى ذلك أن حلب كانت نقطة التقاء وتقاطع للطرق التجارية الأبعد، سواء كانت طرقاً بحرية قادمة من الصين والهند عبر الخليج العربي أو الطرق البرية القادمة من وسط آسيا، فتفرعات هذه الطرق كانت تصل إلى حلب في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط<sup>(٢)</sup>.

٥- المواقع الجغرافي والاستراتيجي لحلب، حيث كانت تشكل القلب النابض بالحياة بين مجموعة كبيرة من الممالك والمدن المهمة في التاريخ القديم والوسيط، وكانت قبلة أهالي المدن المجاورة كونها حلقة مهمة بين أقاليم كثيرة ومفتوحة على معظم المنافذ البشرية، وهذه الخاصة جعلت من حلب واحدة من أهم المدن ولؤلؤة بلاد الشام الشمالية. وكانت السيطرة عليها تعني الإشراف على الطريق الواصلة ما بين ممرات طوروس شمالاً ومصر جنوباً وما بين البحر المتوسط غرباً<sup>(٣)</sup>.

**مناخ حلب:** لمدينة حلب مناخ قاري وصحي أي شتائها بارد وصيفها حار وتهبط درجة الحرارة شتاءً في بعض الأحيان من (٥) إلى (١٥) درجة مئوية تحت الصفر ويتجمد الماء داخل المنازل وتتفجر أنابيبها الرصاصية، في بعض الأحيان. وترتفع الحرارة صيفاً إلى (٣٦) درجة في الظل. ويدوم الشتاء القارس من شهر كانون الأول حتى منتصف شباط، وكذلك يستمر الحر الشديد مدة شهرين ونصف بين تموز والنصف من أيلول، وتتراوح درجة الحرارة ما بين (٢٠ - ٣٦) درجة في الظل، بينما مناخ المدينة في بقية أشهر السنة معتدل ولطيف.

تبدأ الأمطار من شهر تشرين الأول وتستمر حتى شهر نيسان، ويسقط البرد في هذه الفترة أيضاً. وتقدر نسبة الأمطار السنوية بـ (٣٥٠) مم ورياحها عاتية بشكل عام، وتبدأ على الأغلب من الجهة الشمالية الغربية من أطراف جبال الأمانوس، التي تكون رطبة وباردة في الشتاء. بينما الرياح الشمالية الشرقية ليست حارة فحسب بل تجلب معها رمال الصحراء<sup>(٤)</sup>.

(١)- حميدة، عبد الرحمن: حلب وطريق الحرير، مجلة الحوليات، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٢)- جبران، نعمان: التجارة وغرفة التجارة في حلب، مجلة الحوليات، المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣)- زبود، محمد: النشاط التجاري في حلب خلال القرنين العاشر والحادي عشر، مجلة الحوليات، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٤)- لردفازد، مورميان: تاريخ حلب، ت: ألكسندر كشيشيلان، دار النهج حلب، ٢٠٠٣ م، ص ٢٤.



مياه حلب، يتفق الوضع المائي مع الوضع المناخي والتضاريسي والجيولوجي ، إذ تعتبر مدينة حلب فقيرة بالمياه السطحية والتي لا تعتبرى ما كان يجري من مياه نهرين داخليين هما (فويق، والذهب) ، إضافة إلى مياه السيول المطرية في عدد من الأودية الجافة المنتهية في أحراض ومنخفضات مغلقة. أما نهر الفرات فهو أكبر مصدر مائي عذب، لكنه يجري على الهامش الشرقي لإقليم حلب. وفيما عدا ذلك يعتمد الإقليم على المياه الجوفية التي ترفع من الآبار قديماً، وتسحب بواسطة المضخات الآلية في الوقت الراهن. وقنوات الري من الفرات وأنابيب جر المياه إلى مدينة حلب، وترفع المياه الجوفية من حوض حلب الهيدروجيولوجي الذي يقدر مخزونه بحو (٤٨٠) مليون متراً مكعباً<sup>(١)</sup>.

نبات حلب: أحاطت بمدينة حلب مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة ، فامتدت وراءها ولا سيما إلى الغرب والجنوب الغربي بساتين أشجار الزيتون والتوت المتناثرة على الهضبة. في حين شكلت المناطق الواقعة في كل من الشمال والشرق والجنوب ، حيث تترامى السهوب المتاخمة للصحراء ، موطن قدم شعوب القبائل من البدو والأكراد والتركمان الذين اعتادوا ارتيادها معياً وراء المراعي الصالحة لتربية مواشيهم<sup>(٢)</sup>.

وأما المناطق الزراعية الخصبة التي تحيط بها فقد جعلتها مصدراً كبيراً للمواد الغذائية من زيت وحبوب وغيرها من المنتجات<sup>(٣)</sup>. (إذا نظرت إلى المدينة (حلب) وأنت مقبل عليها من أي جهة تراعت لك عروساً من عرائس البلدان قد حفتها البساتين من غربها وبعض شمالها ، وكروم العنب وبساتين التين والفسنق والزيتون من بقية جهاتها)<sup>(٤)</sup>.

وأخيراً فمدينة حلب جديرة أن تعتبر في مقدمة المدن العظيمة لحسن منظرها وحصانتها وتمول أهلها وكثرة تجارتها وعمرانها ، وكانت ولم تزل محط رحال قوافل دمشق والبصرة وإستانبول وأصفهان وهي من أمهات المدن في بر الشام وإحدى المدن الأصلية في غرب آسيا ، وقد قامت في وسطها قلعتها المشهورة كملك عظيم ، حفت به الجواري الحسان التي هي منارات المدينة البديعة المنظر ، خصوصاً قسي ليالي المواسم الدنيئة ، حيث تكون منورة بالمصابيح التي تحاكي للنجوم الزواهر<sup>(٥)</sup>.

(١) - عبد السلام، عادل؛ المرجع السابق ، ص ٢٨.

(٢) - ماستررز ، بروس: المدينة العشائية بين الشرق والغرب حلب وأزمير واسطنبول ، ت: زلي ديبان ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ص ٧٢.

(٣) - أنطاكي ، سمير: صورة حلب لدى الزوار والرحالة ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م ، ص ٢٧١.

(٤) - الغزي ، كامل لبالي الحلبي: نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، دار القلم العربي ، حلب ، ط ٧ ، ١٩٩٩ ، ص ٣١.

(٥) - الغزي: المصدر نفسه ، ص ٣٠.

## ب - توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام وأوضاع ولاية حلب:

كانت بلاد الشام تحت حكم السلاطين الأيوبيين ثم أصبحت تحت حكم السلاطين المماليك الذين حكموا بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن ، وقد بدأت السلطنة المملوكية بالضعف. ومن الأسباب الرئيسية لذلك اكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح الذي ساعدهم على الالتفاف حول قارة إفريقية ، مما أدى إلى تغيير مسار الطرق التجارية التي كانت تمر في البلاد العربية التابعة للمماليك .

لقد كان لاكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، وتهديدهم لمصالح المسلمين ، واحتلالهم لبعض المناطق في جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي آثار عميقة في مصر وبلاد الشام ، لأنها أدت إلى اضطراب الأمور وضعف الاقتصاد وفقر السكان ، ولم يعد السكان يرغبون باستمرار حكم المماليك لهم ، وذلك لفشلهم في حمايتهم من البرتغاليين ، وتزامنت هذه الأوضاع مع المشكلات التي بدأت تظهر بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية عقب التوسع لصفوي في العراق ، فاصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في ٨ شعبان ٩٢٢ هـ / ٢٣ آب ١٥١٦ م ، في معركة مرج دابق قرب حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون ، ثم اتجه السلطان سليم الأول نحو حلب ودخلها بموافقة أهلها، وأصبح يذكر اسم السلطان العثماني على المنابر في مساجد حلب. ثم سار العثمانيون باتجاه الجنوب ، حيث تمت السيطرة على حماة وحمص ، ووصلوا دمشق التي قدم زعمائها الخضوع للعثمانيين<sup>(١)</sup>.

وبعد ذلك استكمل العثمانيون السيطرة على بلاد الشام عن طريق بعض الأمراء الذين أعلنوا الولاء وقدموا فروض الطاعة للسلطان العثماني ، وبعد تمرد جان بردي الغزالي ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م قسّم العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث ولايات هي: الشام وحلب وطرابلس ، وقسمت السلطنة العثمانية ولاية حلب إلى الصناجق التالية: حلب مركز الولاية ، أضنة ، كلس ، بيرو جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، تركمان حلب وإعزاز ، ولم تكن هذه التقسيمات نهائية ، إذ كثيراً ما كان يلغى صناع ما ، أو يدمج بآخر أو يؤسس صناع جديد<sup>(٢)</sup>.

وقسمت الشام في بداية القرن الثامن عشر الميلادي إلى خمس باشويات: باشوية الشام، باشوية صيدا، باشوية فلسطين، باشوية طرابلس الشام، باشوية حلب<sup>(٣)</sup>. و ولاية حلب بحسب تخطيطها الأصلي، واسعة الأرجاء منزامية الأطراف، فهي تمتد غرباً من شرق خليج إسكندرونة حتى ضفاف نهر الفرات، وشمالاً إلى جنوب أربعين ميلاً من حلب حتى خمسين ميلاً إلى جنوب الشرق. لكن رقعتها في الواقع تقلصت كثيراً عما كانت عليه من قبل، فكّس، كانت من ولايتها، انسلخت عنها وأضحت ولاية قائمة بذاتها، بعد أن استفحل

(١) - رافق ، عبد الكريم: المشرق العربي في العهد العثماني ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٦ ، ١٩٩٩ م ، ص ٤٦.

(٢) - رافق للمرجع نفسه ، ص ٦٨.

(٣) - الحسني ، علي: تاريخ سورية الاقتصادي ، مطبعة بدائع الفنون دمشق ، ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م ، ص ١٤٨.

شر الأكراد البارلين في جبالها، وكثرة تعرضهم للقوافل بالسلب والتهب والسلب عنه انفصلت عنها بيلار أيضاً منذ سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٢ م، وأصبحت مع قرى موت والإسكندروية وبياس والجبال المحيطة بها، حكومة مستقلة يديرها وجيه من أبناء بيلار، لذلك رفع إلى معام الباشوية ذات الطوحيين<sup>(١)</sup>

**حدود ولاية حلب:** أصبحت حدود ولاية حلب سنة ١١٨٣ هـ / ١٢٦٩ م كما يلي:

شمالاً: قرية بابلق الواقعة على طريق عينتاب، وشرقاً: النابية وجنوباً: تحدها الصحراء، وأحصب بقاع الولاية وأكثرها عمراناً وسكاناً واقعة بين نحوم هذه البادية والعرب، وتعتبر سمرمين آخر مدينة أهلة في جنوب الولاية. أما في العرب فتعتبر إبطاكية وملحفتها آخر الحدود، وهي الحدود التي كانت إلى بصع سير حلت تحت حتى البحر، إذ كانت تنهي بالإسكندروية وبياس اللتين ألحقاً بحكومة بيلار<sup>(٢)</sup>

ومن القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي تسمى لمدينة حلب، أن تكون واحدة من أهم مدن الشرق لأسى التابعة للدولة العثمانية، ولم ينفها في الكبر إلا إسطنبول والقاهرة.

فلم يجلب الحكم العثماني لولاية حلب أي فتور على لإطلاق بل على العكس تماماً، إذ استطاعت حلب أن تفتح على أسواق جديدة في آسي الصعري، وأن تنشط تجارتها مع أوروبا، فتحوّلت إلى أهم مركز تجاري في شرق البحر المتوسط<sup>(٣)</sup>

وبذلك تحولت حلب من مدينة حدودية في العهد المملوكي إلى مدينة في قلب دولة كبرى (الدولة العثمانية)، مما كان يعني توفر سوق داخلية واسعة (العراق في الشرق والأناضول في الشمال وبلاد الشام في الجنوب)<sup>(٤)</sup>

**سكان مدينة حلب:** سكنها عدد كبير من الناس يتكلمون اللغة العربية، وربما وصل تعدادهم إلى مائة وعشرين ألفاً في القرن الثامن عشر، كان معظمهم من العرب المسميين الذين شتركوا مع حوالي عشرين ألف مسيحي وثلاثة أو أربعة آلاف من اليهود، أما الطبيب الإنكليزي راسل فقدّر عدد سكان حلب في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بـ / ٢٣٥ / ألف نسمة، أما الرحالة الفرنسي فولني الذي رار المدينة، قرّر عدد سكانها بـ / ٢٠٠ / ألف نسمة، بذلك لا تتوفر إحصائيات دقيقة عن عدد السكان. لقد مرّ حجم السكان وحدة حلب على أنها المدينة الأم البارزة في هذه المنطقة، حيث كانت مركزاً للأعمال والتعليم،

(١) - ذات الطوحيين يمثل السلطة العثمانية في مركز ولاية حلب شخص يلقب بالوالي أو الباشا، وعلامة رتبته طوحي (بيل حصان) يطلق على الرتبة أمامه.

(٢) - كسطنطين، وميخ لإبرج في حلب في القرن الثامن عشر، مطبعة المصدا، حلب، ١٩٦٩، ص ١٦٤

(٣) غاوب، هايسر وهيرت، أوبس حلب ترجمة صحر علي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧، ص ٢٤ - ٥٢ - ٥٣

(٤) - J. sauvaget, aiep, paris, ١٩٤١, p ٢١١

ومحطة مشهورة للتجارة الإقليمية والشرقية ، منذ اندمجها في السلطنة العثمانية عام ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أصبحت العاصمة الإدارية لمطقة كبيرة وشاسعة في شمال سوريا<sup>(١)</sup>.

نظام الإدارة العثماني في ولاية حلب: على الرغم من أن العثمانيين تركوا في الولايات الجديدة التي فتحوها التقسيمات الإدارية التي تركها لهم المماليك نفسها ، فقد عمدوا إلى تعزيز جهاز الإدارة بشكل بارز ، فكان الباشا (الوالي) لا يعين إلا لعام واحد فقط ، وكان يعين إلى جانبه قاص ومدير مالية يوفدان من إسطنبول مباشرة مع الوالي ذاته. وكان الهدف البعيد من تلك السياسة انقاء الثورات ، وذلك بمع الباشوات من التمتع بسلطة واسعة في ولاياتهم والافصال عن السلطة المركزية. وهكذا نجد أنه تنابع على حكم ولاية حلب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، أي بين ٩٢٣ - ١١٠٠ هـ / ١٥١٧ - ١٦٨٨ م ستة وسبعون والياً، وبلغ عددهم من الاحتلال العثماني حتى سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م أكثر من (٢٠٠) والي<sup>(٢)</sup>.

وكان الباشوات (الولاة) يأتون من وسط الإداريين الأقوياء ، والصباط العسكريين الذين كانوا قواد الجيوش في المعارك ، ووجهوا الكثير من المكائد السياسية والعنف في مسيرة عملهم الرسمي.

لقد استغلت حلب ولاة يرهوا على طاعة كبيرة تجاه الباب العالي ، الذي لم يسمح بقيام سلطة ضعيفة في المدينة بطراً ، ففرب هذه الولاية من قلب العاصمة إسطنبول ، و لموقعها الاستراتيجي الذي يحكم المواصلات مع العراق وفلسطين والحجاز ومصر وسوريا

وانصرف هم الولاة إلى المحافظة على الوضع القائم، وبالتالي تعزيز التحالفات التي تؤمن الاستقرار ، وهو ما كان يتطلب الجمع بين قوة عسكرية حاصلة بالوالي وميمنة حازمة قاعدتها البيطش والعنف وقد بلغ عدد الولاة في حلب خلال القرن الثامن عشر سبعين والياً.

وكان هناك عدد من الموظفين المرتبطين شخصياً بالوالي، وأبرزهم القائم مقام أو المتسلم، الذي يسوب عن الوالي في أمور الحكم في حال غيابه. ويبدو أن تعيين المتسلم يتم بناءً على رغبة الوالي، إلا أن تنحيت هؤلاء كان يتم في العاصمة.

وبالرغم من أن الباشوات يمثلون السلطان في ولاياتهم ، إلا أن سلطتهم لم تكن مطلقة من الناحية النظرية، فقد مارس الباب العالي رقننه من خلال نظام مؤلف من أربعة عناصر هي: الباشا، والقاضي، والعسكر، والدفتردار. فقد كان تنعيد أحكام الشريعة وحل الدواعث المدنية والإشراف على شؤون الحياة اليومية بأيدي الفصاة الذين يعينون من إسطنبول، كان هؤلاء يمارسون صلاحياتهم باستقلالية تامة عن الوالي،

(١) ماركوس ، إبراهيم الشرق لأوسط عسية لحدائه حلب في القرن الثامن عشر ، ت هيثم حمام، مطبعة جامعة حلب ٢٠٠٦ م،

(٢) - حميد ، عبد الرحمن محافظة حلب ، مشورت وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٢ . ص ٤٢.

أما الدفتردار فقد كان يشرف على حسابات الولاية، ويتولى وظيفته بمقتضى فرمان من العاصمة ، وعندما كان يتم نقل الولاية أو عزلهم كان الدفتردار يجري الحسابات اللازمة لتسوية الدمة أو للمصادرة إذا ما بلغ ذلك. لقد تمتع أصحاب هذا المنصب ببعود كبير ، كما كان في ولاية فرق من الانكشارية مكلفة بمهمات محددة من الباب العالي<sup>(١)</sup>.

## ج - الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية (Capitulation):

كان أول عمل قام به العثمانيون بعد استخلاص مصر وبلاد الشام من المماليك الذين عجزوا عن مقاومة البرتغاليين ، هو إرسال الأساطيل العثمانية إلى البحار العربية في عدة حملات وصلت إلى الهند وإلى البصرة عن طريق مباء السويس والبحر الأحمر والبحار العربية ، تلك الحصار الذي فرضه البرتغاليون ولاحتراق تطويقهم للسواحل العربية<sup>(٢)</sup>. إضافة إلى تشجيع التجارة الأوروبية في البلاد العربية، وإعادة أساب التجارة إليهم عن طريق تقديم السلطنة مجموعة من التسهيلات والإغراءات لجذب التجار الأوروبيين، لإعادة النشاط الاقتصادي للبلاد العربية. ولقد أصبحت البلاد العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية منذ القرن السادس عشر ولايات تابعة لها ، وترتب على هذا الوضع القانوني للولايات العربية، حرمانها من ممارسة سيادتها في الخارج ، إلا عن طريق الدولة العثمانية التي تتولى تمثيلها وتقوم على تصريف الشؤون الخارجية وتكرم الولايات العربية بتفديد المعاهدات التي تعقدها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية<sup>(٣)</sup>.

وكان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوروبية، وعلى وجه الخصوص التجار الأجانب المقيمون في إسطنبول، فلقد وصفت الدولة لعثمانية بظلماً خاصاً لهم يعرف باسم نظام الامتيازات (Capitulation) ، وعاشت مجموعة من هؤلاء الأجانب طيفاً لما نصت عليه المعاهدات الرسمية التي أبرمتها السلطنة مع حاكم الدولة التي تنتمي إليها هذه المجموعة فقامت السلطنة ومد البداية على تنظيم إقامة هؤلاء الأجانب في داخل السلطنة العثمانية ، حيث عقد كل من السلاطين (بايزيد الأول ومحمد الأول ومراد الثاني) اتفاقيات مع السدقية وجوه لتنظيم المسألة<sup>(٤)</sup>.

(١) - عبد الحفي ، عماد السلطنة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، دار النفائس بيروت ، ص ٦١ ٦٢ ٦٣ ١٠٢ .

(٢) طربين ، أحمد تاريخ المشرق العربي المعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٢ .

(٣) - الشاوي ، عبد العزيز الدولة العثمانية دولة إسلامية معتزلة ، ج ٢ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ١٩٨٦ م ، ص ٧٢٢ .

(٤) عمر ، عبد العزيز عمر تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢ م ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٦١ .

والامتيازات الأجنبية: هي المعاهدات المتضمنة المبادئ القانونية لإقامة المستثمرين<sup>(١)</sup> من رعايا الدول الأجنبية في ممتلكات الدولة العثمانية، لممارسة نشاطهم التجاري المشروع فيها، وتقرير حق رعايا الدولة العثمانية المقيمين في أراضي تلك الدول في سريان هذه المبادئ عليهم<sup>(٢)</sup>، لذلك بدأت الامتيازات في السلطنة إبان عظميتها، وكانت في بداية الأمر بمثابة تسهيلات يمنحها السلطان العثماني من جانبه وطواعية إلى التجار الأجانب. وكان باستطاعته سحبها في أي وقت شاء<sup>(٣)</sup> لذلك عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ شباط ١٥١٧ م وجاء بعده ابنه السلطان سليمان القانوني فخط خطوات مهمة في سياسة لفتح السولة العثمانية تجارياً على عدد من الدول الأوروبية، فعقد مع فرانسوا الأول<sup>(٤)</sup> ملك فرنسا معاهدة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين المماليك للفرنسيين وأهل كاتلونيا. وكانت المعاهدة الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمر والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومنجزهم في أثناء وجودهم في أراضي الدولة العثمانية، وتكفل لهم حرية التجارة والتفكلاً وبحراً دون أن يمسهم سوء، ودون أن يتعرضوا لمصائب من السلطات العثمانية، وقطعهم إقامتهم في حانات خاصة بهم، وعدم المساس بكنائسهم، وعدم فرض صرائب عقارية عليها، ومنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين إسبانيون وموانئ الشام ومصر من عرقلة نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية<sup>(٥)</sup>

وكانت معاهدة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م مسأ بعد معاهدات أكثر شمولاً بين فرنسا والدولة العثمانية، نتيجة للعلاقة الجيدة بين الملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني، عرفت باسم (معاهدة صداقة وتجارة بين السلطنة العثمانية وفرنسا)، وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يسافرون إلى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً<sup>(٦)</sup> وتفسير قبول السلطان سليمان القانوني للتحالف مع الملك فرانسوا الأول، أنه أراد أن يفهم الملوك للمسيحيين الذين كانوا يعادونه بدافع الدين، أن صداقته مفيدة وأن من يتقرب منه يلق حياً وبجس مافع

(١) - المستأمنون مصطلح فقهي إسلامي، وهم من رعايا الدول الأجنبية في أراضي السلطنة العثمانية لممارسة نشاطهم التجاري للمشروع فيها بأمان محدد المدة لهم وعلى خلاف المستأمنين لا يحبر للميون أجنب عن الجماعة الإسلامية، لأنهم يعمون في دور الإعلام بأمان موبد

(٢) - للشداوي: المرجع السابق، ص ٧٢١.

(٣) - لوتسكي، قلاذير تاريخ الأنظار العربية الحديث، دار الفهم، موسكو، ١٩٩٢ م، ص ٢١

(٤) - فرانسوا الأول ملك فرنسا / ١٤٩٤ - ١٥٤٧ م / تولى الحكم / ١٥١٥ م. / حص مجموعة حروب بسبب بدعائه أن له حقوقاً على ولاية ميلان بيطال. حارب شارلكن ملك اسبان، وتحالف مع السلطان سليمان القانوني مما هيج الرأي العام الأوروبي ضمه.

(٥) - المحامي، محمد هريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ب إحسان حقي، دار الفعاش، ط ٨، بيروت، ١٩٩٨ م، ص ٢٢٤

(٦) - للشداوي. المرجع السابق، ص ٧١٨

وامتيازات كثيرة، فكان في هذا بعيد النظر، واسع الحيلة، فقلب التوارث الأوروسي القديم رأساً على عقب ودخل المحافل الدولية من أبوابها الواسعة، كما أراد السلطان سليمان القانوني من تحالفه مع الملك فرانسوا الأول، مع فرنسا من الانضمام إلى التحالف لأوربي ضد الدولة العثمانية، فأصبحت السلطة العثمانية دولة لها كلمتها المسبوغة، ورأيها المحترم في تقرير السياسة العامة وفي استقرار الأوصاف الأورورية أو تغييرها<sup>(١)</sup>

كما أراد السلطان سليمان القانوني أن يعيد الطريق التجاري إلى البحر المتوسط، بعد أن تحول إلى رأس الرجاء الصالح وذلك بإعطاء امتيازات، وعقد معاهدات مع الإيطاليين ثم الفرنسيين والإنكليز ليشجعهم على لإبحار على هذه الطريق، ولكن أولئك الأوروبيين جميعاً كانوا يسون للسلطان رغبتهم في التحول، ويعملوا على الكيد له في الحفاء، لقد أبغى السلاطين العثمانيون أنه لا قيمة لهذه الاتفاقيات ما دامت القوة بأيديهم، حيث يلعبونها متى شاؤوا، ويمحوها متى أرادوا. وهذا ما حصل فعندما بدأ الصعب يتسلل إلى جسم السلطة، أصبحت تلك الاتفاقيات قوة لهؤلاء الأجانب أولاً ولرعاياهم الصوريين من مواطني الدولة العثمانية ثانياً، لذلك كانت الامتيازات في البدء بسيطة، لكن نجم عنها تعقيدات كثيرة فيما بعد، فقد حولت الامتيازات إلى اتفاقيات ثنائية، فأصبح بإمكان السفن الفرنسية دخول الموانئ العثمانية تحت العلم الفرنسي، وصح الرواس حرية زيارة الأماكن المقدسة، والإشراف عليها وحرية ممارسة الطغوس الدينية هناك، ثم أصبحت مع مرور الزمن وكأها حقوق مكتسبة<sup>(٢)</sup>.

ومنذ ذلك الوقت شرعت الدول الأوروبية تتزلف إليها، وتتسابق إلى كنف عواهلها، مانتمسة الامتيازات، بينما صار سلطانها المنتصر المحفوف بالإجلال لا يبال في تصرفاته الدبلوماسية بمعاملة سائر الدول على اعتباره السيد الأعظم، وأن على هذه الدول واجب الطاعة والخضوع لمشيئته<sup>(٣)</sup>

ولم يمض وقت طويل حتى أقرت الدولة العثمانية لمختلف الدول الأوروبية، وفي معاهدات عدة، بالحقوق التي منحها السلطة لفرنس حيث التزمت بها لإنكلترا عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م، ولهولندا عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م، وللسويد عام ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م، ولروسيا عام ١١٨١ هـ / ١٧٦٧ م ولأسباب عام ١١٩٧ هـ / ١٧٨٢ م، ولروسيا ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م<sup>(٤)</sup>.

وجعلت الامتيازات الأوروبية يؤمور البلاد العثمانية، ويحملون بها، ويرثقون بها، وكانوا يتمتعون بامتيازات خاصة تجعلهم مفصلين على أهل البلاد العثمانية في ميداني القصد والاقتصاد<sup>(٥)</sup>.

(١) - اسماعيل، عادل وإميل خوري؛ السياسة الدولية في الشرق العربي، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت ١٩٥٩ م، ص ١٥

(٢) - حصون، علي الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، ص ٧٦

(٣) - بينهم، محمد جميل، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب، ١٩٥٧ م، ص ١٠٤.

(٤) - العتبت، محمد علي العرب والشرق من الحروب للصليبية إلى حرب السويس، مطابع الدار القومية، ص ١٩٥

(٥) - الحصري، ساطع البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ١٩٦٠ م، ص ١٤٣

وبدءاً لكل إفراط في الإفادة من هذه الامتيازات، ومنعاً لكل توسع في تفسيرها كان كل من الأباطرة والسلطانين يحرصون عند منحها على النص بأنها تنتهي بانتهاء حياتها، فكانت الدول الأجنبية مضطرة إلى تجديدها كلما قام سلطان جديد في مفاوضات خاصة، وكانت الامتيازات تقضي دائماً بالفرام الدولة التي تنالها سياسة الصداقة مع الدول المانحة، فإذا مالت عن روح الصداقة أصبح السلطان في حل من تعهدها<sup>(١)</sup>

وهناك من يقول أن ضعف السلطة العثمانية ومركزها الحرج تجاه الدول الأوروبية، كانا السبب في منح هذه الامتيازات وهذا القول قاسد، لأن السلطة العثمانية منحت أهم امتيازات في أيام مجدها وروها وقوتها، ففرنس مثلاً نالت امتيازاتها من السلطان سيمس القانوني من سلطان دانت له مشارق الأرض ومغربها وحقوق علمه فوق القسم الأكثر من العالم - فلا يمكن أن نعزو السبب إلى ضعف السلطة<sup>(٢)</sup>.

وكانت سياسة العثمانيين الخارجية تستهدف استمرار العلاقات الخارجية مع العرب الأوروبي، ومن ثم الاسترسال في التجارة البحرية مع الساقية ثم الفرنسيين والإنكليز والهولنديين، واستعمال الطرق البرية التي تصل إلى شمال أوروبا، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تكون علاقات تجارية مع البلدان الواقعة على المحيط الهندي، بالإضافة إلى بلدان غرب آسيا وإفريقيا<sup>(٣)</sup>. بهدف تحسين الأوضاع الاقتصادية في السلطة العثمانية.

وعندما تعرضت السلطة العثمانية لهزائم عسكرية أليمة أمام الجيوش الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ووجدت الدول هي هذه الهزائم مشجعاً لها على مزيد من التدخل أكثر مما بصت عليه منح الامتيازات التي قامت أصلاً على أساس نادل الحقوق والواجبات بين المستأمرين الأوروبيين في السلطة والرعايا العثمانيين في الدول الأوروبية، فقد أصبحت هذه المعاهدات غزماً على الدولة العثمانية ومنعاً للمستأمرين الأوروبيين<sup>(٤)</sup>

وبذلك أصبح مدأ المعاملة بالمثل غير وارد لدى الدول الأوروبية، فأصبح لدى كل دولة الجرأة الكافية، لتطلب لجانها على أراضي السلطة العثمانية تنظيمات عملاً وقصائماً مشبهاً لم هو عليه في بلادها، متناسية بأن للسلطة الحق في أي لحظة نقض العهد الذي منحتة عن طيب خاطر.

(١) إسماعيل، و حوزي المرجع السابق، ص ٢٠

(٢) مشهور، عبد الله الامتيازات الأجنبية، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٢٢ م، ص ٢٢.

(٣) - أحمد صلاح الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٤ م، ص ٧٠.

(٤) - الشهابي المرجع السابق، ص ٧٢٨.



## د - أسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة:

إن تدفق الأوروبيين بعد حصول نولهم على امتيازات تجارية سهلت لهم الحركة والانتقال من مكان إلى آخر بأمان، وحفظت لهم أموالهم وممتلكاتهم وتجارتهم، وأمنت لهم حتى مساكنهم، لذلك جاؤوا يحبون بلاد الشام ويكتشفون خباياها، ولعل أبرز الأسباب لمجبتهم الحصول على الثروات. وهناك مجموعة من الأسباب التي دفعت هؤلاء الأوروبيين للقدوم إلى بلاد الشام والاستقرار في ربوعها والنهل من خيراتها وأهمها:

١ - كانت لبلاد الشام أوصاف خاصة بها اختلفت اختلافاً جذرياً عن غيرها من الولايات العربية، فقد أسهمت هذه الأوصاف في قيام اتصال وثيق ومستمر بين ولايات بلاد الشام (الشام - حلب - طرابلس الشام)، وأوروبا طوال الحكم العثماني ٩٢٢ - ١٣٣٧ هـ / ١٥١٦ - ١٩١٨ م، حيث كانت العرلة مع أوروبا منعمة، وذلك لأن بلاد الشام لم تحصع لحكومة مركزية وحدة، بل قسمت إلى عدة ولايات، وكانت كل ولاية مستقلة عن الأخرى، وكان يطلق على حاكم كل منها لقب وال أو باشا، وكان رئيساً للسلطة في ولايته مسؤولاً عن صمن استمرار ولايتها للسلطان وتوفير العدالة والأمن للسكان، ولكنه لم يكن يتدخل في تنفيذ مشروعات اقتصادية واجتماعية<sup>(١)</sup>.

وهذا ما أتاح المجال لدى الأوروبيين العامين في بلاد الشام وولاياته، بأن يتحركو بحرية مستفيدين من توفر العدالة والأمن، وهما شرطان ضروريان لاستمرار وانتشار التجارة بالإضافة إلى إفساح المجال للأوروبيين للقيام بمشاريع تجارية واقتصادية، وكذلك كان سكان بلاد الشام يهتمون بالتجارة، منذ القديم، ويرون فيها وسيلة لتحسين أوضاعهم المادية من خلال الأرباح، لذلك كان تهافت الدول الأوروبية للحصول على امتيازات، وافتتاح فصوليات في المدن الساحلية والداخلية في بلاد الشام، وكذلك النوع الحضاري الكبير التي تتميز به بلاد الشام عما سواها وهذا التنوع (بشري ولغوي وديني)<sup>(٢)</sup>.

٢ - كانت بلاد الشام على مر العصور مركزاً تجارياً مهماً لتوسطها العالم، واتصالها السهل بالفارات الثلاث، ولوقوعها على طرق التبادل التجاري الكبرى، لذلك ترى القوافل التجارية المحملة ببضائع الهند وإفريقية تعبر الشام من جنوبها، وتجتازها عبر الطريق العالمية وتصب ما تحمل في المدن الداخلية، وعلى السواحل الشامية حيث تنقل منها بعيداً إلى أوروبا<sup>(٣)</sup>.

٣ - القرارات الاقتصادية العثمانية التي خدمت الأجانب أكثر من رعايا السلطنة العثمانية، فهي معاهدات السلطنة العثمانية التجارية مع الدول الأوروبية، فرضت رسماً مقداره (٤ %) على الأجانب الذين يرادون

(١) - غريبة ، عبد الكريم، سودية في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٤٠ - ١٨٧٦ م ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية للجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢ م ، ص ١٦٢.

(٢) - الشماوي المرجع السابق ، ص ٧٣٧

(٣) - صبيح - ليسى المجتمع العربي السوري في مطبخ المعهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٣ م ، ص ١٨٢.

التجارة، بينما فرصت على التجار العثمانيين رسماً مفادته أصعاف الرسم المذكور، كما فرضت السلطنة رسم تصدير قدره (٩ %) من قيمة البضائع المصدرة، في الوقت الذي فرضت فيه رسم استيراد مقداره (٢ %) من قيمة البضائع المستوردة، وكأنها تشجع الاستيراد على حساب التصدير<sup>(١)</sup>.

٤- تميزت ولاية حلب دون سواها من ولايات بلاد الشام بموقع جغرافي مهم جداً، تمكنت من خلال موقعها كمدينة (عبور) على طريق القوافل، مما وفر في أسواقها البضائع «لآتية من الشرق والعرب، كذلك تميزت بإنتاجها الذاتي الذي دخل كمورد اقتصادي في تجارتها»<sup>(٢)</sup>.

٥- فاقت حلب جميع مدن السلطنة العثمانية بما فيها إستانبول نفسها، وبذلك أصبحت كمسوق رئيسة للشرق كله، وعقدة مواصلات للتجارة العالمية ما بين الخليج العربي والآستانة وشرق المتوسط، ومحطة كبرى لحج مسلمي ما بين الدهريين وكرديستان<sup>(٣)</sup>.

٦- إن حلب مدينة اتصال ومركزها لإستراتيجي أتاح أن تكون نقطة الوصل بين بلاد الرافدين والأناصول من جهة، وسورية ومصر وفلسطين من جهة أخرى، لذلك كان عدد الأوروبيين الذين يقطعون حلب يتجاوز عدد الفاطنيين في دمشق، بطراً لكون حلب أقرب منفذ للاتصال بين الشرق العرب<sup>(٤)</sup>.

٧- أفصلية الطرق البرية مع الهند، بالمقارنة مع الطرق البحرية التي أصبحت تنح بالقرصنة خلال القرن السادس عشر الميلادي، مما جعل من حلب مركزاً مهماً في الطريق البري الممتد من الهند إلى شرق المتوسط، بالإضافة إلى تزايد أهمية الحرير في الاقتصاد الأوروبي في القرن السادس عشر الميلادي، مما جعل حلب مركزاً مهماً لتخزين وتوريد الحرير إلى أوروبا، بطراً لموقعها المتوسط بين المناطق المنتجة له في بلاد فارس والبلاد المستوردة له أي أوروبا<sup>(٥)</sup>.

٨- كون حلب مركزاً للتجارة الدولية يتم فيها استقبال وتوزيع منتجات أوروبا المصنعة في بلاد الشرق، وتخزين مواد الشرق الأولية قبل إعادة تصديرها إلى أوروبا، كما كانت في الوقت نفسه مركز التجارة المحلية في السلطنة، ولها علاقات تجارية تربطها بدمشق وأنطاكية وطرابلس واللاذقية<sup>(٦)</sup>.

(١) - هلال ، فؤاد، التحولات الثقافية والاقتصادية المهمة في حلب خلال الثلاثة قرون العثمانية ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م ، ص ٣٥٤

(٢) - ناجي، عبد الجبار دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص ٣٧٩.

(٣) - لأسدي، خير الدين أحياء حلب وأسواقها، د. عبد الفتاح رؤوف قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦ م، ص ٤٨

(٤) - الدباغ، عائشة، الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٧٢ م، ص ٢٨

(٥) - الأردووط، محمد - منشآت محمد باشا توكجي في حلب، مجلة الحواشي، المراجع السابع، ص ١٩٦.

(٦) - العولق، فوزق: حواشي حلب اليومية ١٧٧١ - ١٨٠٥ م - دار شعاع للنشر والعلوم، حلب، ط ١، ٢٠٠٦ م، ص ٤٤.

## هـ بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب:

عندما دخلت البلاد العربية تحت حكم السلطنة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، حاول العثمانيون القضاء على احتكار البرتغاليين لتجارة الشرق الأقصى، وردّهم عن أطراف الجزيرة العربية حربيًا، وذلك بمحاولتهم السيطرة على طرق التجارة البرية ضمن البلاد العربية، وب عقدهم اتفاقيات تجارية مع الدول الأوروبية المختلفة (فرنسا وإنكلتر والسندقة وهولندا) وإعطائها امتيازات تجارية مهمة، منها حق التجارة وإقامة في الموانئ والمدن العثمانية وتحفيض الرسوم الجمركية على البضائع الواردة والصادرة، وحق وجود قناصل لها يتمتعون بالسلطة على مواطنيهم داخل الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

ومن هنا أخذت الدول لأوروبية ترسل رعاياها إلى المدن الساحلية والداخلية في الدولة العثمانية، على شكل مجموعات للعمل بالنشاط التجاري، والاستفادة من خيرات البلاد المهجر إليها، وقبل الحوض في البحث عن الجاليات الأوروبية وبدء استقرارها في الولايات العربية التابعة للسلطنة العثمانية وخصوصاً ولاية حلب، يرم التعرف على مفهوم الحالية من خلال العودة إلى معجم اللغة. وقد تبين أن لفظ جالية اشتق من فعل جلا وجلا القوم عن أوطانهم يجلون، إذا خرجوا منها إلى بلاد أخرى<sup>(٢)</sup>.

ومنذ القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي فتح الوطن العربي أبواب تجارته الخارجية للأوروبيين، وبخاصة الإيطاليين منهم وجاءت حروب الفرنجة ٤٩٥ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م، وساعدت على تقوية تجارة الأوروبيين تلك، وعندما انتهت تلك الحروب، بقيت المدن الإيطالية في علاقاتها التجارية مع الوطن العربي<sup>(٣)</sup>.

وبذلك بدأ الأوروبيون بتنظيم علاقاتهم التجارية مع حلب، منذ أن وقّع أمير السندقة مع الملك الطاهر غري الأيوبي اتفاقاً في العام ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م يضمن إقامة البادقة في حلب وحمايتهم، حيث استقبل الملك غري سفير البندقية بيتر مارينياني في قلعة حلب، وحصل للبادقة في حلب فندقاً وحماماً وكنيسة، وقد أعيد تثبيت لاتفاق في عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م وفي عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م. استمرت العلاقات التجارية قائمة مع المدن الإيطالية (جوة - بير - البندقية) أيام المماليك ٦٥٩ - ٩٢٣ هـ / ١٢٦٠ - ١٥١٧ م. وبدخول العثمانيين البلاد العربية واتساع رقعة السلطنة العثمانية، أصبحت حلب إحدى أكبر الولايات في الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup>.

(١) - الحكيم، دكتور، للتجارة وغرفة التجارة في حلب من خلال الأوامر السلطانية، مجلة الحوليات، للمرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) - ابن بطوطه، المسافر للعرب، دار صادر، بيروت، المجلد ١٤، ص ١٤٩.

(٣) - الصباغ، لطفي: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حبان، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ١٨٣.

(٤) - حجاز، عبد الله: إحصاءات حلبية، المكتبة الرقمية، جامعة حلب، ط ١، ٢٠١٥ م، ص ٨٩ - ٩٠.

نظراً لأهميتها الاقتصادية واستقرارها السياسي، قامت الكثير من الدول الأوروبية بفتح قنصليات تجارية في حلب لرعاية مصالحها التجارية وعقدت اتفاقيات ثنائية كما عينت الدول الأوروبية سفراء ممثلين لها في إستانبول وقاموا في حلب، وأحدثت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا تتجه بأنظارها نحو السلطة العثمانية، للحصول على المواد الأولية لتسيير آلة صناعة العرب ومن ثم لتسويق بصرتها، فهيمس التجار الأوروبيون دخل السلطة العثمانية هيممة كاملة على عملية التبادل التجاري، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المصمار، وكانت الشام نقطة بارزة فيه<sup>(١)</sup>، لكن جمهورية البندقية التي كان لها علاقات مبكرة مع سورية وحلب بالذات منذ أيام الأيوبيين، حيث ارتبطت بعلاقات مع سورية منذ ولادتها كجمهورية، وحتى روالها حيث دامت هذه العلاقات وبلا انقطاع فترة (٧٠٠) سنة متتالية، حتى روال البندقية كدولة مستقلة عندما احتلها نابليون عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م<sup>(٢)</sup>. وكان للتجار البنادقة، حارس يسمى حارس البنادقة، فقد أسس البندقيان ألبانو وماركو مورسيني شركة تجارية في حلب لشراء العطر الجيد، كما يفلوا المركز الرئيسي شركتهم من البندقية إلى حلب<sup>(٣)</sup>. وفي عام ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م أحد البنادقة ببناءً وقنصلية وكنيسة لهم في حارس الحامير، وأصبح القنصل البندقي مرحباً لكل لأجانب، وقد حل معظم الرحالة الذين تكلموا عن حلب، في بيته وتحدثوا عنه وعن جاليته<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة لفرنسا فتبدأ العلاقات التجارية الحقيقية بين فرنسا والشرق بعد توقيع اتفاقية ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م (بدأ عهد جديد بين فرنسا والسلطنة العثمانية، وتأسست القنصلية الفرنسية في حلب في حارس الجمرك عام ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م، وكان أول ممثل للملك الفرنسي في حلب (Jeanr renier))، وكانت فرنسا والسلطنة العثمانية تنمى عالياً أهمية حلب الاستثنائية معتبرينها أول مدينة في سورية، وأرفع شأناً حتى من دمشق<sup>(٥)</sup>.

وقد سعت فرنسا بعد أن حصلت على الامتيازات لاحتكار التجارة في سورية وإبعاد البنادقة عن منافستها، ولكن مساعيها لم تصطدم بمقاومة البندقية فحسب، وإنما ظهر منافسون جدد وهم التجار الإنكليز الذين تسهوا القيمة التجارية في هذه النطاق في القرن السادس عشر الميلادي، وفي عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م كان أحد التجار الإنكليز الطوني جيكيوسون في مدينة حلب، والتقى فيها بالسلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان يستعد فيها لحملة ضد فارس، وطلب إليه أن يحمي تجاره وممثليه وشركاءه، وأن يعطي حريسة

(١) - رجائي، محمد المصالح الفرنسية الاقتصادية في سورية، مجلة دراسات تاريخية، ع ٢٧، ٢٨، ١٩٨٧ م، ص ٣١

(٢) - كوستانيني، فير، علاقات البندقيين التجارية مع حلب، ت. سيل اللو، مجلة جمعية البندقيين بحلب، لمرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٣) - الحمصلي، فايز، حلب القديمة، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ١٩٨٣ م، ص ٦٤.

(٤) - حريتان، محمود حلب وعلاقاتها الدولية عبر التاريخ، مجلة اقتصاديات حلب، ع ٢، دار الوفاء للطباعة حلب، ١٩٩٢ م، ص ٥٨

(٥) - مورمير، لمرجع السابق، ص ٣٧٥

التجارة في سلطنة على نفس الأسس المعطاة للبنادقة والفرسيين واستجاب السلطان لطلبه، وسمح له ولشركائه بحلب بصانعهم إلى الموانئ العثمانية على مراكب إنكليزية تحت العلم الفرنسي، وسعت الملكة إليزابيث لعقد معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية على غرار معاهدة الملك فرانسوا الأول والسلطان سليمان القانوني، وعلى الرغم من معارضة الفرنسيين، فإن المفاوضات استمرت بين العثمانيين والإنكليز وأثمرت في عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م معاهدة بين الطرفين، وفيها أثنان وعشرون بندا عن الحريات المعطاة للرعيا الإنكليز المتاحرين في السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>. وفي عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م أسس ريتشارد فوستر أول فصلية إنكليزية في حلب أشرفت عليها إنكلتر وشركة للبقاع<sup>(٢)</sup>.

وأما هريدا: فعندما توفي الملك الفرنسي هنري الرابع، تضرعت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية وهريدا، فاعتمها الهولنديون فرصة، وتمكوا من الحصول عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م على امتيازات بالتجارة في السلطنة العثمانية بحماية علمهم الخاص، وكانوا قبل ذلك في حماية العلم الفرنسي، كما كان الإنكليز والهولنديون يخلون إلى السلطنة لبارود والحديد والعتاد العسكري وهي مواد كان البابا قد حرم على الدول الكاثوليكية الإتجار به مع السلطنة العثمانية<sup>(٣)</sup>. لذا بدأ الهولنديون بإقامة جالية في حلب وطوروا نشاطهم بالتفتيش عن المنتجات النمية لأتية من الهند وبلاد فارس والجزيرة العربية، فأول تاجر هولندي معروف، قام بالتجارة في حلب، يدعى بييريو الذي غامر بلاده ليكتشف بلاد الشرق لصالح تجارته، وقد رار سورية ومصر والجزيرة العربية، واستقر لبعض الوقت في حلب حيث كسب ثروة كبيرة جراء ذلك ومنذ منتصف القرن السادس عشر حصلت فرنسا من الباب العالي على الامتيازات التي أُنحت لها أن تتاجر بحرية في جميع أرجاء السلطنة العثمانية، وقام التجار الهولنديون بوضع أنفسهم تحت حمايتهم، بقصد الاستفادة من الامتيازات نفسها.

وفي عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م عانى التجار الإنكليز من منافسة التجار الهولنديين إذ أن تجارتهم لم تكن تشكل سوى نصف تجارة الهولنديين، ولقد صاحبت هذه الريادة في التجارة الهولندية بكل تأكيد زيادة في الجالية الهولندية في حلب، وبعد أن كانت وكالتين أو ثلاث في عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م، أصبحت قرابة العشرين وكالة عام ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م، مما أدى إلى الشعور بالحاجة لتسمية فصل ليقوم بتمثيلهم وحمايتهم<sup>(٤)</sup>.

(١) - صباغ المجمع العربي، للمرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) - البقاع: مصطلح يعني للشرق (للجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط) ويطلق عموماً على البلدان المجاورة للبحر المذكور الشرقي، وأصبحت الدول الأوروبية هذه لتسمية على شركاتها التي اهتمت بالأمور التجارية في الشرق.

(٣) - اسمعيل، المرجع السابق، ص ٢٢-٢٣.

(٤) - المحرم، حسين، أولهبة سالمون العلاقات بين البلاد المنخفضة وسورية العثمانية في القرن السابع عشر وأربعمئة عام من العلاقات الفصليية ١٦٠٧ - ٢٠٠٧ م، ت. محمود حريثاني، قيد النشر، ص ٢٩.

لقد كانت حلب من بين المواقع التي أصبت بالتأثير الأوروبي ، وقد حافظت إنكلترا وفرنسا وهولندا والمدن الإيطالية على فوصلات في المدينة، كما أن تجاراً من بلدان أوروبية ، وهي قرون مسكرة احتاروا حلب كمحطة مفصلة لتجارتهن مع الشرق، وتخصيص أحياء سكنية دائمة في وسطها التجاري. ونظراً لوقوعها على مفترق طرق التجارة المهمة للإقليم، ولعربها المناسب من البحر الأبيض المتوسط، قدمت حلب مرابا لرجال الأعمال الأوروبيين تتماشى مع مراكز مدينة أخرى قليلة العدد من السكان المسيحيين. ومع ذلك فإن المدينة استقبلت إرساليات تبشيرية كنوليكية وعبر كنوليكية ، حيث وجدت في حلب أرضاً حصبة لعملها الديني<sup>(١)</sup>.

.....

(١) - ماركوس. المصدر السابق ، ص ٣٨

## الفصل الأول:

النظام الإداري للجاليات الأوروبية في ولاية حلب

السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية.

السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول).

القناصل الأوروبيون في ولاية حلب.

الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب.

## السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية:

إن السلطات الأوروبية التي قامت بإرسال رعاياها إلى ولايات السلطنة العثمانية، للقيام بالنشاط التجاري لم تتركها في أراضي السلطنة دون اهتمام أو رعاية، بل كانت هناك علاقة ثنائية وثيقة بينهما. حيث لم ترسل الدول الأوروبية رعاياها إلا بعد أن اطمأنت على أرواحهم وتجاريتهم وممتلكاتهم، من خلال حصولها على الامتيازات والضمانات من السلطنة، إذ كانت لدول نمائة العيون الساهرة على رعاية مصالح رعاياها، سواء كانوا داخل البلاد أو خارجها وفيهم يلي تعريف بالمؤسسات التي كانت توجه الرعايا لأوروبيين من وطنهم.

**جمهورية البندقية:** كانت البندقية تنطبق على رعاياها في السلطنة العثمانية كلمة مستعمرة (colonia)، وكانت تلك المستعمرة تحصى في إدارتها وتنظيماتها وتشريعاتها، مدسّاتاً الأولى في بلاد الشام إلى مقررات المجلس الكبير، الذي امتدت اختصاصاته حتى شملت كل ما يخص الشؤون العامة، والذي كان له وحده السلطة التشريعية وسن القوانين، وإلى مجلس الشيوخ الذي كان يملك حق التصرف بالشؤون المالية ومناقشة المعاهدات وحاصة الامتيازات، كما كان يصع التعليمات للسفراء في الخارج، وينتم منهم التقارير التي كانت توضح أسبوعياً شؤون البلاد الممثلين فيها<sup>(١)</sup>

وكان يرتبط بمجلس الشيوخ لجنة المجمع التي تصم إلى جانب الدودج<sup>(٢)</sup> خبراء في جميع المجالات التجارية البحرية والبرية. وفي عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م قرر مجلس الشيوخ إنشاء لجنة الخبراء الخمسة للتجارة، وأعطاهم لإدارة العليا لشؤون التجارة ومراقبتها وبخاصة الفصليات. ويمكن القول: إن المؤسسة الحكومية الرئيسية التي ترتبط بها إدارة الجاليات البندقية في سورية هي لجنة الخبراء الخمسة للتجارة. فلقد استطاع نظم الحكم الأوليغاركي<sup>(٣)</sup> في البندقية أن يسيطر على التجارة، ويوجه جميع الجهود الفردية فيها نحو خدمة مصالح الدولة ومجدها، وأن يخلق للجاليات في كل مكان تستقر فيه إدارة حكيمة وحازمة تصب في الأمور، وتنفذ التجارة في أماكن إقامتها قدماً، ولصالح جمهورية البندقية<sup>(٤)</sup>

- (١) ديل، سارن البندقية جمهورية أروستقراطية، ب. توفيق اسكندر وأحمد عبد الكريم، دار العرجاني طرابلس ليبيا، ص ٢٨
- (٢) - الدودج: يمثل الصورة الفخمة والرمز الباهر بعظمة البندقية، وكان عندما يسير يرافقه كبير قواد البحر وركن حربه والدودج يستعبد السفراء ورؤساء المجالس (الكبير - الشيوخ - الحشرة) ويوقع على جميع المراسيم للجمهورية وتؤكد العقود بعصمه. انظر سارن ديل: المرجع السابق، ص ٨٦
- (٣) - الحكم الأوليغاركي. وهو يشكل حكومه تكون فيها السلطة مركزة في يد قلة من الأفراد أو العائلات، ويوصف هذا النوع من الحكومات بأنه حكم القلة أو حكم الحصة. والكلمة مأخوذة من (Oligarchie) الفرنسية
- (٤) الصباغ، نيلي: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس والسابع عشر، ج ٢، مؤسسة الرسالة، ط ١، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ٥٣٧



فرنسا: كانت فرنسا تطلق على رعايها الفرنسيين في بلاد الشام تسمية أمة (nation) حيث تبت مدينة مرسيليا تجارة اللبانت، وكان لها الحق في عقد معاهدات تجارية مع الأمم الأخرى، والتحالفات مع الأمراء الأجانب وتجهيز الأسطول وفيما بعد، قررت بلدية مرسيليا أن توجد ممثلين حاصيين مكلفين بإدارة أعمال التجارة، يطبق عليهم اسم نواب التجارة، وكان هؤلاء النواب هم الذين يديرون الأعمال التجارية وبخاصة تجارة اللبانت ويقدمون تقاريرهم عنها لمجلس البلدية ومذكراتهم إلى الملك. فهم إذن المديرون الفعليون لتجارة الإسكلات<sup>(١)</sup> وأمام الصعوبات السامية التي لاقتها التجارة الفرنسية، فقد تقرر إنشاء مكتب مؤلف من عدد ضئيل من الأفراد ينتخبون من بين أكثر التجار تجربة ونشاطاً ومعرفة. وأطلق عليه اسم (المكتب الخاص لإدارة أعمال التجارة وسيرها)، ومن هذا المكتب وجدت البيرة الأولى لتنظيم غرفة تجارة مرسيليا الشهيرة

وبواسطة الوزير كولبرت<sup>(٢)</sup> صدرت مجموعة من القرارات التي تنظم إدارة الجاليات الفرنسية في الإسكلات السورية، مثل قرارات سنة ١٠٧٥هـ - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٤م - ١٦٦٥م - ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م واستناداً إلى ذلك صدر أمر البحرية الكبير في سنة ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م، الذي يوضح علاقات التفاصيل بالجاليات وقرع إدارة الإسكلات<sup>(٣)</sup>. وهكذا يتضح مما سبق بأن أمور الجاليات الفرنسية في بلاد الشام لم تستقر بإدارة واحدة إلا في الربع الأخير من القرن السابع عشر، من خلال تنظيم مهام غرفة تجارة مرسيليا التي أصبحت المراقبة الفعلية لإدارة الإسكلات، حيث حددت الغرفة المذكورة مهام السفير الفرنسي في إسطنبول كما أنها حددت مهامه تجاه التفاصيل في الإسكلات

إنجلترا استقبلت الحكومة العثمانية بعثة إنكليزية عام ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م، واستطاعت البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً في وضع الحجر الأساسي للتجارة الإنكليزية في السلطنة العثمانية. وفي عام ٩٨٩هـ / ١٥٨١م صدر العقد التأسيسي لإنشاء شركة اللبانت (the levant company) وهي شركة إنكليزية مارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة، فهي التي كانت ترشح السفراء الإنكليز في إسطنبول، وتدفع لهم الرواتب. وكذلك كان جميع قنصل إنكلترا، وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات السلطنة العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة، ويتقاضون منها مرتباتهم. وطال هذا التقليد سائراً أكثر من قرنين حتى سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م<sup>(٤)</sup>.

(١) - الإسكلات: كلمة تركية أصلها إيطالي أو يوناني. معرّدها: اسكلة تعني مكان شحن البضائع ولا يقصد منها الموانئ فقط، وإنما تشمل جميع المراكز والمنشآت التي كانت شحن منها البضائع أو تعرض فيها، ويقام فيها الأجانب

(٢) - للوزير كولبرت: الاقتصادي شهير ١٦١٩ - ١٦٨٣م عين مراقباً عاماً للمالية ١٦٦٢م وأجرى بها عدة إصلاحات وحقق الصراف ثم تسلم نظارة البحرية الفرنسية ١٦٦٩م

(٣) - للصياح الجاليات الأوروبية، المرجع السابق ج ٢ ص ٥٤١

(٤) - الشدوي، المرجع، السابق ص ٧١٧

وهكذا يتبين أن شركة الليفات بتطبيقاتها ومجالسها الديمقراطية وسيطرتها على كل ما يحسن التجارة، وإدارة شؤون الجاليات في الإسكلات، كانت تصع جداً لما يمكن أن يحدث من هوصى وتبليل، حيث كانت السلطة مورعة بين هيئات سياسية عديدة<sup>(١)</sup>.

**هولندا:** تأسست إدارة التجارة مع بلاد الشرق في الخامس من أيلول عام ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م بحيث تشكلت من سعة تجر من أمستردام، عيّنوا من قبل عمدة أمستردام، وتحملوا بالتالي مسؤولية التجارة في بلاد المشرق، وكذلك علاقات هولندا مع القسم الشرقي لحوض البحر المتوسط. ولقد كان تعيين القناصل بطريق من حق مجلس الطنعات، ولكن من الناحية العملية كانت إدارة التجارة تقترح التعيينات على مجلس الطنعات، كما تهتم برواتب القناصل وتوقف التوجهات الفصليه، وتعيين أيضاً الموظفين الفصليين. وبعد تشكل إدارة التجارة بقليل اهتمت بعصلية هولندا في حلب<sup>(٢)</sup>.

### السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول):

كان السفراء يقومون على رأس مجموع الجاليات الأوروبية، في مختلف الإسكلات ببلاد الشام. كما يعد هؤلاء السفراء ممثلين لدولهم لدى السلطة العثمانية وكان مقر إقامتهم العاصمة (إستانبول)، إذ استقبلت السلطة سفراء الدول لأوروبية منذ عام ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م، عندما استقبلت السفير البندقي، وأسهمت السلطة بتوفير الراحة والأمان والسكن والحماية للبعثات الدبلوماسية الأوروبية والحصانة التي تتمتع بها دار البعثة هي من الحصائص المتصلة مباشرة بدات الدولة، باعتبار أن المقر المستخدم لبعثتها ثابت الحصانة، لا يحور دحوله إلا بدس رئيس البعثة وعلى الدولة المصيفة اتخاذ كافة الوسائل لحماية دار البعثات ضد أي عدوان، ومنع أي إخلال بأمن البعثات وصيانة كرامتها، ولم يكن للبعثات دور قبل ظهور الدبلوماسية الدائمة، وكان الرسول أو المبعوث وحاشيته يدورون في دور الصبابة أو المسكن التي تعتبرها الدولة لهم، فإد، طالت مدة بقاء السفير جاز له استئجار مكان أو أكثر حسب حاجته وبعثته.

كما أن المبعوث مستأمن يمح الأمان بمجرد دحوله، وبالتالي يمح بما يمح به المستأمن من حقوق، وتبدأ الحصانة الدبلوماسية مع دخول الرسول حدود الدولة المرسل إليها، ومقابلته عند الحدود بالإجلال والاحترام، ويتلقى الرسول حصانته ما بقيت مهمته<sup>(٣)</sup>.

- طرق انتقاء السفراء: كان الأوروبيون يتفقون ممثلهم الدبلوماسيين على طريقتين:

(١)- الصبغ: الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٤٥.

(٢)- السدرس المرجع السابق ص ٤٣.

(٣) - النابعي، محمد السعادات في الإسلام، مطبعة مديولي، القاهرة، ١٩٧٧ م، ص ١٧١-١٧٣.

الأولى اختيار المرشحين، ويعين هؤلاء عادة في الدرجة الدنيا من السلك الدبلوماسي، وسائر النواحي يتقدمون في الدرجات حتى يصبحوا مستشارين أو وزراء مفوضين ثم سفراء، وهؤلاء الدبلوماسيون جميعاً يمثلون بلادهم التي أوفدتهم إلى بلاد أخرى، ولكن لا يتكلم باسم الدولة التي أرسلته إلا رئيس المبعثة الدبلوماسية، أو من يحل محله منهم.

الثانية: فسمية من لمست فيه الكفاءة والخبرة السياسية والتاريخية وعرف بالدهاء، سفيراً أو رسولاً رأساً.

فمن خلال ترجمة التقارير السرية وغير السرية التي وصعها سفراء الدول الكبرى المعتمدون في دار السلطنة العثمانية وقناصلها المنتشرون، وجدوا عيوباً مفرحة وأدبا مصنعة لئلا ينعقد في حواضر الشرق، وكذلك من خلال تعليمات وقرارات خارجية تلك الدول الكبرى إلى سفرائهم وقناصلهم حول شؤون الشرق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويلاحظ من خلالها كيف بدأت الدول الكبرى في القرن السادس عشر تعي أهمية الشرق ودوره الأساسي في التجارة العالمية وفي التوازن الأوروبي آنذاك<sup>(١)</sup>

اختيار السفير البندقي ومهامه: يعد السفير البندقي في العاصمة العثمانية، ممثل دودج البندقية لدى السلطنة، كما يعد في الوقت نفسه رئيس الجالية البندقية في إسطنبول، وحكم جميع المستعمرات البندقية على أرض السلطنة العثمانية، وتنفذ جمهورية البندقية البيل (وهو ممثل الدودج لدى السلطنة العثمانية، ويرأس الجالية البندقية في إسطنبول وفي جميع أنحاء السلطنة)، وتركزت مهمته على إجراء مفاوضات مع السلاطين العثمانيين، وكلما اعتلى عرش السلطنة سلطان جديد فإنه يطلب من السلطان تأكيد الامتيازات والمكاسب التي نالها البندقية في المعاهدات السابقة كما كان يعالج المشكلات الصعبة والمعقدة الخاصة بتمويل التجارة وشؤون رعاية، أما النيل بعد أكثر ممثل للسلطات السياسية والقضائية للبلاد المعينين أو العابرين أراضي السلطنة، وأول بيل للبندقية محل لدى السلطنة كان بعد سقوط القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م.

وكان مجلس الشيوخ البندقي هو الذي يعين السفراء في جميع البلاد التي لها علاقات مع البندقية، ما عدا سفير البندقية لدى إسطنبول الذي كان يعينه الدودج بنفسه لأهميته وقيمته<sup>(٢)</sup>. كما حدد المجلس الكبير في البندقية في أواخر موضوعه واجبات السفراء الذين تعث بهم البندقية في مهام إلى خارج البلاد، وقد دلت هذه التنظيم المحكم الدقيق الدروة في القرن السادس عشر، ولم يكن للبندقية حتى تلك الوقت سفراء دائمون إلا في إسطنبول وروما، وقد كان يوكل مجلس الشيوخ فيه اختيار السفراء، ويعين لهذا المصعب في الغالب

(١) المنجد، صلاح الدين. النظم الدبلوماسية في الإسلام، دار الكتب الجيدة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ م، ص ٢٠.

(٢) - إسماعيل، عادل ومير إسماعيل. الصراع الدولي حول الشرق العربي، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٥٩ م، ص ١٢.

(٣) - بيل المرجع السابق، ص ٣٤.

شريعاً ثرياً يستطيع أن يقوم بأعبائه على نحو لائق ، ويعين لثلاثة أعوام حتى يتجرب أن تعقد بين مبعوث الجمهورية والديوان الذي يعيش فيه صلات وثيقة قد تنسي السفير البندقي مصالح وطنه.

وكان مجلس الشيوخ يحدد نشاط السفير في التقرير الذي يصممه تعليماته. (على كل مسفير أن يصع نصب عبئه على السوام شرف الجمهورية ومصلحتها). وكانت كل الرسائل الموجهة إلى الجمهورية ، تنقل في مجلس الشيوخ ، خاصة وحيد السفراء البندقية المنتشرين في أنحاء العالم والذين يحيطون بالجمهورية عملاً بأعمال الأمراء وحركاتهم ومشروعاتهم وأكثر الرعايا إخلاصاً ، من بعثي لمعرفة الأمور الحسنة فإنهم يجمعون المعلومات عن خلق أولئك لأمراء وصفاتهم ومصالحهم وصلات القرابة والصداقة التي تربطهم بأحبارهم<sup>(١)</sup>.

وصفوة القول إن مجلس الشيوخ في البندقية كل يرى من واجبه أن يعرف في كل سبعة أيام ، وعن طريق مبعوثيه حالة البلاد التي تربطها بهم علاقات سياسية واقتصادية. لقد عهد مجلس الشيوخ منذ عام ١٦٦٧هـ / ١٢٦٨ م إلى السفراء بأن يقدموا عند رجوعهم من مهامهم تقارير وافية وشاملة ، والتي يبدو فيها جلياً ما اتصف به الدبلوماسيون الباقية من الموقف السليم المرفق ودقة الملاحظة. وقد هان لدى البندقي كل شيء في سبيل حكمة وطنه. وتقدم التقارير في حفل فخم جداً ، إذ ينفذ السفير أمام مجلس الشيوخ المجتمعين وبحضور النودج وهيئة المجمع ورؤساء مجلس العشرة وبتلو السفير التقرير الذي وضعه. ولتلك التقارير أهمية كبيرة للتاريخ الأوروبي في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ومضمون التقارير: (موقع القطر الذي كان مقر السفير وحدوده الجغرافية وأقسامه الإدارية ومنته المهمة وثغوره وحصونه وأهله وعاداتهم وديهم وحالة جيشه في البحر والبر وصناعاته وتجارته وصادراته ووارداته وشكل حكومته وثروته ووطنه والتحالفات التي تربطه بغيره من الأقطار وحلق ورائه العاملين ودقائق عن شخصية حاكمه ومعيشته وميوله وبلائه وماليته وسياسته). هذه هي النودج المختلفة التي كانت تسترعي اهتمام رجال الدبلوماسية من الباقية.

وقد سبحت السطنة العثمانية للبندقية في أول اتفاق لها بعد سقوط القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م بإقامة هذا البيل المكلف بإدارة المستعمرة البندقية فيها ، كما كان ينص في جميع المعاهدات التالية المعقودة بين الطرفين على إبقاء هذا الموظف البندقي في إسطنبول. وكان يساعد البيل البندقي في عمله مجلس يُنتخب أعصاه من الجالية البندقية في إسطنبول ، ولا تعتبر سلطاته القضاء الفصلي ، وإن كان يجمع بكامل أعصائه للأمر المهمة فقط ، وكذلك كان هناك الترجمة وعددهم يتراوح بين سنة أو سبعة ويقومون بالترجمة بين البيل والباب العالي ، ويعاونون التجار في عملهم.

(١) - بيل. المرجع السابق، ص ٢٠٥

أما علاقة سفير البندقية في إسطنبول مع القنصل في الإسكندرية ومنها حلب فكانت محدودة ، فهو يتلقى الشكاوى ، وما عليه القيام به من حكومته ، أكثر ما يتلقاه من القناصل ، أي أن ارتباط كل قنصل بالحكومة المركزية في البندقية كان قوياً ، ويشهد ارتباط السفير نفسه به<sup>(١)</sup> . وفي شكوى يتقدم بها سفير البندقية إلى دار السعادة معاهده أن التجار الأجانب الذابعين للفتنة الذين يأتون إلى حلب كثيراً ما يكونون عريضة للمصايقة والتعجير ، وأحد الرسوم الرائدة عن الحد القانوني ، وذلك خلافاً للعهد السلطاني ، لذلك يجب عدم استيفاء أي رسوم زيادة عن الرسوم القانونية<sup>(٢)</sup> .

**اختيار السفير الفرنسي ومهامه:** عيّنت فرنسا عام ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م لأول مرة سفيراً في إسطنبول ، وبعد ذلك التاريخ أحدثت ترس سفيراً لها إلى العاصمة العثمانية ، وخصوصاً عندما تطورت العلاقات العثمانية - الفرنسية بشكل كبير زمن السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا الأول مع توقيع معاهدة ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ، والتي شكلت منعصفاً كبيراً في العلاقات الثنائية بين الدولتين . وكان الملك هو الذي يعين السفير في إسطنبول ، إلا أنه في القرن السادس عشر الميلادي ترجعت العلاقات بين الطرفين بسبب سياسة بعض ملوك فرنسا (شارل التاسع وهنري الثالث ٩٦٨ - ٩٩٨ هـ / ١٥٦٠ - ١٥٨٩ م . لتحسن العلاقات البريطانية الهولندية مع الدولة العثمانية على حساب العلاقات الفرنسية العثمانية في القرن السابع عشر الميلادي ، سبب سياسة ملوك فرنسا لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ١٠١٩ - ١١٢٨ هـ / ١٦١٠ - ١٧١٥ م .

وفي القرن الثامن عشر الميلادي وبسبب ظهور روسيا على مسرح السياسة الدولية بفصل قبصرها الشاب بطرس الأكبر ١٠٩٣ - ١١٣٨ هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٥ م الذي قادها على طريق التقدم في مختلف ميادين العمران والاقتصاد والسياسة والتسلح ، وعمل جاهداً لجعلها دولة أوربية مرموقة عن طريق إخراجها من عزلتها عن العالم المتحضر ، مما سبب تنافساً دبلوماسياً قوياً جدّاً بين الدول الأوروبية على بسط النفوذ والتقارب من الباب العالي ، فشطت الدبلوماسية الفرنسية في إسطنبول ممثلة بمجموعة من السفراء (المركيز دي فيلوف - فرجين - سان بريست - شوارول غوفيه) .

وفي عهد الملك الفرنسي لويس الخامس عشر ١١٢٨ - ١١٨٨ هـ / ١٧١٥ - ١٧٧٤ م ، الذي أوفد المركيز دي فيلوف (وهو السفير الخامس والعشرين للحكومة الفرنسية لدى الباب العالي) سفيراً إلى الباب العالي تمكن بحكته وقوة إقناعه ودهائه وسعة حيلته ، من حمل السلطان العثماني محمود الأول ١١٤٣ - ١١٦٨ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٤ م على التصدي للنشاط الروسي المتزايد في البلقان ، بعد أن أكد له تأييد

(١) المصباح للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ - ٥٥١ .

(٢) - للفرمان رقم / ٢٧٣ / تاريخ فرمان (١١٦٣ هـ) من السجل / ١ / لأوامر العثمانيين لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

سيده المطلق له فأعتمد هذه الفرصة فجدد في معاهدة عقدها معه (٢٨ أيار ١٧٤٠ م) امتيازات فرنسا السابقة مصافاً لها امتيازات جديدة نعهد السلطان ببقائها نافذة مدى حكمه وحكم خلفائه من بعده<sup>(١)</sup> وهي معاهدة عام ١٠٨٤ هـ / ١٦٧٣ م مع تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارها<sup>(٢)</sup> وأبرز بنود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ما جاء في البند / ٨٣ / (أنه لما كان ولاء فرنسا مستمراً مع الباب العالي وأقدم عهداً من ولاء سائر الدول الأوروبية الأخرى ، لذلك يجب إصدار أمر من الباب العالي بأن تكون معاملته بلاط فرنسا من أجل وألحق المعاملات ، وأن تقدم الإكراميات والتسهيلات التي نعامل بها سائر الدول الأوروبية الأخرى برعاية ملك فرنسا لويس الخامس عشر)<sup>(٣)</sup> يلاحظ سعي السلطة الحثيث لإقامة علاقات طيبة مع الدول الأوروبية

### حقوق السفراء الفرنسيين في معاهدة الامتيازات ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م

إن سفراء فرنسا المعيين لدى الباب العالي عندما يحضرون إلى الديوان الهمايوني أو يذهبون إلى الوزراء العظام أو إلى المستشارين ، يعاملون حسب العوائد القديمة بالأفضلية ، ويفضون على سفراء أسبانيا والملك الأخرى<sup>(٤)</sup> ، كما لا يؤخذ من سفراء فرنسا صرائب الجمرك ولا رسوم (بح)<sup>(٥)</sup> عما يأتي به على أسمئهم كهديهم وملبوساتهم وما يحتاجون إليه وما يأتي به من مأكولاتهم ومشروباتهم<sup>(٦)</sup> وكذلك الترجمة الفانمور بخدمة سفرائهم الفرنسيين يعفون من رسوم (الخرج) ومن رسوم (القصابية)<sup>(٧)</sup> ومن سائر الرسوم الاحتيارية<sup>(٨)</sup> وكذلك الامتيازات والإعفاءات الممنوحة للفرنسيين تشمل الترجمة الذين هم في خدمة سفراء فرنسا<sup>(٩)</sup> ، والخدم من رعايا الباب العالي الذين يخدمون السفير الفرنسي في قصره يعفون من (١٥ %) من الصرائب ورسوم<sup>(١٠)</sup> وإذا حدث قتل أو مشاجرة بين فرنسيين فليسفرائهم وقناصلهم أن يحكموا بينهم حسب

(١) - بمساعيل المراسلة لأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٨

(٢) - المحاضر ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣

(٣) - نصيب يوسف بيك ، المعاهدات للولاية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية (معاهدة / ١٧٤٠ م / بين السلطنة العثمانية وفرنسا) ط ٢ ، المطبعة العمومية ، مصر ١٨٩٦ م ، البند / ٨٣ /

(٤) - المعاهد / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند / ١٧ /

(٥) - البند : هو رسم يأخذه المحتسب عن كل وارد إلى أسواق المدينة ضمن من المناطق المحيطة بها

(٦) - المعاهد / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند / ١٨ /

(٧) - القصابية : كان السلطان يقدم لكل انكشاري يومياً أوقية لحم ، ولما كان عدد الانكشاريين كبيراً ، والكلفة المطلوبة ضخمة ، فقد عمل المشرفون على مالية السلطان على تحصيله للتجار لتعويض الحرية وسميت القصابية نسبة إلى القصاب وهو بائع اللحوم

(٨) - المعاهد / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند / ١٣ /

(٩) - المعاهد / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند / ٤٣ /

(١٠) - المعاهد / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند / ٤٧ /

شرائعهم وعوائدهم دون أن يسمعهم أحد<sup>(١)</sup>. يلاحظ منح السلطنة الكثير من الصلاحيات للسفراء والقناصل الفرنسيين في حل المشكلات بين أفراد جالياتهم.

ويلخص عمل السفير الفرنسي في إسطنبول بالحفاظ على الامتيازات التجارية القائمة، وتوسيع مداها، والدفاع عن الجاليات الفرنسية أثناء المشكلات التي تحدث مع السلطات العثمانية، والسعي لدى الباب العالي لنيل مساعدته في إيقاف بحارة المغرب العربي عن العمل ضد المراكب الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط. وإطلاق سراح الأسرى بعد شرايتهم، بالإضافة إلى العمل السياسي الواسع الذي كان يرتبط ائذاك بسياسة الدول لأوروبية فيما بينها وعلاقتها بالسلطان العثماني. وكان السفير الفرنسي كالسفير النمساوي يرسل تقارير إلى حكومته على شكل رسائل، يشرحون فيها ما يحدث في العاصمة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وأهم أعمال السفراء الفرنسيين كانت تتركز في الدفاع عن مصالح التجار الفرنسيين في سلطنة العثمانية وحماية ممتلكاتهم، ورفع الحيف الذي قد يصيبهم من الولاة أو جندة الضرائب أو قطع الطرق والصوص، وهذا ما يلاحظ في عريضة رفعها السفير الفرنسي بالأسنانة (الكوت وسستلان) بخصوص تجار دولته الفرنسيين الذين يضطرون إلى دفع رسوم البضائع والأمنعة في أحد الموانئ ثم يرعدهم أماء الجمارك بالدفع مرة ثانية<sup>(٣)</sup>.

وفي عريضة أخرى رفعها السفير نفسه تظهر إر عاج محصل الضرائب وجاني الجزية لخمسة ترجمة في فصلية فرنس في حلب، حيث قدم رجاء بعدم إر عاج الترجمة لخمسة بالصرائب والجزية عملاً بالأوامر السلطانية، والامتيازات الدولية<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ من خلال الوثيقة السابقة حرص السفير الفرنسي على توفير الحماية والرعاية للجهاز الإداري للعاملين في فصلية فرنس بحلب، من خلال سعيه لرفع الظلم عن ترجمة الفصلية المذكورة، ومطالبته السلطنة العثمانية بالالتزام بالمعاهدات والاتفاقيات الموقعة بين الطرفين (الفرنسي والعثماني).

وفي وثيقة أخرى يشير السفير الفرنسي (فون درس الورس) إلى تعرض تجار فرنسيين مقيمين بحلب للسرقة في قصبة بلاك (غربي مدينة حلب)، وبشتكي السفير المذكور من عدم القبض على السارقين، مما يدل على تهاون المسؤولين في ولاية حلب، كما يدل على احتلال الأمن. لذلك صدر فرمان سلطاني<sup>(٥)</sup> يطالب

(١) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند / ٢٦ /

(٢) - الصباح للجاليات الأوروبية، ج ٢، المرجع السابق، ص ٥٥٧.

(٣) - لفر من رقم / ٤٦٦، تاريخ فرمان (١١٥٨ هـ)، من السجل رقم / ٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب، ص ٢٣٥، دكر الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - فرمان رقم / ٧٨٦، تاريخ لفر من (١١٥٩ هـ)، من السجل رقم / ٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب، ص ٣٩٨، دكر الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) لفر من السلطاني كلمة فارسية، معناه الأمر، وكانت السلطنة العثمانية ترسل الأوامر السلطانية إلى ولايتها في الولايات

يبدل الجهود لإعادة المسروقات إلى أصحابها التجار الفرنسيين ومعاقبة اللصوص<sup>(١)</sup>. ويبدو واضحاً سعي السلطة الحثيث لسيط الأمن وتوفير الطمأنينة للتجار الأجانب فوق أراضيها، وكل ذلك يصب في مصلحة السلطة الاقتصادية وتحسين أحوال رعاياها المادية.

**مهام سفير فرنسا الدينية:** في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلاديين، كتب الأب بوارو (Boisot) اليسوعي إلى سفير فرنسا في إسطنبول، أن الموارد هم أكثر مسيحيي الشرق احتراماً وتعلقاً بالكنيسة الرومانية وكلهم كاثوليك، ولهم في حلب أسقف عبور على حير الشعب وهو يتمتع توسطكم لدى الباب العالي أن يوسع كنيسته<sup>(٢)</sup>. هـ تلاقى المصالح بين الفرنسيين والموارية وشعر كل واحد منهما أنه بحاجة إلى الآخر، فالموارد أرسوا الاستعادة من نفوذ فرنسا القوي لدى السلطة العثمانية، أما فرنسا فوجدت في طيب الموارد تأكيداً لهيمنتها وسلطتها على الطوائف الشرقية التي تعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مما يفسح المجال لتدخل فرنسا في شؤون السلطة الداخلية لتحقيق مآربها الاستعمارية.

**اختيار السفير الإنكليزي ومهامه:** تأسست شركة الليقانت الإنكليزية عام ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م ومارست اختصاصات سياسية وتجارية واسعة، فهي التي كانت ترشح سفراء إنكلتر هي إسطنبول وتدفع لهم مرتباتهم. وفي عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م عينت الحكومة الإنكليزية بواسطة شركة الليقانت وليم هاربورن (willim harbome) سفيراً في إسطنبول، ومنحته سلطات واسعة ومنشعبة في جميع الشؤون التجارية الإنكليزية في ولايات الدولة العثمانية، وحولته سلطات واسعة في تعيين القناصل<sup>(٣)</sup>.

ولكن فيما بعد فقدت الشركة تدريجياً سلطاتها على السفراء، وأصبح الملك هو الذي يعيهم اعتباراً من عام ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م دون استشارة الشركة، وإن كان أسماء من يحددهم لنجاح البريطاني تعرض عليها صورياً، ويجري انتخاب شكلي لهم. وكان السفير بعد انتخابه يصبح عضواً في الشركة، ولقد اكتسب هذا المنصب مع الزمن صفة دبلوماسية أكثر وضوحاً، إذ أن سياسة توازن القوى التي اتبعتها بريطانيا - وكانت إسطنبول نقطة ارتكاز مهمة فيها - كانت سبباً رئيساً في تحول السفير من موظف تجاري مقنع بقد دبلوماسي، إلى حاكم دبلوماسي للنجاح وأعزاه<sup>(٤)</sup>. وكنت صلاحيات سفير بريطانيا واسعة مموحة من النجاح البريطاني أكثر مما كان عليه وضع السفراء البنادقة والفرنسيين، حيث يلاحظ أن السفير البريطاني كان بإمكانه أن يعين القناصل في أية موانئ أو مدن، يرى ضرورة وأهمية التجارة فيها، وله حق من القوانين الخاصة بالرعايا الإنكليز المتاجرين في الليقانت، ومعاقبة المخالفين منهم.

(١)- الفرمان رقم / ٥٧٣ / ، تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣١١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢)- تول ، قديس وثائق تاريخية عن حلب ، ج ٤ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ص ٤٢.

(٣) الشدوي المرجع السابق ، ص ٧١٨.

نقلاً عن الصبغ للجاليات الأوروبية p ٣ ١٩٢٥ London wood (A C). A history of the levant company (٤)



كما عرفت إنكلترا كيف تستفيد من تقلب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ١٠٥٣ - ١١٢٨ هـ / ١٦٤٣ - ١٧١٥ م هي سياسته مع السلطة العثمانية ، فهضمت إنكلترا بتجارها وتغريت ما استطاعت من السلطة تحقيقاً لمصالحها السياسية والاقتصادية.

وفي وثيقة من وثائق المحاكم الشرعية قدم سفير بريطانيا شكوى على بعض أغوات حلب الميبرين إلى التاجر البريطاني (فيجو فراسي) ، ولم يؤدوا ما استحق عليهم من الديون للدائن فراسي ، وذلك يلحق الضرر على الدائن<sup>(١)</sup> وكذلك شكوى أخرى تقدم بها السفير البريطاني بأن دائرة الحمارة في حلب تتقاضى رسوم جمركية أكثر مما هو متفق عليه على بصائعها ، إنكليزية خلافاً للعهد العثماني<sup>(٢)</sup>. وكذلك كان السفير البريطاني يتدخل ويطلب تعيين كواثر للعصليات الإنكليزية. ففي عريضة مقدمة من (المستر جيمس بورتر) يطلب فيها تعيين ترجمان لفصلية بريطانيا في حلب بدل المترجمان المتوفى كما يطلب إعطاء المترجمان المراد تعيينه براءة شريفة له ولزوجته ولأولاده ولخدمه وإعفاءه من الضرائب والرسوم ، وعدم محاكمته إلا من خلال سفارته وصدرت البراءة الشريفة المطلوبة<sup>(٣)</sup>.

كما كان السفير البريطاني يسعى للحفاظ على الامتيازات التجارية ، ويبدل الجهود الكبيرة لصمان احترام تلك الامتيازات ففي شكوى يرفعها السفير إلى الباب العالي ، مفادها أن تجاراً أجانب تابعين لبريطانيا يأتون إلى حلب يتعرضون إلى مصايقات ، وأحد رسوم رائدة عن أحد القوانين ، وعليه صدر فرمان سلطاني يفتضي بعدم استثناء أي زيادة على الرسوم القانونية المفروضة على التجار الأجانب<sup>(٤)</sup>.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي كان السعراء الإنكليز أحياناً يبيعون البراءات ، أو وثائق الحماية التي تجعل صاحبها منتمياً بكل فوائد الامتيازات الإنكليزية. وقد ادّعى المسيحيون الأرمن والروم وكذلك اليهود للحصول عليها بأثمان باهظة<sup>(٥)</sup>. وهذا يدل على هساد إداري بدأ يتفشى في الجهاز الإداري للجالية الإنكليزية من قمة الهرم الإداري (السفير).

**اختيار السفير الهولندي ومهامه:** إن الامتيازات التي حصل عليها السفير الهولندي (كورنوليس هاغا) والتي أكدّها السلطان مراد الرابع ١٠٣٣ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م عام ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م ،

(١) - الفرمان رقم / ١١٣ / ، تاريخ الفرمان (١١٥٦ هـ) ، من السجل / ٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - الفرمان رقم / ٢٦ / ، تاريخ الفرمان (١٢٠٣ هـ) ، من السجل / ٢١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - الفرمان رقم / ٢٤٢ / ، تاريخ الفرمان (١١٦٢ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٣٤ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٤) - الفرمان رقم / ٢٧٣ / ، تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٥٦٢

وتجددت في عهد السلطان محمد الرابع ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٧ م بفصل السفير الهولندي (جوستينوس كولير) وصغت هذه الامتيازات عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م، أسس العلاقات السياسية والاقتصادية بين هولندا والسلطنة العثمانية

وكانت بداية العلاقات الدبلوماسية عندما أرسلت هولندا بعثة برئاسة (كورنوليس هاغا) عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م، وتألفت البعثة المذكورة من اثني عشر شخصاً من بينهم (كورنوليس بو)، والذي أصبح فيما بعد قنصلاً في حلب، و (أندريه سوبيدرهوف) الذي أصبح مستشار السفارة الهولندية حتى وفاته عام ١٠٢٦ هـ / ١٦١٧ م. وكانت مهمة البعثة إطلاق سراح بعض الهولنديين المحتجزين من قبل السلطات العثمانية، والحصول على الامتيازات نفسها التي حصل عليها الابدوفه والفرسيون والإنكليز للتجار الهولنديين.

ورغم المعارضة الدبلوماسية من الفرنسيين والبادقة، وقد حقق (هاغا) مطالبه، وبذلك بفصل المساعدة المهمة من حول باشا الذي كان يشغل وظيفة كبير مربى طيور البار في الديوان العثماني أقام (كورنوليس هاغا) بعد ذلك أكثر من ٢٥ / عام سفيراً في الديوان العثماني في إسطنبول، ووضع أسس العلاقات بين هولندا والسلطنة العثمانية.<sup>(١)</sup>

وكان أول منى لسفارة هولندا في إسطنبول يقع في شارع حسين اغا، وقد أقام فيه السفير الهولندي كورنوليس هاغا، وفيما بعد أقام السفراء الهولنديون في حي بير، وكان يدعى الشارع الكبير. أما في أيام السفير (جوستينوس كولير) ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م، فقد كانت السفارة في زاوية شارع نومنون في موقع القصر الهولندي الحالي نفسه الذي بني عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م، ويصم الآن السفارة العامة لهولندا<sup>(٢)</sup> وأخيراً كان ممثل هولندا يعين من قبل الجمعية العمومية فيها، وكان مكلفاً بالحفاظ على الامتيازات وفي تثبيت أحكام القنصل، وكان عليه أن يقدم الهدايا والهبات، وأن يتحمل النفقات التي يمكن أن تنأى من ذلك<sup>(٣)</sup>

(١)- المدرس والمرجع السابق، ص ٢٣.

(٢)- المدرس والمرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣)- الصباغ الجاليات الأوروبية، ج ٢، المرجع السابق، ص ٥٦٧

وفيما يلي جدول بأسماء السفراء والممثلين الهولنديين لدى الباب العالي ما بين ١٠٢٣ - ١١٣٨ هـ /  
١٦١٤ - ١٧٢٥ م:

الديبلوماسية	التاريخ هـ / م	السيرة الذاتية
كورنوليس هانك	١٠٢٣ - ١٠٤٨ هـ ١٦١٤ - ١٦٣٨ م	أول سفير لدى الباب العالي، حصل على توقيع الامتيازات بعد أشهر قليلة من وصوله
هينريك كونس	١٠٤٨ - ١٠٥٧ هـ ١٦٣٨ - ١٦٤٧ م	وصل إلى إسطنبول حوالي ١٦٢٨ م وأصبح قائماً بالأعمال عام ١٦٣٨ م حتى وفاته عام ١٦٤٧ م
ديرك كروم	١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م	وصل إسطنبول عام ١٦٢٥ م، وأصبح فيما بعد سكرتير السفير، وعين قائماً بالأعمال عام ١٦٤٧ م، لكنه توفي بعد أشهر
بيكو ——— جيسريحتي	١٠٥٧ - ١٠٦٥ هـ ١٦٤٧ - ١٦٥٤ م	عمل فترة طويلة في تجارة الشرق، وعين قائماً بالأعمال عام ١٦٤٧ م
لوفينوس وارنر	١٠٦٥ - ١٠٧٣ هـ ١٦٥٤ - ١٦٦٢ م	وصل إلى إسطنبول عام ١٦٤٤ م، وعين سفيراً عام ١٦٥٤ م
جويس كروك	١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م	توفي في طريقه قبل أن يصل إلى إسطنبول
جوس ——— كولير	١٠٧٨ - ١٠٩٤ هـ ١٦٦٧ - ١٦٨٢ م	عين سفيراً عام ١٦٦٧ م، وصل إلى إسطنبول / ٢٥ / أيار / ١٦٦٨ م لتجديد معاهدة الامتيازات ١٦٨٠ م
جكوبوس كولير	١٠٩٦ - ١١٣٨ هـ ١٦٨٤ - ١٧٢٥ م	تابع سياسة حماية التجارة الهولندية التي بدأها والده قبله <sup>(١)</sup>

وأخيراً مما تقدم يلاحظ أن السفراء الأوروبيين كانوا على رأس جالياتهم لأوروبية هي إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية. وكان السفراء يمثلون دولهم لدى الباب العالي ويحافظون على مصالح رعاياهم ضمن أراضي السلطنة. وكذلك يعتمدون كل فرصة للحصول على امتيازات جديدة لدولهم ورعايهم. وإن التفاصيل في طلب مع الجاليات والرعايا والحمايات التابعين لهم، يرتبطون بطريقة أو بأخرى بسفرائهم في إسطنبول.

وكان للعلاقات الشخصية التي تربط هؤلاء السفراء بالديوان السلطاني دور كبير في تحقيق أهدافهم ومآربهم. ويؤكد مثلاً على ذلك كيف أسهم خليل باشا الموظف في الديوان السلطاني في حصول سفير هولندا كورنوليس هاغا على امتيازات سياسية واقتصادية من الباب العالي. وكما يلاحظ أن طبيعة العلاقات السياسية للدول الأوروبية مع السلطنة العثمانية كانت تؤثر على عمل هؤلاء السفراء، فكثيراً ما كان يهين

(١) - المصدر: المرجع السابق، ص ٣٦.

سواء في الديوان السلطاني عندما تكون دولتهم في حالة حرب أو نوتر سياسي مع الباب العالي، مثلما حصل مع سفير البسقية عند هجوم العثمانيين على قبرص ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م، وكانت تبعة للبندقية، فقد سجن السفير، وتعرض للإهانة. وفي سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م سجن السفير البندقي لويجي كوناري في قلعة الأبراج السعة في إسطنبول.

### القناصل الأوروبيون في ولاية حلب:

عقدت الدور الأوروبية في القرن السادس عشر الميلادي في إسطنبول اتفاقيات مع السلطنة العثمانية، لتأسيس قنصليات أوروبية في بعض المرفئ والمدن التجارية الداخلية للسلطنة العثمانية لتتوسط الحركة التجارية ومدينة حلب المشهورة بشواطئها التجاري الدولي كنقطة عبور استثنائية أمام كميات السلع الهائلة المختلفة، التي تمر عبرها من الأسواق الشرقية والغربية، كانت المدينة الأولى التي تم افتتاح قنصليات أوروبية فيها في الربع الأخير من القرن السادس عشر الميلادي<sup>(١)</sup> ومد أن أحدث الدولة العثمانية بنظم التمثيل الدبلوماسي، كان القناصل لا ينبعون في العادة وزراء الخارجية الفرنسية أو الإنكليزية أو غيرها، وبما كانوا ينبعون رؤساء بعثات دولهم في إسطنبول، وكان عملهم في الدولة العثمانية مقصوراً في بداية الأمر على الشؤون التجارية وتعهد مصالح رعايا دولهم والتأشير على جوازات السفر وغير ذلك.

ولم يكن لهم اختصاص سياسي، ثم أصبحوا مرور الزمن ينعزلون رؤساء البعثات الدبلوماسية في إسطنبول، يمارسون النشاط السياسي أو الضغط على الولاة العثمانيين.

#### والقناصل الأوروبيون نوعان:

١- قناصل مبعوثون: (Missi) وهم الذين تبعث بهم الدولة لتولي شؤونها القنصلية في دولة أخرى، وهم من موظفي الدولة التي تبعث بهم ومن رعاياها، ويتقاضون مرتبات عن عملهم القنصلي، ولذا فليس لهم أن يعملوا بأية مهمة أخرى أو بأي عمل تجاري خاص شأن باقي الموظفين، ولذا يطلق عليهم أيضاً (counsuls de carriere) للدلالة على تخصصهم وانقطاعهم للأعمال القنصلية (وهم من سوف يتم الحديث عنهم فيما بعد).

٢- القناصل المختارون: (Elecli) تعيينهم الدولة من بين الأشخاص المقيمين في الجهة التي ترغب أن يكون لها فيها تمثيل قنصلي، وهم من رعايا الدولة التي تختارهم، كما يجوز أن تختارهم من رعايا الدولة التي يؤدون فيها مهمتهم أو من رعايا دولة ثالثة.

(١)- سورمايان المرجع السابق، ص ٢٧٤.

ولا يعد الفاصل المختارون موظفين في الدولة التي يمثلون مصالحها ، وإنما مجرد وكلاء عنها في الشؤون التي تعهد إليهم ، لذلك لهم الحق ، على خلاف الفاصل المنعوثين ، في الاشتغال بالأعمال الخاصة من تجارة ومهن حرة وحلافهم إلى جانب عملهم الفصلي. وهم لا يقاصون عادة مرتبات من الدولة التي تختارهم، ويطلق عليهم في الوقت الحاضر الفاصل المحريون (CONSVIS HOMOIDE)<sup>(١)</sup>.

وترتبط سلطة الفاصل وارتدادها بسببة تبادل حجم المبادلات التجارية ، ولذلك استغل الفاصل جميع الظروف لتوسيع لامنيارات التي بالته حكوماتهم من الباب العالي ، وذلك تحولوا إلى عملاء سياسيين، فضلاً عن كونهم عملاء اقتصاديين<sup>(٢)</sup>.

وأهم الدول الأوروبية التي افتتحت قنصليات لها في حلب ما بين ٩٥٥ - ١٠١٦ هـ / ١٥٤٨ - ١٦٠٧ م هي:

اسم القنصلية	العام هـ / م	المكان في حلب.
القنصلية البندقية	٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م	حان الحاسبين.
القنصلية الفرنسية	٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م	في حان الجمرك، وكان تجار مرسيلية يختارون القنصل ويصادق الملك على تعيينه.
القنصلية الإنكليزية	٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م	في حان الجمرك، ثم في حان النرغل، وافتتحت القنصلية بعد تشكيل شركة البيعانف.
القنصلية الهولندية	١٠١٦ هـ / ١٦٠٧ م	وبلاحظ أن هولندا افتتحت قنصليتها في حلب قبل أن تفتتح مئيلتها في العاصمة العثمانية <sup>(٣)</sup> .

وقد شجعت الدولة العثمانية الدول الأوروبية على إرسال رعاياها للإقامة والعمل في أراضي السلطة ، وتعهدت بتوفير الحماية للجهر الإداري العامل في القنصليات الأوروبية المقيمة في حلب ، من خلال صدور فرمان سلطاني يتعهد فيه السلطان العثماني ، بحماية وصيانة وكلاء القناصل الأجانب المعتمدين وتجارهم والعاملين معهم من المستخدمين في قنصليات حلب ، وقد صدر هذا فرمان بناءً على شكوى تقدم بها وكيل التجار الأجانب إلى الباب العالي وهي أحوال المعتمدين لدى السلطة من قناصل وتراجمتهم وتجارهم، فهم يعانون من أوضاع سيئة رغم حماية الدولة العلية لهم<sup>(٤)</sup>.

(١) الشهابي: المرجع السابق ، ص ٧٢٦

(٢) حميد، محافظه حلب ، المرجع السابق ، ص ٤٦.

(٣) - هلال ، قواد، حلب القديمة والحديثة ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م ، ص ١١١

(٤) الفرمان رقم / ٣١ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٨ هـ) ، من السجل / ٢٤ / بالأمير السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٣ - ٢٤ ، در

للوثائق التاريخية بدمشق

## وفيم يلي تعريف بقناصل الدول الأوروبية:

**قناصل البندقية:** سرّعت جمهورية البندقية إلى افتتح قنصلية لها في حلب للإشراف على تجارة رعاياها، حيث قرر المجلس الكبير ملك سنة ٩٥٥ هـ / ١٥٤٨ م، وظلت القنصلية تمارس عملها حتى عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م، وكانت تشغل المركز الأول بين القنصليات الأوروبية الأخرى، وذلك بفصل أقدمية تجار البندقية.

وما يلي عملي ١٠٨٦ ١١٧٦ هـ / ١٦٧٥ ١٧٦٢ م كان للندفة عملاء في حلب، دور أن تكون لهم صفة التمثيل الدبلوماسي القنصلي، لكن منذ أن نشط التبادل التجاري بين فارس والهند، وفتح البحر لأسود سبلاحة، فإن أملاً جديداً قد بعث في نفوس البنادقة بالعودة إلى تجارة فعالة في بلاد الشام، ولهذا السبب صدر القرار ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢ م بإعادة قنصلية حلب، تحت اسم "القنصلية البندقية العامة في سورية وفلسطين" وظلت قائمة حتى سقوط البندقية عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م<sup>(١)</sup>.

وتراجع التمثيل الدبلوماسي البندقي في حلب ما بين عامي ١٠٨٦ ١١٧٦ هـ / ١٦٧٥ - ١٧٦٢ م بسبب العلاقات المثورة بين السلطنة العثمانية والبندقية، ونشوب حرب كائدية عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م بين الطرفين، وفي هذه الفترة مثلت المصالح البندقية التجارية تارةً فرنسا، وتارةً أخرى بريطانيا، وتم التوحيه إلى ذلك في معاهدة فرنسا مع السلطنة العثمانية عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م حيث نصت في أحد سوادها (أن البرتغاليين والصقليين ولكتالانيين والأنكوبيين وسائر الأمم المعادية للباب العالي، والتي لا سفراء ولا قناصل ولا وكلاء لها لدى الباب العالي، وترغب بملاء إرادتها وحريتها في المجيء إلى السلطنة، كما كانت تفعل قديماً تحت راية إمبراطور فرنسا يدفعون الرسوم الجمركية كالفرنسيين دور أن يجوز لأحد معارضتهم بشرط ألا يتعدوا حدودهم، ولا يرتكبوا ما يعيب بالأمر والراحة)<sup>(٢)</sup> وبعد انتهاء حالة التوتر بين الطرفين عادت المياه إلى مجاريها، وتولت البندقية إدارة شؤون رعاياها بنفسها ففي عام ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م وصل إلى حلب قنصل البندقية الجديد **جيرولامو بريغادي (Gerolamo Brigadi)** وكان يتبع بريغادي العائلة والخدم والمرافقون ومعهم / ٣٤ / حصاناً لنقل الأمتعة، وكان بريغادي قتل أن يعين قنصلاً في حلب يعمل بالتجارة في قبرص، وكان شيوخ التجار الذين يمثلون المكتب المخصص لإدارة السياسة التجارية قد رأوا ضرورة إعادة فتح القنصلية البندقية بحلب، واقترح سفير البندقية في إستانبول اسم بريغادي كمرشح محتمل لهذه المهمة، ووصل بريغادي قنصل البندقية الجديد إلى حلب عن طريق الإسكندرون، ومن هناك وصل إلى بيلس، حيث توقف لمدة تسعة أيام، ليتمكن بعدها من رؤية القلعة وقمم المآذن، وأحيراً

نقلًا عن الطبع العجالات الأوروبية

(١) Berechet (guglie mo): Re az: oni de' consol: veneti nel: da: s: na: to: nino - ١٨٦٦ - p ٢٠

(٢) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البس / ٣٨ /

وصلى إلى حلب محطته الأخيرة بعد أن أمضى أياماً على ظهور الحبل، وعلى أبواب حلب «سوقه ثلاث عائلات من تجار البندقية الذين ظلوا يزاولون التجارة في حلب»<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م حدد القانون الشهير الذي وضعته بحرية البندقية التجارية، والذي يشرح حقوق القنصل وواجباته وصفاته وطائفة. فالقنصل يجب أن يكون من رعايا الجمهورية، وأن يكون قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر. ومن المشهورين بالعلم والمعرفة والحرية في ميدان التجارة، وأن يكون قد روى بأوراق الاعتماد، وأن يتناول طيلة مدة عمله الأجور المحددة، حيث كانت المدة المخصصة للقنصل في الماصي سنتين، ثم أحدث ترداد حتى وصول الحلف إلى ثلاث سنوات.

وفي القانون الصادر ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م، والقانون الصادر في ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م، والقانون الصادر في ١١٣٢ هـ / ١٧١٩ م حدثت بحمس سنوات، وكان على مجلس الحبرء الحمسة أن يقوم بتسمية حلفه قبل انتهاء السنة الأخيرة بستة أشهر، وكان على القنصل أن يعلم مجلس الشيوخ أولاً، ثم مجلس الحبرء الحمسة بذات اليوم الذي يستلم فيه عمله، لأنه اعتباراً من هذا اليوم تبدأ السنوات الثلاث أو الخمس<sup>(٢)</sup> وكان قنصل البندقية في حلب يهتم بتنظيم حركة الصنائع التي تعبر سوريا تحت علم البندقية، وكس له معاونون هم نواب قنصل الإسكندرية واللاذقية وطرابلس لبنان وبيروت وعكا ويافا، وكانت إحدى أهم مشاغل نواب القنصل هؤلاء تكمن في تأمين التواصل بينهم وبين سفير البندقية في إسطنبول وخصوصاً مع شيوخ التجار.

هذه الرسائل ما تزال محفوظة في أرشيف دولة البندقية، وهي مجموعة من الملاحظات معنونة «قنصلية حلب» وهي رسائل كتبها بريعاوي ومن حلفه من القناصل، إضافة إلى معاونيه القريبين والبعيدين يستشف من خلالها قسماً عن حياة تجار البندقية اليومية في حلب وسوريا<sup>(٣)</sup>.

وحلال جائحات الطاعون في حلب كان القناصل الناذقة بشرحون لرعاياهم بعبية كيفية تعقيم الطعام والماء، وكان يتبع الطاعون الأوبئة التي تجتاح الشرق دورياً مجاعة طاحنة، ويكون سببها غالباً سوء المحاصيل وقد ذكر قنصل البندقية دومينيكو سيرولي (Domenico Seriola) في رسالة كتب فيها أن الناس يموتون جوعاً تلك الفترة، وهم يجرون أقدامهم في الأسواق. وكذلك كان قناصل البندقية حريصين على تنفيذ بنود معاهدات الامتيازات الموقعة مع السلطة، فها هو القنصل البندقي ساليزيور تيزيني الذي وضع

(١) كوستا بيتي: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٢) - للصياغ: الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٧٦.

(٣) - كوستا بيتي: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

امراة تاجر بندقى ، تدعى أنطونيا بوبولاني (Antonia Popolani) لإدارتها حانة كانت تباع فيها الخمور ، وهي مهنة مخطورة في بلاد المسلمين <sup>(١)</sup>.

وأخيراً تصافرت كل العوامل في نهاية القرن الثامن عشر على إسقاط البندقية ، ونهيات الجمهورية للدمار ، فلم تغل مدفع بابليون بوابرت سوى أن كانت لها الصربة الفاصية ، وحين نزل بوابرت في إيطاليا سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٦ م أصبحت أرض البندقية مسرحاً للصراع بين الفرنسيين والممسيوين <sup>(٢)</sup>.

وبعد انتهاء تلك الحروب دخلت البندقية ضمن الوحدة الإيطالية ، وأكملت بيطالب مسيرة البندقية بإقامة علاقات سياسية تجارية مع سورية. وفي سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٧ م طلب المقيم العام للملة المسيحية لجمهورية بيطالب المقيم بالأسنانة السيد فرنكو فوسلاني تعيين قنصل جديد لإيطاليا في حلب ، ليقوم بأعمال القنصلية لحكومة إيطاليا في ميطفتي يافا واسكندرون ، بعد أن وافى الأجل الفصل السابق ، ويطلب السفير الإيطالي الموافقة على تعيين المدعو حوره أنطوان ماريوا مارا قنصلاً لحكومة إيطاليا <sup>(٣)</sup>.

وبناءً على ذلك فقد صدر فرمال سلطاني من الباب العالي بتعيين قنصل جديد ، وهو حوره أنطون ماريوا مارا بدل القنصل المتوفى ، وإعطاء القنصل الجديد جميع الامتيازات التي أعطيت لأمثاله <sup>(٤)</sup>.

**القنصائل الفرنسيون:** ظلت فرنسا تسير متحبة في إدارتها لجانليتها في بلاد الشام أكثر من قرر ، إلى أن صدر أمراً البحرية الفرنسية ١٠٩٢ - ١٠٩٧ هـ / ١٦٨١ - ١٦٨٥ م ، اللذان وصفا الأسس الرئيسة لإدارة الإسكالات والتنظيم القنصلي ووطناف الفاصل وعلاقاتهم مع الأمة الفرنسية ، ولقد استفيد في وضع تلك القواعد من تشريعات الأمم الأخرى وتجربتها ، ومن تجارب القناصل والتجار وآرائهم <sup>(٥)</sup>.

أصبح القنصل بالنسبة للتجار هو ممثل السلطة الملكية ، والقاضي ، والحامي ، والدليل ، وعليه أن يعقد الأوامر والتظيمات التي ترده من الوطن وأن ينقلها إلى مجلس الأمة ، عن طريق إرائته لها ، ثم يعليها في مستشاريه القنصلي ، وكان مكلفاً بذلك ، شأنه في ذلك شأن قناصل جميع الدول ، بأن يلزم ربابة السفن وأصحابها باتباع القواعد الخاصة بالملاحة والشحن والتفريع ، وكان مسؤولاً عن الأمن والنظام بين التجار ، وفي حالة ظهور سلوك سيء يظهر من بعضهم ، فإن القنصل يستطيعه أن يبقينهم محجورين في بيوتهم .

(١) - كوستانتيني: للمرجع السابق ، ص ٢٥٨

(٢) - ديل المرجع السابق ، ص ٢٣٦

(٣) - الغرمان رقم / ٦٧ ، تاريخ للفرمان (١٢٠٩ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - الغرمان رقم / ٦٨ ، تاريخ الغرمان (١٢٠٩ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٦ - ٢٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - D Arvieux Memoires du chevalier D. Arvieux Extraordinaire ala porte consul A cp dafoge tomes p ٣١٩



وأن يفرض عليهم العرامات وفي الحالات الخطرة ، يمكنه أن يجبرهم بموافقة نواب الأمة على العودة إلى فرنسا.

وكما هو حال فصل البدقية وبكلترا وهولند وغيرهم كان الفصل الفرنسي قاصياً للتجار، ولا يجوز للفصل أثناء القيام بعمله القضائي إلا ومعه نواب الأمة ، وأربعة من وجهاء التجارة. ومن الصعوبات التي كان يصطدم بها الفصل أثناء عمله القضائي رفض الشهود الإللاء بشهادتهم ، ومن ثم صدر أمر في ١١١٤ هـ / ١٧٠٢ م أعطى القضاة حق تعزيم هؤلاء بعشرين ليلة في حالة الفراغ بين القضاة والتجار ، فإن على الطرفين الرجوع إلى محكمة أميرالة مرسلية<sup>(١)</sup>.

وكان القضاة الفرنسيون في ولاية حلب يشرفون على أمور رعاياهم في البلاد السورية كافة . حتى أن فرنسا لاحظت عام ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥ م أن فصلها في حلب لم يعد يستطيع أن يقوم بالمهمة مفرداً ، فأقدم الملك لويس الثالث عشر قبضاً على آخر لفرنسا في مدينة صيد ، ويذكر الرحالة شارل رو ( Charles roux ) أن حلب كانت طريقاً للمراسلات ونقل المعلومات والأخبار، فكان فصل فرنسا في حلب يوصل الرسائل الآتية من الديوان في فرنسا إلى ممثليه في بلاد فارس والنصرة والعكس كانت ترسل الرسائل والمعلومات إلى قصر فرساي (Versailles) وشكل حاص بين عامي ١١٤٣ - ١١٦٩ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٥٥ م تاريخ الحرب بين الأتراك والفرنس<sup>(٢)</sup>.

وإذا حدث أن الفصل أو التجار الفرنسيين احتنقوا أو احتصموا مع قضاة أو تجار دولة أخرى مسيحية، يسمح للحصميين بناءً على قبولهما وطلبهم برفع القضية إلى سعاة دولتي الحصميين لدى الباب العالي، مادام المدعي والمدعى عليه لا يرصدان برفعها إلى الناشئات والقضاة والصباط ومأموري الحمارك<sup>(٣)</sup>. وكذلك كان الفصل مسؤولاً عن أموال رعاياه المتوفين ، وإذا مات فرنسي فتمتروكاته تسلم إلى المكلفين بتعديده وصيته من دون أن يكون لأحد حق التدخل، وإذا مات ولم يوص فتسلم تركته إلى مواطنيه بواسطة الفصل<sup>(٤)</sup> وإذا ارتكب فرنسي أو تابع لحكومة فرنسية جريمة قتل أو غيرها من الجرائم، واقتضى وقوف المحاكم عليها فالقضاة والمأمورون العثمانيون لا يسوغ لهم مباشرة رؤيتها إلا بحضور السفراء والقضاة، أو من ناب عنهم حيث وجدوا<sup>(٥)</sup>.

(١) - الصبح، الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ج ٢، ص ٦٠١.

(٢) أنطاكي، المرجع السابق، ص ٢٨٠.

(٣) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند / ٥٢ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤١ م / المرجع نفسه، البند / ٢٢ /

(٥) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه، البند / ٦٥ /.

وكذلك سعت السلطنة من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م لتوفير الراحة، فصارعت لتأمين مسكن القناصل، فسمحت لهم باستخدام اليسفجية الذين يرينون<sup>(١)</sup> وعسما ترسل الحكومة الفرنسية بأمان جيدي الإدارة لتولي الشؤون عوضاً عن قناصلها المقيمين في لإسكالات فلا يعرض أحد بشأن ذلك، ويكونون معفيين من أداء الضرائب الاختيارية المعروفة بالتكاليف العرفية<sup>(٢)</sup>، وأنه في الحالة التي يقيم بها أحد دعوى على القنصل المعيين لملاحظة أعمال التجار لا يعجز القناصل ولا تختم محلاتهم، وترسل دعواهم إلى الباب العالي<sup>(٣)</sup>.

وكذلك لقناصل فرنسا الموجودين في المدن التجارية حق النظم على سائر القناصل لدى الباب العالي<sup>(٤)</sup>.

وأحياناً كان يتم تجديد ولاية قنصل ما مثلما حصل عندما تقدم السفير الفرنسي بالأسنانة شو اليرده سبيريه بعريضة ، بسترجم فيه تمديد ولاية القنصل بترطوم إدارة أمور الطائفة المسيحية الفرنسية في حلب وتجرها في الموانئ المجاورة، ولذلك صدر فرمان سلطاني بالتجديد للقنصل المذكور وإعطائه الامتيازات الخاصة بالقناصل ، وإعفائه من الرسوم المالية والجمركية فيما يحص أشياءه ومأكولاته ومشروباته ودخيرته الواردة عن طريق الموانئ<sup>(٥)</sup>.

وكان السفير الفرنسي يتدخل عندما تريد فرنسا تعيين قنصل ، كما حدث عندما طلب السفير أوبزو دويانه تعيين شونولو قنصلاً لجمهورية فرنسا في حلب بعد ترشيح الجمهورية له لهذا المنصب ، ويطلب السفير الموافقة على تعيين القنصل الجديد بدل القنصل المعزول من أجل تسيير الأعمال ، ومصالح تجار فرنسا في حلب الذين يقصدون حلب وموانئها للتجارة<sup>(٦)</sup>.

وبناءً على طلب السفير الفرنسي المذكور صدر فرمان سلطاني بتعيين شونولو قنصلاً لفرنسا في حلب، وإعطائه الامتيازات المطلوبة للإشراف على التجار لإفرنج<sup>(٧)</sup>.

(١) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع السابق ، البند / ٥٠ /

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع نفسه . البند / ٢٥ /

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع نفسه . البند / ١٦ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : المرجع نفسه . البند / ١٨ /

(٥) - فرمان رقم / ٢٨ / تاريخ فرمان ( ١١٨٣ هـ ) ، من السجل / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٦) - فرمان رقم / ٥١ / تاريخ فرمان ( ١٢١١ هـ ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٧) - فرمان رقم / ٥٢ / تاريخ فرمان ( ١٢١١ هـ ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٩ - ٣٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

وكان القنصل أحياناً يقوم بدور الكمين عندما يريد أحد التجار الفرنسيين السفر إلى مكان آخر غير مكان إقامته ، وقد أقام السفير أو القنصل نفسه كغياً لطالب السعر، فلا يجوز لأحد تأخير سعره بحجة إجباره على دفع ديونه<sup>(١)</sup>.

- نفقات القنصل الفرنسيين: لقد خصص لهم رسم (٢%) على النوائع الصادرة من أسكلته لسد حاجاته. وفي عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م صدر قرار ليفصل تلك النفقات ، وكانت المربيات الشخصية للقنصل في حلب / ٣٥٠٠ / ليرة، وفي سنة ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م أرسل قنصل حلب الذي عين لهم / ٨٥٠٠ / ليرة لنفقات قنصلية إلى العرفة حساباً بنفقاته ، ووصل إلى / ١١٧٤٢ / ليرة، منها / ٩١٩٨ / ليرة نفقات عادية ، وهذا يرجع إلى أن القنصل الفرنسي كان يريد أن يظهر بمظهر متميز أمام القناصل الآخرين<sup>(٢)</sup>.

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل فرنسا في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ

/ ١٧٠٠ ١٨٠٠ م

رقم	اسم القنصل	تاريخ عمله هـ / م	ملاحظات
١	شمسور	١١٠٤ - ١١٠٩ هـ / ١٦٩٢ - ١٦٩٧ م	
٢	بلال	١١١٠ - ١١١٩ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٠٧ م	
٣	عباردي بيليران	١١٣٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٢٢ - ١٧٣٠ م	
٤	جان جاك دي مونهيلو	١١٤٣ - ١١٤٦ هـ / ١٧٣٠ - ١٧٣٣ م	
٥	هوبورن غور	١١٤٦ - ١١٤٨ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٣٥ م	
٦	ليون دي لار	١١٤٨ - ١١٥٥ هـ / ١٧٣٥ - ١٧٤٢ م	
٧	موزف اراري	١١٥٥ - ١١٥٨ هـ / ١٧٤٢ - ١٧٤٥ م	(وكيل قنصل)
٨	بوتيلي أوبرجي	١١٥٨ - ١١٦١ هـ / ١٧٤٥ - ١٧٤٧ م	
٩	فرانسوا دي لار	١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م	
١٠	ل. دوفين	١١٦١ هـ / ١٧٤٧ م	
١١	الستين	١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م	(وكيل قنصل)
١٢	جان دانتيس غويون	١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م	
١٣	بيار توما	١١٦٤ - ١١٨٣ هـ / ١٧٥٠ - ١٧٦٩ م	
١٤	شودولو	١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م	(٣)

(١) معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند / ٦٩ /

(٢) - الصباغ: للجاليت الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٠٣

(٣) - حاولت جمع أسماء قناصل فرنسا في ولاية حلب من مصادر ومراجع كثيرة ، لذلك تعذر كتابة مرجع واحد فقط.

**قناصل إنكلترا:** دخلت إنكلترا ميدان تجارة الشرق متأخرة سبياً عن فرنسا والبنديقية ، إلا أنه منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي شرعت إنكلترا توجه أنظارها إلى حلب ، وحصلت على امتيازاتها من السلطنة العثمانية كغيرها من الدول التي سبقتها كالبنديقية وفرنسا. وعيّن ريتشارد فوستر ليكون أول قنصل للأمة الإنكليزية في نواحي حلب ودمشق وعلان وطرابلس والقدس ، وجعلت مقر إقامته في البدء طرابلس ، إلا أنه ما لبث أن انتقل إلى حلب، وأقام في حاس البرغل ، ثم تحول عنه مع الجالية إلى خان الجمرق<sup>(١)</sup>.

في البداية كان انتخاب قناصل الإنكليز في حلب من قبل شركة التجارة الشرقية (الليفانت) بين عامي ٩٩١ - ١١٥٣ هـ / ١٥٨٣ - ١٧٤٠ م بأمر ملكي ، لكن بدءاً من عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م تم تعيين القنصل من قبل وزارة الخارجية البريطانية<sup>(٢)</sup>. وقد سمح للقناصل الإنكليز في البداية بالمتاجرة لحسابهم الخاص. كما حصل مع كل من قناصل البنديقية وفرنسا. لكن منذ عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م منعوا من ذلك، وبقي القرار ساري المفعول حتى نهاية وجود الشركة عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م.

وفي سنة ١١١٣ هـ / ١٧٠١ م استدعي القنصل هيبستيكس من حلب لأنه تاجر خلافًا للقوانين ، وكانت جميع تعيينات القناصل تجري بلاسم ، ولمدة محدودة من السنين ، تتراوح بين ٣-٥ سنوات. وقد استدعي بعض القناصل ، أو حل محلهم آخرون لأن مدتهم قد انتهت، وكان من حق الشركة أن تحول أي قنصل في أي وقت لسوء تصرفه. وحدث هذا الأمر عندما استدعي القنصل (purnell) في سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م من قنصية حلب. وكذلك استدعي القنصل (k.nlach) في عام ١١٨٠ هـ / ١٧٦٦ م<sup>(٣)</sup>.

وعندما يعيب قنصل أوبترك عمله ، فإنه يلجأ في هذه الحالة إلى السفير الإنكليزي في الأستانة الذي بدوره يعول إلى الباب العالي ، كما حصل عندما قام قنصل حلب الإنكليزي المدعو سمارسل الذي ترك عمله. فطلب السفير الإنكليزي تعيين وكيل قنصل من أجل تسيير أمور المصلحة التجارية ومشاهداتها ، فأصدر الباب العالي أمراً بتوكيل وتنصيب وكيل قنصل من أحد رؤوس التجار الأميين منهم في حلب ، ريثما يتم وصول القنصل الأصلي دون اعتراض من أحد ويطلب حمايته وصيانته<sup>(٤)</sup>.

لقد كان القنصل الإنكليزي على رأس الجالية الإنكليزية يمثلها بكل مطهر من مظاهر حياتها ، وهو حاميتها والمدافع عنها والفاضي في الخصومات بين أفرادها بموجب الامتيازات وقوانين إنكلترا والعرف.

(١) SANDEROFN (George): the travels of ghon sanderson in the levant edited

مقتلاً عن المصدر: الجاليات الأوروبية

par by sir William Foster London talkluyt society ١٩٣١ p ١٦١ - ١٦٨

(٢) - سورامباي المرجع السابق ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٣) Wood: p ٢١٨ - ٢١٩

(٤) - الفرمان رقم ٢٦ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) ، من السجل / ٢٤ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، من ١٧ ، دار الوثائق القارية بدمشق

وفي عريضة مقدمه من السفير الإنكليزي في الأستانة لدى الباب العالي ، وطلب السفير المذكور تحديد وحصر صلاحية القنصل والمترجمين والمساعدين المشرفين على أمور الجالية الإنكليزية في حلب ، بالطرف فقط في المعاملات التي نقل فقط عن أربعة آلاف أقة وما يتجاوز ذلك يرفع إلى الأستانة <sup>(١)</sup>.

كما كان على القنصل الإنكليزي ضمان احترام الحقوق التي نالها الإنكليز في الاتفاقيات مع الدولة العثمانية ، وتنفيذ أوامر الشركة وقراراتها والقضاء على سوء الاستعمال ، مثل استيراد النقد المريب ، وكان القنصل مسؤولاً عن المحافظة على النظام الحسن بين رجاله والقنصل في الحصومات بينهم. وكان يحاور إصلاح أي مواطن منحرف ، وإذا لم يرد عليه يرسله إلى وطنه. وإذا ما رأى القنصل ضرورة عرض صريفة ما على التجار ، أو صرف مبلغ من مال الشركة ، أو الإقدام على عمل مهم فإنه كان عليه أن يدعو الجالية كلها إلى اجتماع عام ، ولا يستطيع التصرف من نفسه

ولقد طلب إلى القنصل الاحتفاظ بالسجلات والأوراق الخاصة بأي رجل إنكليزي يموت في حدود قنصلية ، والتأكد من أن ثروته قد عادت فعلاً إلى ورثته الحقيقيين <sup>(٢)</sup>

وصدر من الباب العالي أمر سلطاني يقضي بتعيين وكيل قنصل المدعو جان بادقربداً من وكيل القنصل الإنكليزي المتوفى ميكائيل دوزين ، وذلك ساءً على طلب السفير الإنكليزي يوحنا اسميد من أجل إدارة مصالح وأموال التجار الإنكليز ، إضافة لمساعدته بما يتعلق بأعمال القنصلية ، ويتوجب حمايته وعدم التعرض إليه <sup>(٣)</sup>

(١) - الفرمان رقم / ٣٦١ / تاريخ الفرمان (١١٥٤ هـ) ، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - Wood. p. ٢١٩

(٣) - الفرمان رقم / ١٦٠ / تاريخ الفرمان (١٢١٣ هـ) من السجل / ٢٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل إنكلترا في حلب خلال القرن الثامن عشر ١١١٢ - ١٢١٥ هـ /

١٧٠٠ - ١٨٠٠ م.

الترقيم	العام هـ / م	اسم القنصل
١	١١١٣ هـ / ١٧٠١ م	جورج براندون
٢	١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م	ويليام بلكيبتون
٣	١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م	جون برويل
٤	١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م	بافل كوكس - وليام كوبر ر. ستراقتون وليم فيروف
٥	١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م	آرثر بولاند
٦	١١٦٥ هـ / ١٧٥١ م	الكسندر برومود
٧	١١٦٢ هـ / ١٧٥٨ م	هراسر براون
٨	١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م	الكسندر براون
٩	١١٧٥ هـ / ١٧٦١ م	ويليام كلارك
١٠	١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م	هنري بريسلو
١١	١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م	كلارنس سميث
١٢	١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م	جون أنوث
١٣	١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م	ديفيد هاريس
١٤	١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م	تشارلز سميث
١٥	١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م	ديفيد رين
١٦	١٢٠٧ - ١٢١٣ هـ / ١٧٩٢ - ١٧٩٨ م	شاعر
١٧	١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م	جون باركر <sup>(١)</sup>

**قناصل هولندا:** قبل تسمية قنصل لهولندا في حلب ، كان التجار الهولنديون مجبرين على وضع أنفسهم تحت حماية فرنسية أو إنكليزية ليستطيعوا العمل بحرية ، وإن الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م . وجدت ٩٨٩ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٨١ - ١٥٩٧ م تنقيح للدول التي لم توقع على المعاهدة مع السلطنة العثمانية إمكانية الإبحار تحت العلم الفرنسي ، ومنحت السلطنة الامتيازات لإنكلترا . ١٠١٠ - ١٠١٦ هـ / ١٦٠١ - ١٦٠٧ م وفرنسا ١٠١٣ هـ / ١٦٠٤ م ، وقد أكت لكل منهما الحق

(١) سولمايان المرجع السابق ، ص ٤٠٢

بحماية الرعايا الهولنديين. وفي عام ١٦٠٧ م قرر المجلس لأعلى لممثلي المقاطعات الهولندية الطلب إلى الوكيل التجاري أيرنوت دوفاله ، أن يقوم بعمل فصل لحساب التجار الهولنديين المقيمين في حلب.

لقد كان أول فصل رسمي لهولندا يعين في بلاد المشرق . وبالقرار الذي اتخذه مجلس الطبقات في ١٠١٧ هـ / ١٦٠٨ م ، وفيه يؤكد منح مهمة الفصل إلى أيرنوت دوفاله (١) ، فقد كان للتجار الهولنديين الحق بتسمية فصل ، رغم عدم توقيعهم معاهدات الامتياز مع السلطة العثمانية ، وبفصل لامتيازات التي حصل عليها السفير الهولندي في إسطنبول كورنو ليس هاغا ، والتي تجددت في عهد السلطان مراد الرابع بفصل السفير الهولندي جوستينوس كولير ، وصغت هذه الامتيازات أسس العلاقات السياسية والاقتصادية بين هولندا والسلطة العثمانية ، ولهم سلطات قانونية وإدارية على التجار وبلادهم التي يتبعون إليها . كما لهم الحق في الفصل بين الرعايا وترؤس المحاكم الخاصة التي تنظر في النزاع بين رعاياهم ورعايا مختلف الدول كما يقومون بجباية الرسوم حسب قيمة البضائع التي يتاجر بها رعاياهم في الأسواق العثمانية ، ويهتمون بإدارة ومتابعة تجارة التجار المتوفين ، وهكذا بصح الفصل الهولندي محور الجالية كما بعد في الوقت نفسه ، من قبل السلطات العثمانية الشخص لأول المسؤول عن تصرف مواطنيه . ومنذ عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م غير عدد من القناصل الهولنديين في جميع أرجاء السلطنة (٢) . وأول قنصلية هولندية بعد نيل الامتيازات كانت للفصل كورنوليس بو في حلب ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م ، فتحت مع مجيء سفرة كورنوليس هاغا عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م ، وقد وافق مجلس الضقات في ٢٦ تشرين الأول / ١٦١٢ م على تسمية الفصل باو قنصلاً عاماً لسورية وفلسطين وقبرص ، وكانت القنصليات كلها تحت إمرته ، وفي عام ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣ م اختار باو نائب فصل في الإسكندرونه .

إن جميع القناصل الذين عينهم السفير هاغا ، عدا قناصل حلب وتونس والجزائر ، تم اختيارهم من مجلس الطبقات للدولة ، وهذا ما سبب أحياناً نزاعاً حول صلاحيات الفصل والسفير ، والتي لا تحسم إلا بفرمان من مجلس الطبقات حول القنصليات الذي صدر عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م . ولقد قدم تورع القنصليات خدمات جمة للتجارة الهولندية ، وكانت قنصلية حلب المركز الرئيس حلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي (٣) . وبعد ذلك بسبب تراجع التجارة الهولندية وصغت الجالية الهولندية في حلب تحت حماية فصل الدول الأخرى مثل فرنسا أو إنكلترا ، فها هو ذا الفصل الفرنسي درهيو عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ، يذكر أن القنصلية الهولندية لم تنفصل عن فرنسا مدة عشرين عاماً ، إلا لتوضع في مزارع منقطعة بين أيدي قناصل هولنديين عندما كانت الجمعية العمومية ترى ذلك ، أو حالة الرعايا

(١) المراجع السابق ، ص ٣١

(٢) العنبر للمرجع نفسه ص ٣٥

(٣) - العنبر للمرجع نفسه ، ص ٤١

الحسنة تسمح بذلك<sup>(١)</sup>. والقنصلية الهولندية بشكل مستقل كانت لا تزال تعمل حتى عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م، وكان القنصل الهولندي يعمل بالتجارة فيما يمتنع قناصل البندقية وفريست وإنكلترا عن ممارسة العمل التجاري، غير أن القنصل الهولندي بعد عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م كان في وصعية قناصل حلب الآخرين، بسبب منعه من ممارسة التجارة، وعين له مرشداً رسمياً<sup>(٢)</sup>. وكان هناك بعض التجار الهولنديين في حلب مثل دانييل بومستر وزميله جان جاكوب وفان ليدريغ وهانريك أبراهام هيرمان الذين كانوا جميعاً يقومون بالمهام القنصلية.

إن شركة فان هيمسكرك وماسيك وشركاه كان لهم في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي وجود مردهم في حلب، وأن مختلف أعضاء هذه الشركة كلّفوا تبعاً بإدارة القنصلية منذ عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م حتى عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م<sup>(٣)</sup>.

وفيما يلي قائمة بأسماء قناصل هولندا في حلب خلال القرن الثامن عشر

١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م

القنصل	مدته	السيرة الذاتية
جيوهاني روش	١١٠٧-١١١٥ هـ / ١٦٩٥ - ١٧٠٣ م	عين حارباً للقنصلية / ١٦٩٤ م / وبعد وفاة القنصل أصبح القنصل الجديد ١٦٩٥ م، لحلب وعكا وطرابلس الشام وقبرص
جورج براندور	١١١٥ - ١١١٨ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٠٦ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
وييام بلكتختون	١١١٩ - ١١٣٠ هـ / ١٧٠٧ - ١٧١٧ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
جورج برويل	١١٣٠ - ١١٤٠ هـ / ١٧١٧ - ١٧٢٧ م	قنصل إنكلترا والأمة الهولندية تحت حمايته
دانييل بومستر	١١٤٠ - ١١٤٦ هـ / ١٧٢٧ - ١٧٣٣ م	كان حارباً للقنصلية الهولندية قبل أن يعين قنصلاً من قبل السفير / ١٧٢٧ م /، وصدق على التعيين / ١٧٢٨ م /
جان جاكوب فان ليدريغ	١١٤٦ - ١١٥٣ هـ / ١٧٣٣ - ١٧٤٠ م	كان حارباً للقنصلية / ١١٢٨ - ١٧٣٣ م / وعين قنصلاً / ١٥ / حزيران / ١٧٣٣
هانريك أبراهام هيرمان	١١٥٣ - ١١٦٠ هـ / ١٧٤٠ - ١٧٤٧ م	كان حارباً للقنصلية منذ / ١٧٣٣ م / وأصبح قنصلاً / ١٧٤٠ م /

(١) - D. Arvieux . p ٤٨٤ .

(٢) - سورمايس : المرجع السابق ، ص ١٣

(٣) - لمتري ، المرجع السابق ، ص ٧٠



أرتور بولاند	١١٦٥ - ١١٦٥ هـ / ١٧٤٧ - ١٧٥١ م	قنصل إنكلتر ، ونحت حماية الأمة الهولندية
هاستريك هانويك	١١٦٦ - ١١٦٩ هـ / ١٧٥٢ - ١٧٥٥ م	سمي قنصلاً في حلب / ٢١ / تموز / ١٧٥٢ /
ماتياس فان امير	١١٦٩ - ١١٧٠ هـ / ١٧٥٥ - ١٧٥٦ م	بعد أن كان السكرتير الثاني في السفارة في إستانبول. سمي قنصلاً في حلب
جان فان كرشم	١١٧٠ - ١١٧٤ هـ / ١٧٥٦ - ١٧٦٠ م	سمي قنصلاً لهولندا في / ٩ / آب / ١٧٥٦ م /
جان فان همسكرك	١١٧٤ - ١١٧٧ هـ / ١٧٦٠ - ١٧٦٣ م	وصل إلى حلب / ١٧٥٧ م / وأصبح قنصلاً / ١٧٦٠ م /
نيكولاس فان ماسبيك	١١٧٧ - ١١٩٩ هـ / ١٧٦٣ - ١٧٨٤ م	سمي قنصلاً في / ٢٩ / حزيران / ١٧٦٣ م / وكان أول قنصل يتقاضى راتباً محدداً وغاب عاماً واحداً / ١٧٦٩ م /
دومينكو ميربولي	١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م	قنصل البندقية في حلب ، أمر الحماية للأمة الهولندية خلال غياب القنصل ماسبيك
جان فان ماسبيك	١١٩٩ - ١٢٤٢ هـ / ١٧٨٤ - ١٨٢٦ م	سمي قنصلاً في / ٤ / تشرين الأول / ١٧٨٤ م غاب سنتين / ١٧٩٨ و ١٧٩٩ م / وحل حلالها محله أخوه بيتر
بيتر جان فان ماسبيك	١٢١٣ - ١٢١٤ هـ / ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م	كان وكيلًا خلال غياب أخيه جان (١)

وفي نهاية الحديث عن القناصل الأوروبيين في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، يجب التنويه إلى امتيازات القناصل الخاصة بهم ، والتي حصل عليها سقراء الدول الأوروبية من السلطنة العثمانية وبلاحظ بعض هذه الامتيازات في الحديث عن القنصل الفرنسي ومعاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م .

فالقنصل معفي من الرسوم الجمركية ، ولبيته حرمة للحاصة ، ويحق له رفع علم بلاده عليه ، ولا يجوز سجنه لأي حجة كانت ، كما لا يجوز طرده أو حتم مرله أما القضايا التي كان يدخل فيها طرفاً ثانياً ، فإنها كانت ترفع إلى الباب العالي ، حيث يجب عنها سفير الدولة التي كان يتبعها القنصل

وكانت هناك مناسبات خاصة بين قناصل الدول الأوروبية ، وبخاصة في حلب ، فحدث عنها ولا حرج . وكانت تبدو مظاهر الأبهة والبدح والترف أثناء الاحتفالات ، وفي التسابق للحصول على امتيازات جديدة وفي إساعة أحدهم لآخر لدى السلطات الحكمة ، وهي شمائتهم ببعضهم عدد إصابته أحدهم بإهانة أو سوء

وفي الحقيقة كان التنافس يشتد بينهم كلما ازداد نفوذ أحدهم في لاسكة ، وهذا يرتبط بنفوذ دولته السياسي في إستانبول ، أو لدى الأهالي ، كما هو حال القنصل الفرنسي ، إذ أصبح عميلاً سامياً أكثر منه

١ - المدرس : للمرجع السابق ، ص ٧٥ .

تجارياً، وبخاصة بعد أن أحدث هرسا على عاتقها حماية الجاليات الدينية ومسيحي البلاد، وكذلك فإن حجم تجارة الدولة في الاسكلة له أثره الكبير في نفوذ قنصلها، وكلما ازداد حجم التبادل التجاري ازداد التنافس بين القناصل، وكان أحياناً ينشب تنافس بين القناصل على تمثيل الرعايا الأوروبيين الذين ليس لهم ممثلون دبلوماسيون في حلب، مثلما حصل عندما استند التنافس على تمثيل قنصلية هولندا بين هرسا وبيكتر، وذلك للاستفادة من رسوم القنصلية التي نصب بمصلحة القنصل الحامي لتجارة هولندا.

### الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية :

كان الجهاز الإداري في قنصلية البندقية يتألف من القنصل وعائلته والترجمان ورجل الدين والتجار البنادقة والطبيب الذي يعتني بالجالية. وكانت دولة البندقية هي أول من أوفد طبيباً إلى حلب للإشراف على أفراد الجالية فيها، وكان الطبيب يداوي الجالية مجاناً لقاء أجر محصن من مجلس الشيوخ ريد من /١٥٠/ أشرفي إلى /٣٠٠/ أشرفي، وكان يداوي المكار الذين لهم صلة أو علاقة مع جالية البندقية<sup>(١)</sup>. وكان يساعد القنصل في عمله (مجلس الاثني عشر) الذي كان يختار أعضائه من التجار الرئيسيين في سوريه، وكان القنصل يختارهم من أفضل البنادقة، ويشترك المجلس الاثني عشر مع القنصل في تعيين موظفي القنصلية الآخرين، كما أنه يسهم في مراجعة حسابات الكونتيمو<sup>(٢)</sup> مع القنصل بالرجوع إلى سجل محاسب الكونتيمو، وكان مخطوفاً على الأعضاء إعلان أي شيء بحث أو يوقش أو اتحد في المجلس، كما أن من وجبات المجلس مراجعة دخول البضائع والأفراد، بحيث تمنع دخول أية بضاعة لم يدفع عنها الكونتيمو، أو أي فرد من أسرة القنصل، كما لا يمكن إيجار التجار على دفع مجد للكونتيمو إذا لم يقرر ذلك المجلس، كما كان المجلس يساعد القنصل في بعض أحكامه القضاية ببيعين من ينوب عنه في حال تعينه أو استدعائه<sup>(٣)</sup>. ومتاماً للقنصل البندقي مجلس الإثني عشر يساعده في تسيير سور الجالية، كذلك كان للقنصل الفرنسي مجلس يساعدته يسمى مجلس الأمة الذي يمثل فيه عضو من كل بيت تجاري في الاسكلة، والقنصل هو الذي يدعو لاجتماع مجلس الأمة وقت الحاجة ويرأس القنصل للمجلس، وكان مجلس الأمة يناقش النفقات غير العادية للإسكلة، مثل ترميمات البيت القنصلي، أو الكنيسة، وبفوات الأعياد الوطنية أو الطارئة، أو الهدايا غير العادية للسلطات الحاكمة، أو الفروض الضرورية لدفع العرائس أو لأتاوى التي يجب أن تفرص على كل فرد من قبل القنصل إلى غرفة التجارة بشكل دائم<sup>(٤)</sup>.

أما بالنسبة إلى الجالية الإنكليزية فكان لها مجلس يسمى مجلس الجالية، وهو كالمجلس الفرنسي لا يجتمع إلا بطلب من القنصل ووقت الضرورة التي يقررها القنصل، وكان يضم تجار الجالية الإنكليزية

١- حجاز، عبدالله - قنصيه دار بوجه بطلب، مجلة الحوليات، للمرجع السابق، ص ١٨٧

٢- رسم الكونتيمو وهو مال يدفعه التجار البنادقة، أو من يحمل عنهم على السلع والبضائع التي يسمونها أو يصرونها

(٣)- Brechet p ٤٣

(٤)- Darvou p ٢٧

في حلب ، واجتمع المجلس إذ طلب ذلك اثنان من التجار على الأقل ، ومهامه تنبع عن طريقه سراءات الحماية ، وتعيينات القنصل ، وأوامر الملك ، وكان عليه أن يناقش جميع أمور التجارة <sup>(١)</sup>.

**الأمور المالية لدى الجاليات :** كان مجلس الأمة الفرنسي يعين كل عام في شهر كانون الأول نائبين من التجار الذين لا تقل أعمارهم عن / ٢٥ / عاماً ، والذين أقاموا في الأسكلة مدة لا تقل عن عامين ، وبوجود نائبين يعرض وجود ستة بيوتات تجارية فرنسية في الأسكلة ، وإذا لم يكن هناك سوى خمسة بيوتات أو أقل فإن بأكمة الفرنسية الحق في انتخاب نائب واحد فقط . وقد كلف النواب بالسهر على مصلحة التجار ، وبدعوة مجلس الأمة كلما دعت الحاجة لذلك ، وكانوا يتداولون مع القنصل في المشروعات المهمة ، ويعومان بجباية الرسوم المفروضة على المراكب لصالح غرفة التجارة ، ورسوم القصلية . وفي كل ثلاثة أشهر على اثنين من يقدمان للقنصل كشفاً مختصراً بالواردات والنفقات التي أجريها وكنا يرافقاته في اجتماعاته مع السلطات الحكومية وفي جميع المساسات الضرورية . وعند انتهاء عملهما كما يقدمان للسكرتارية تفصيلات كاملة عن مدة إدارتهما للعمل ، وكل هذه التقارير والكشوف كانت ترسل إلى غرفة التجارة في برصيلية ، لتكون العرفة على اطلاع تام على حالة التجار فيها .

وبعد عدة إعلانات لبعض نواب الإسكلات الفرنسية ، صدر قرار في ٢٧ كانون الثاني ١٦٩٤ م بأنه ابتداء من هذا التاريخ يجب أن يصنع مال الأمة في البيت القصلي ، وفي حرية ذات ثلاثة مفاتيح الأول مع القنصل والثاني مع السكرتير والثالث مع النواب <sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة إلى القصلية البيدقية فكان القنصل هو الذي يمسك سجل الواردات الكونيمو ونفقاته ، وكان هو ومجلس الاثنى عشر يراجعون حسابات الكونيمو مما يدل على مسؤولية القنصل المباشرة عن جدية الكونيمو ، بحيث يقوم هو واثنان من التجار الحكماء بتقويم البصائع التي يجب أن تؤخذ عليها رسوم <sup>(٣)</sup>.

وأخيراً الجالية الإنكليزية . فقد كان إلى جانب القنصل موظف ، وهو الحارز ، ولقد كان في حلب حازر منذ الأيام الأولى للشركة ، ومنع هذا الحارز من التجارة ، وحدد عمله بسنتين ، إلا أنه يمكن إعادة تعيينه ، وعليه قبل استلام عمله أن يقسم يمياً بأنه سيجمع الصرائب كلها ، دون تمييز أو تلاعب ، ومذ عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م لم يكن بإمكان أحد أن يصبح حازراً ما لم يكن قد أقام في الأسكلة خمس سنوات على الأقل وكان الحارز في يادئ الأمر يبال أجراً يسيرة ما يجمعه من الصرائب ، ولكن هذا تحول تدريجياً إلى أجر سنوي ، ففي حلب كان الحارز يبال / ٢٠٠ / جنيه ، ارتفع إلى / ٣٠٠ / جنيه ثم إلى / ٤٠٠ / جنيه إنكليزي وفي حتى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م

١- الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦١٧  
٤٥٣ p ١٩١١ le evadnt aux le siecle paris (٢) - Masson ( pau ) histoire du commerce francas dans .  
مقلأ عن الصباغ الجاليات الأوروبية

(٣) - Brechet p ٤١

وكان على الحارث أن يدفع تأميناً مالياً قدره / ٢٠٠٠ / جنيه في القنصليات الكبيرة مثل حلب و الحازن مسؤول عن النفقات وجمع الضرائب ، فهو يصرف بموافقة السفير أو الفصل المال الضروري للإفاق على النص والعمرات والهدايا والرشاوات وبقية المصروفات ذات الطابع العام ، وكذلك يدفع أجور الخدم في القنصلية ، كل كان عليه أن يحصل من التجار على تقرير دوري عن البضائع التي يجب أن ترسل أو تستقبل ، وهذه التقارير كان يرسلها دورياً إلى الشركة لتتقدها<sup>(١)</sup>

#### موارد خزينة الجاليات:

**خزينة الجالية البندقية:** كان مصدرها رسم الكوتيمو ، بالإضافة إلى العرامات المفروضة على المحالين من التجار البائدة ، وكان على الفصل أن يتلقى المدفوعات نقداً ، وكانت الأموال المجموعة تكفي إلى حد كبير حاجات الجالية ونفقاتها ، ومنها أجر لترجمان و نفقات المراسلين والهدايا المقدمة للباشا وغيره من السلطات الحاكمة<sup>(٢)</sup>

**أما خزينة الجالية الإنكليزية:** فكانت رسوم القنصلية ، وهي / ٢% / على جميع الصادرات والواردات لتدارك نفقات الجالية ، وكان هذا الرسم يكفي بشكل مبدئي لجمع نفقات الجالية ، ولكن في المجالات غير العادية ، فإن القناصل كانوا يرجعون إلى مجلس الجالية ، كما أن رسم القنصلية ليس ثابتاً تماماً ، وإنما يتناسب مع حالة التجارة ومالية شركة اللبانات التجارية ، وعند قيام الثورة الإنكليزية وإعادة النظام الملكي هبط رسم القنصلية إلى / ١% / بينما ارتفع في منتصف القرن الثامن عشر إلى / ١٠% / وكان على كل أسكلة من أسكالات شركة اللبانات في بلاد الشام أن تسلم الفائض لديها إلى السفارة الإنكليزية في إسطنبول من وقت لآخر محفظة بكمية قليلة نفقات العمل ، وكان خازن السفارة في إسطنبول يرسله بدوره إلى لندن<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً موارد خزينة الأمة الفرنسية: كانت في البداية تعتمد على رسم القنصلية حتى عام ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م ، حيث صدر مرسوم يسمى رسم الحمولة ، وهدفه تنظيم خزينة الأمة في كل أسكلة ، لتتفق منه على شؤون القنصلية ، وكانت قيمة هذا الرسم تتدرج بحسب الإسكالات والفروق في ثمن الحمولات التي تجرى فيها ، وقد ورد مجموع مصروفات القنصليات بـ / ١٠٠٠٠٠ / ليرة. وكان المجموع يقسم إلى قسمين ، قسم للقناصل وآخر للشؤون المختلفة ، وهذا يوضع بين يدي نواب الأمة ولا يصرف إلا بأمر من الفصل وقرار من المجلس. وكان الجمع كله يجري في مرسلية ، وعندما فاص الرسم المجتبى عن الحاجة ، فإنه أنقص

(١) - Wood p ٢٢٠ ٢٢١

(٢) - الصباح، الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ - ٦٢٣

(٣) - Wood p ٢٠٩

إلى الربع ، وأُدرج مرة أخرى في عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م على الرغم من زيادة نفقات القنصلية ، أما الأجانب الذين يستخدمون الرتبة الفرنسية ، فإنهم لا يدفعون رسم حمولة وإنما يدفعون رسم القنصلية القديمة<sup>(١)</sup>.

وبعد التعرف على الجاليات الأوروبية وقضاصلها وبوابها وأمورها المالية ، يتم التعرف على ما يسمى السكرتير أو المستشار .

السكرتير عند الجالية الفرنسية هو الذي يقرأ الأمر الملكي ورسائل التوصيات ، حيث كان الملك يأمر غالباً بإبهاء جميع أنواع الحصومات والجدل ، ويأمر بطباعة القنصل الفرنسي كقنصل عام لجميع مناطق سورية<sup>(٢)</sup> . والسكرتير يمسك سجل اجتماعات مجلس الأمة والتقارير التي يقدمها النواب عند انتهاء مدة عملهم ، والقرارات والأحكام التي يصدرها القنصل الفرنسي ، ويسجل جميع أنواع الأعمال والعقود ، التي يجريها التجار ويقبل ودائعهم ، ويجمع لديه ما يعود للمقيمين الذين توهوا هي الأمثلة أو المعلسين ، فهو سكرتير الأمة وحافظ أرشيفها وكتائبها ومدون عقودها.

والملك هو الذي يعين السكرتير منذ سنة ١١٠٣ هـ / ١٦٩١ م ، وهو ممنوع من مراوغة مهمة التجارة ، ولقد منح مرتب يتراوح بين / ٢٠٠ - ٤٠٠ / قرش ، بالإضافة إلى ما كان يأخذه من أفراد الأمة لقاء كل عمل لهم يقوم به<sup>(٣)</sup>.

أما سكرتير الجالية البندقية: فقد صدر قرار من مجلس الشيوخ بضرورة انتقاء رجل علماني كفء للمستشارية ، وخصص له / ٦٠ / دوكاً شهرياً مصافاً إليها نفقات المستشارية و / ٤٠ / دوكاً نفقات طعام ثم زيد أجر المستشار في القرن السابع عشر حتى وصل إلى / ٥٠ / سيكون شهرياً مع نفقات الطعام<sup>(٤)</sup>.

أما سكرتير الجالية الإنكليزية: فهو المستشار الذي يقوم بالأعمال من تسجيل وحفظ لكل عمل رسمي للجالية ، وكان يفحص ويسجل جميع السلع الواردة ، وكان عمله مهماً للجالية ، لا أن أجره كان ضئيلاً ، فلم يتجاوز الد / ٢٠٠ / جنيه في حلب بينما كان عليه أن يدفع ضمانات قدرها / ٣٠٠ / جنيه<sup>(٥)</sup>.

أما الوسطاء بين الجاليات الأوروبية وسكان البلاد وهم الترجمة الذين شكلوا قنوات الاتصال في كل معاوصات يقوم بها الأوروبيون مع السلطات العثمانية ، أو هي اليريرات الرسمية المصادقة ، لأن جهل الأجانب باللغة العربية والعثمانية كان يفسد عائقاً في الاحتكاك المباشر بين هؤلاء الأجانب والعثمانيين ، ولذلك سدا للسفراء الغربيين في إسطنبول أن يستريدوا من حق دولهم في حماية الأقليات ، فطالبوا بأن يشمل هذا الحق بعض الفئات الخاصة من رعايا الدولة العثمانية ، وأهمها فئة الترجمة الذين يعملون في السفارات

(١) الصباغ: للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق . ج ٢ ، ص ٦٢٤

(٢) - سورميون: المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .

(٣) - Masson p ٢٦٦

(٤) - Brecher p. ٤٩ .

(٥) - Wood p. ٢٢٢ - ٢٢١

والقنصليات الأجنبية ، وكان هؤلاء خليطاً من المسيحيين واليهود ، إذ أن اختيار هذه الفئة محصوراً دائماً منهم ، وقد رغم تلميحه دي روراس أنهم وحدهم دور المسلمين أقدر على فهم لغة العرب ، وعلى ترجمتها والتفاهم بها وأنهم أحق بالعمل في السفارات.

وقد كانت استجابة السلاطين العثمانيين إلى هذه المطالب والإصراف هي منحها للعرب ، ما فتح الباب على مصراعيه أمام الراغبين في هذه التعبئة لأجنبية طمعاً في ما كان وراءها من ميراث ومعام ، فلم ينقص قرب من الزم حتى كان الكثير من رعايا السلطنة في حماية العرب ، ومن ثم أصبح في يد العرب بهذه الكتلة من الأتباع أقوى سلاح شهده في وجه السلطنة العثمانية لتجربتها من ولاء أكبر عند ممكن من رعاياها<sup>(١)</sup>.

ولما كانت العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية والاجتماعية المعقودة بين السلطنة العثمانية والحكومات الأوروبية ، ووجود قنصليات لهذه الحكومات في كثير من البلاد العثمانية ، فقد استوجب ذلك تعيين تراجمة محليين ، وكذلك المحافظة على حقوقهم ومنحهم لامتيازات<sup>(٢)</sup>

وكون ولاية حلب من أهم ولايات السلطنة العثمانية فقد تم الاهتمام بها من قبل السلطنة ، وأكدت على وجوب المحافظة على القناصل الأوروبيين والجمهور الإداري في القنصليات ، حيث أرسلت عريضة إلى المسؤولين في الولاية المذكورة ، تذكر وتطالب بحماية القناصل ووكلائهم المقيمين في حلب مع تراجمتهم ومستخدميه ، وتؤكد السلطنة بوجوب عدم اعتداء التجار على التراجمة من خلال مصادمة دورهم ليلاً ، وأحدهم إلى السجن بعد تحقيرهم نتيجة عداوات حاصلة بين هؤلاء التجار والتراجمة، وتطالب السلطنة بالالتزام بالعهد الهامبوي<sup>(٣)</sup>

ويصف التراجمة في قنصليات حلب في ثلاث مراتب أولى وثانية وثالثة ، ويرافق التراجمة القناصل عند مقابلتهم للوالي ، الذين عليهم تقسيم فروع الطاعة إلى الوالي فيبحثون أمامه ويقبلون كف يده ، وعندما يستجيب الوالي لطلب القناصل يجثو الترجمان الأول ، ويقبل حشية ثوب الوالي ، وكان الوالي يقدم هدية للترجمان الأول (عبء) ولباقي التراجمة مبالغ. كما كانت القنصليات في حلب تدكي المرشحين للتراجمة إلى الباب العالي ، ونصدر الأوامر السلطانية بقبول ذلك مقابل مبالغ كبيرة. وكان التراجمة يستفيدون من الحماية القنصلية ، ويعفون من دفع الخراج ، ويحصلون في نزاعاتهم إلى قانون دولة القنصلية ، وعند وفاة

(١) - الحقيق المرجع السابق ، ص ١٠٠

(٢) - العرمان رقم / ٢٤٠ / تاريخ العرمان (١١٨٠ هـ) ، من السجل / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - العرمان رقم / ٢٢٢ / تاريخ العرمان / ١١٩٦ هـ ، من السجل / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

أحد التراجمة بغير الفصل لا الفاصلي على ممتلكاته. كما يحق للتراجمة ارتداء قنعة خاصة من الفراء مع حفاصة أصفر<sup>(١)</sup>.

ويذكر الفصل إنكترا في حسب ديفيزين عام ١٢٠٥ هـ / ١٦٩٠ م عن التراجمة ما يلي: "كن عدد غير قليل من المسيحيين واليهود يدخلون دائرة القناصل الأجانب بصفة ترجمة ، ولكل ترجمان شخصان يدخلان في حمايته ، ويسمى كل منهما قريماً بموجب البراءة السلطانية فكان لفصل فرنسا ثلاثة تراجمة وللفصل إنكترا، أحد عشر ترجماناً مسيحياً وواحد يهودي ، وللفصل البندقية ثمانية تراجمة، وللفصل هولندا أحد عشر ترجماناً وواحد يهودي. والتراجمة والفرماندية يلبسون (الفلق) ويتمتعون ببعض الامتيازات، ويعفون من بعض الضرائب. وعند دخول القنصل في وظيفته أو وفاة السلطان وجلس غيره على العرش يجب تجديد البراءة من الباب العالي<sup>(٢)</sup>.

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كتب سليمان فيضي بشا إلى السلطان العثماني ، أنه قد بلغ عدد تراجمي القناصل في حلب نحو ألف وخمسمائة رجل ، والسبب في ذلك أن الدولة سمحت لكل سفير في إستانبول ، ولكل قنصل خارجي شخص وترجمان استثنائه من جميع النكاليات الأميرية. فافتتح بسبب ذلك باب لمن أراد التحول في الترجمانية ، حتى بلغ من كان يلبس فلانس السمر ألقاً وخمسمائة، دخلوا بالخدمة والحيلة ، وامتنعوا عن دفع النكاليات الأميرية، وكانوا تجاراً.

عبت الدولة للفحص عنهم رجلاً يقال له كسبي أفندي ، فحضر إلى حلب، وأحضرهم جميعاً بمراجع أسماءهم في سجل التراجمة، فلم يظهر منهم غير ستة تراجمة بحق ، فحذف ما عداهم، وأرسلهم إلى إستانبول للمجاعة بعد أن دفع له ، وللكمرجي ولمحصل الضرائب الأول (خمسة آلاف ذهب) وللوالي مثله، فلم يقبلوها<sup>(٣)</sup>.

هذا وقد صدرت لائحة مصححة بأسماء جميع التراجمة ومعاونيهم والعاملين في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب ، بعد التأكد من أماكن إقامتهم وأعمالهم وجنسياتهم في السجل السلطاني. وتوجد صورة مصححة من لائحة تراجمة قنصليات فرنسا مع برارات تعيهم محفوظة في دار الوثائق التاريخية<sup>(٤)</sup>.

وفي حال وفاة ترجمان القنصلية تسعى القنصلية بسرعة لملء المكان الشاغر ، فهذا هو السفير البندقي في إستانبول يسعى لتعيين ترجمان جديد لقنصلية البندقية في حلب ، كما يطلب منحه الامتيازات والبراءة

(١) هلال التحولات التاريخية ، المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) نوتل المرجع السابق ، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) - العربي: للمصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢.

(٤) - للمصدر رقم / ١١٩ / تاريخ الفرمان (١٦٦ هـ) ، من السجل / ٢٣ / الحكومة السلطانية بولاية حلب ، ص ٨٤ - ٨٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

الشريعة التي تحولها للترجمة وما يتعلق بأمورها<sup>(١)</sup>، وها هي فرنسا تسعى من خلال معاهدتها ١١٣٥ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة إلى الحصول على امتيازات لترجمة قنصلياتها، فحصلت على امتياز إعطاء الترجمة والتجارة الحرة المطلقة بالذهب والإياب برّاً وبحراً من وإلى مدن السلطنة العثمانية، سواء كان للبيع أو الشراء، أو للتجارة، بشرط ألا يتخطوا حدودهم<sup>(٢)</sup>.

وإذا وقع خلاف بين أحد رعايا السلطنة وفرنسي، وتقدم الحصان إلى القاضي ليحكم بينهما فلا يجوز للقاضي استماع الدعوى، إن لم يكن ترجمان القنصلية حاضراً، وإذا كان الترجمان مشغولاً بأشغال ضرورية تدعو لتأخره عن الحضور تؤجل الدعوى إلى حين حضوره، وعلى الفرنسيين أن يسيبوا عن الترجمان العائق بدون أن تكون عيبه بحجة مصرّة<sup>(٣)</sup> وكذلك يسمح للترجمة بحجب العيب إلى بيوتهم ليصنعوا فيه حمراً، وإذا أتاهاهم حمر لمؤنتهم فلا يجوز لعمال السلطنة أن يطلبوا ضريبة أو هبة لا حين الورد ولا حين النقل<sup>(٤)</sup>.

القنصلية الإنكليزية: أيضاً السفير الإنكليزي جيمس بورتر يتدخل ويطلب بفتح ترجمان قنصلية بريطاني في حلب جميع الامتيازات والمنح والإعفاءات المنصوص عليها دولياً<sup>(٥)</sup>. وتكرر تدخل السفير الإنكليزي نفسه عندما كان لترجمان القنصلية الإنكليزية في حلب (جرجس بن شكري) الذي له علاقات ومعاملات (بيع - شراء - أخذ - عطاء) ولديه مرافعه أمام القضاء، وقد حرج المذكور بريد مما سبب إليه بمعرفة قاضي حلب، وطلب السفير الباب العالي بعدم تدخل أحد في شؤون ترجمان القنصلية المذكور<sup>(٦)</sup>.

وكذلك السفير الهولندي طلب تعيين ياسف بن مبحائيل ترجماناً لقنصلية هولندا في حلب، بدل الترجمان المتوفي جرجي دياب، وطلب السفير المذكور إعطاء الترجمان الجديد الامتيازات والبراءة السلطانية لبدأ عمله<sup>(٧)</sup>.

(١) - الفرمان رقم / ١١٤ / تاريخ الفرمان (١١٩٦ هـ)، من السجل / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٨٢، دار الوثائق

التاريخية بدمشق

(٢) - للمعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، البند ٤٦.

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه: البند / ٢٦ /.

(٤) - للمعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه: البند / ٥١ /.

(٥) - الفرمان رقم / ٤٣٢ / تاريخ الفرمان (١١٦٢ هـ)، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٢٢٤، دار الوثائق

التاريخية بدمشق

(٦) - الفرمان رقم / ١٢١ / تاريخ الفرمان (١١٧٥ هـ)، من السجل / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٦٠، دار الوثائق

التاريخية بدمشق

(٧) - الفرمان رقم / ١٢٩ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ)، من السجل / ١٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ١٢٤، دار الوثائق

التاريخية بدمشق.



وتظهر وثائق المحاكم الشرعية عمليات احتيال واحتلاس يقوم بها التراخمة ، كما حصل مع ترجمان قنصلية هولندا في حلب شكري دياب الذي لعب واحتال في المعاملة مع المواطنين ، واحتلس أموال التجارة ومعه أصحاب الديوان ، حيث تقاسم الأموال مع المباشرة والكاتب المعين الدين أحميا وأضاع الأموال العائدة للقنصل الهولندي بواسطة الترجمان المذكور (١).

لكن يجب الإشارة بأن القنصليات الأوروبية في ولاية حلب لم تكن راضية عن ترجميها وسلوكهم، وكانت الشكاوى صدهم كثيرة ، لعشهم أحياناً وبيعهم الأسرار أحياناً أخرى ، ولذلك سارعت القنصليات جاهدة لإيجاد حل لمشكلة التراخمة من خلال الاعتماد على تراجم من البلد الأم للجاليات. فها هي فرنسا تؤكد في معاهدتها مع السلطنة عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠ م ، على حصول امتيازات لمتترجميها الفرنسيين الأصل ، فعندما يترجمون تماماً ما عهد إليهم ويفضون مأموريتهم فلا يهابون ولا يسجنون ، وإذا قصروا شيء يؤدبهم سفراؤهم أو قناصلهم بدون أن يحق لشخص آخر التعرض بهم (٢). وكذلك أصبح الفرنسيون يحتارون المترجمين من الأتباع الفرنسيين في الشرق ، الذين درسوا في فرنسا أو إسطنبول ، والذين يلمسون بعض اللغات وفي بعض الأحيان من الفرنسيين الذين عاشوا سنوات طويلة في حلب ، حيث كان هؤلاء يرسلون إلى مختلف المدن ، ويتربعون على منصب المترجم الأول بعد التخرج من مدارس العاصمة العثمانية (٣).

أما إنكلترا فقد حاولت في أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر للميلاديين ، إرسال بعض الغنيس من طائفة الروم إلى إنكلترا على حساب الشركة ، وأرسلوا إلى كليتي غلوسستر وأكسفورد ، ليتعلموا الإنكليزية لاستخدامهم تراجم عند عودتهم إلى بلادهم ، لكن العمل لم يكن ناجحاً ، حتى أنه عندما اقترح إرسال فوج ثامن في سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م فإن الشركة أعلنت السفير ستون (Suton) بأن أولئك ، الذين كانوا سابقاً في أكسفورد ، لم يعطوا التشجيع الكافي للقيام بمحاولة أخرى من هذا النوع ، ولذا فقد قرروا عدم إعادة الكرة مرة أخرى. وكان بعض الترجمة من أهالي البلاد قد اكتسبوا تدريباً بعض للمهارات ، وشرعوا بكتساب بعض العادات الأوروبية ، لذلك حولت الشركة بصرها عن هذه التجربة (٤).

أما رجال الدين المسيحيين حيث أن الدول الأوروبية عندما أرسلت رعاياها إلى مختلف أنحاء السلطنة العثمانية ، لم تنس من ينظم لهؤلاء الرعايا شؤونهم الدينية ، لذلك كانت حريصة كل الحرص على إرسال رجال دين مع رعاياهم ، ليقوموا بالإشراف على الأمور الدينية وتنظيم العادات في كل أسكلة يقيم

(١) القرملي رقم / ٣٣١ / تاريخ الفرنسيين (١١٧٧ هـ) ، من السجل / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بمشق

(٢) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق البند / ٤٦ /

(٣) - سورمايس المرجع السابق ص ٤٠١

(٤) الطباع الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٣١.

فيها الفصل . فما هي جمهورية البندقية أرسلت مع قنصلها إلى حلب رجل دين يرافق القنصل ، وكذلك فرنسا كان لكل جالية قسها الذي كان يتناول الطعام على مائدة القنصل ، وكانت فرنسا تسعى بكل طاقتها لتثبيت نفوذها الديني عن طريق إقامة كنائس سرية خاصة في قنصلياتها ، عن طريق تشجيع البعثات التبشيرية ، ومساعدتها<sup>(١)</sup>

أما الجالية الإنكليزية، فلم يملك الإنكليز كنيسة أو ديراً أو مدرسة أو مشفى، لأن الوجود البريطاني مبني على أهداف سياسية وتجارية فقط منذ تأسيس القنصلية الإنكليزية في حلب في القرن السادس عشر الميلادي ، وبالكاد كان يصل إلى حلب قس أو أسقف أنكليكاني بروتستانت<sup>(٢)</sup> لإقامة شعائر دينية في إحدى قاعات القنصلية للجالية البريطانية الصغيرة ، كما كان الإنكليز يتمتعون بحترام كبير في مدينة حلب ويحتفظون بمكانة مرموقة ، على الرغم من عدم امتلاكهم على دور عبادة ، لأن رجال الدين الأنجليكاني كانوا يروون هذه الجالية الصغيرة من قبرص (كالب ناكستون والأب ستوارت والأسقفين ميبيغ وبراون من القدس)<sup>(٣)</sup>.

لقد كان رجال الدين المسيحيون المرافقون للجاليات يقومون الصلوات مع أعضائها ، كما تجري في وطنهم، ويظهرون على كنيسة بجهريتها لهذا العرص ، وفي الحقيقة كان ممنوعاً إنشاء أية كنيسة جديدة للجاليات خارج إستانبول وأزمير ، فقد كانت للجاليات الأوروبية في الإسكندرية مثل حلب أمكنة يقوم فيها شعائرتهم الدينية مثل كنيسة السادقة في حلب ، كما كانت هناك علاقات دينية مع جميع ممثلي الدول الأوروبية عدا بريطانيا، لأن أصب الدول الأوروبية تكبر بالعبادة الكاثوليكية ، وكانت لجالياتها وقنصلياتها جميع أنواع التسهيلات لقيام بواجباتها الدينية ، والصلاة في كنائس وأديرة المبشرين الكاثوليك العديدة في حلب<sup>(٤)</sup>

أم الأطباء الجاليات: فبعد القرن السابع عشر أخذت القنصليات الأوروبية تصمم طبيباً بشرياً يشرف على صحة أفراد الجاليات ، وكانت البندقية أول من أرسلت مجموعة من الأحصائيين الفيين إلى قنصلياتها مثل (الطبيب والحلاق والحذاء والحياط).

(١) الصلح الجاليات الأوروبية ، للمرجع السابق، ص ٦٣٤

(٢) - المذاهب البروتستانتية: مؤسسها راهب كاثوليكي المذهب ، ألماني الجنسية يدعى مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) ، احتج لوثر على النظام الكهني والرهبة ، فحرمه الباب ونفصه بروتستانت مشقة من لوطه بروتستو أي إقامة الحجة ، وهذا المذهب سائد الآن في ألمانيا ولتسمارك والسويد وهولندا وإنكلترا وأمريكا الشمالية

(٣) سورميس للمرجع السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٤) سورمين: للمرجع نفسه، ص ٤٠٥

أما القنصلية الفرنسية فلم تحصل على طبيب إلا في مطلع القرن الثامن عشر، حيث كان / ٢ - ٣ / أطباء فرنسيون يعملون تحت حماية القنصل الفرنسي في حلب ، ويعرف أحدهم بالطبيب الحاص للفرنسيين أو الجالية<sup>(١)</sup>.

أما القنصلية الإنكليزية فقد كان لشركة اللبغات طبيب واحد في حلب وهو الطبيب ألكسندر راسل ، حيث كانت حياة البريطانيين الذين يعادرون الوطن من قناصل وموظفين كبار وتجار إلى بلاد ، تعدد آلاف الفرنسيين عن إنكلترا غالية على الدولة ، بسبب المعاملة التي يلقاها بعض هؤلاء في الشرق من تعصبات ، وأيضاً من خطر الأمراض السارية التي راح أصحابها آلاف السكان المحليين من كل المثل وبهم الأجانب ، لذلك أجبرت هذه الأحوال الشركة التجارية الشرقية لللبغات ووزارة الخارجية البريطانية ، على تعيين أطباء حائزين لشعاراتهم وقنصلياتهم في الشركة ، لمعالجة مواطنيهم جراء الحوادث والأمراض العامة والمعدية

ولم يكن أطباء القنصليات البريطانية والفرنسية في حلب يقدمون المعالجة الضرورية لمواطنيهم المرضى فحسب ، بل كان هؤلاء الأطباء الأخصائيين المهرة يدعون إلى بيوت الأعياء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكان الطبيب الكسندر راسل (Alexander Russell) طبيب القنصلية البريطانية في حلب قد وضع علمه وحيثه الطبية في خدمة الفصيلة المذكورة وسكان حلب في القرن الثامن عشر الميلادي. والطبيب راسل لم يكن طبيباً فحسب ، بل كان عالماً اجتماعياً أيضاً وكتّاباً يدون الأشياء والأشخاص والعادات بلغة سهلة ، فألف كتاباً من جرائب هو تاريخ حلب الطبيعي the natural history of Aleppo<sup>(٢)</sup>.

أما الحرس أو الشاويشية: فلامتيازات التي منحت للقناصل الأوروبيين أعطتهم الحق في احتياز انكشورية لحراستهم ، فأصبح هناك عدد منهم يقومون بهذه المهمة ، وكان القناصل لا يخرجون أبداً ولا وهم بصحبة أفراد من الحرس ، ولقد أبدى هؤلاء لانكشورية إحصاءاً كبيراً في عملهم حتى أن كيول أحد قناصل الإنكليز في حلب وجددهم أحلص الرملاء في العالم<sup>(٣)</sup> والقنصل الفرنسي دارهيو رأى فيهم أفراداً ممتازين في عملهم وخدمتهم. فكان للقنصلية الإنكليزية حارسان إنكشاريان يتقاصبان مرتبتهما من الشركة التجارية الشرقية لللبغات. وعندما كان القنصل الإنكليزي يخرج من القنصلية كان هذان لانكشاريان يسيران أمامه ، ويقومان بصرب العصا الطويلة على الأرض ، كي يعلم الناس بقدوم القنصل وإفساح المجال لمرووره ، ويرتديان الزي المعتاد. وكان عددهم يزيد في بعض المناسبات الخاصة والجميع يعتمر قبعات خاصة من اللباد<sup>(٤)</sup>.

(١) - سورميان: المرجع السابق، ص ٤٠١

(٢) - سورميان: المرجع نفسه، ص ٤٠٨ - ٤٠٩

(٣) - Wood p ٢٢٨

(٤) - سورميان: المرجع السابق، ص ٤٠٤

وأخيراً وفي آخر السلم الإداري للعصليات يأتي الخدم: كان للعصليات الأوروبية في ولاية حلب، خدم للمحافظة على نظام الثرف والاحتفالات التي كان القاضل حريص على إظهار خدمتها أمام الأتراك، ويدور عليها هيتهم، لكن الخدم الإنكليز لم يكن مرصياً عنهم، لأنهم اعتادوا الكسل والتهاور، وكان ارتفاع درجة حرارة البلاد والحرر يسيئان إليهم، مما أدى لإعادة أكثرهم إلى إنكلترا<sup>(١)</sup>. وقد استخدم القناصل أهل البلاد وحاصلة الأرمس والروم منهم، الذين يرحسون بهذا العمل للأجور الجيدة التي كانوا يتقاضونها<sup>(٢)</sup>. ولم يعب عن أدهار السلسلة الفرنسيين عند توقيعهم معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة الحصور على امتيازات للخدم الذين يقدمون خدماتهم للسفير الفرنسي وللقناصل في الولايات، فسأعدهم على إعفائهم من ١٥ % / من الصرائب والرسوم المفروضة عليهم<sup>(٣)</sup>.

وفي نهاية الحديث عن الأوضاع الإدارية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب (الندقية - الفرنسية - الإنكليزية - الهولندية) خلال القرن الثامن عشر الميلادي، نلاحظ أن أفراد تلك الجاليات لم يكونوا عبارة عن معامرين تركوا أوطانهم وأهلهم في بلادهم الأم بحثاً عن حب المعامرة والامتطلاع والاستكشاف، كما لم يكونوا عبارة عن مجرد أفراد يهيمون على وجوههم، ولا يعرفون ماذا يريدون جاءت بهم الأقدار إلى بلاد الشرق، وإنما على العكس من ذلك، فلقد كان هؤلاء أشبه بجمهوريات صغيرة لها إدارتها الكاملة وموظفوها الحاصور. بحيث تشتمل على جهاز إداري كامل من السفير الذي هو صلة وصل بين رعايا دولته في السلطنة العثمانية والباب العالي من جهة، وبين رجال دولته والباب العالي من جهة ثانية. وبعد السفير يأتي على رأس كل جالية فصيل يرأسه الجالية، ويسير أمورها، ويدافع عنها أمام السلطات العثمانية. ثم يواب القناصل والشارتون الذين يشرفون على أمور المالية. ثم السكرتير أو الممستشار ثم المترجمون والأطباء والحرس والخدم. فهو جهاز إداري كامل لا يفتقر حتى الخدم. حيث كانت الجاليات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً جداً بأوطانها على الرغم من المسافات البعيدة التي تفصلهم عنها. فهذه الجاليات كانت بمثابة امتداد سفري للدول الأوروبية التي تتبعها، كما كانت وسيلة تسلك وتعلل أرسلت إلى السلطنة العثمانية، لأهميتها من كافة النواحي السياسية والتجارية والاستراتيجية والدينية. لتعمل على إضعافها ونهب ثرواتها، ومن ثم السيطرة عليها وبخاصة المناطق العربية من السلطنة العثمانية

.....

(١)- Wood p ٢٢٥

(٢)- الصباغ، الجاليات الأوروبية، المرجع السابق، ص ٦٣٨

(٣)- المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، ليد / ٤٧ /

## الفصل الثاني

### النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب

الأوضاع العامة للتجارة.

تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر.

التبادل التجاري (الصادرات والواردات).

النقود.

الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون.

الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية.

طرق المواصلات التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها ولاية حلب.

كانت منطقة المشرق العربي خاصة ، والوطن العربي بشكل عام ، يمثلان موقعاً جغرافياً واستراتيجياً مهماً بين أقاليم وبلدان الشرق من جهة ، وأقاليم وبلدان أوروبا في الغرب من جهة أخرى. الأمر الذي ساعدها على التحكم في التجارة العالمية ، وجعلها محط أنظار التجار للعمل والاستفادة من خيراتها. وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر توافدت الجاليات من أوروبا إلى بلاد الشام بشكل مكثف ، لم وجده من عوامل جذب. وكان العمل بالتجارة محورياً لنشاطها وحياتها. وفيما يلي سوف يتم التعرف على:

## ١ الأوضاع العامة للتجارة:

من أهم العوامل التي دفعت أوروبا للكشوف الجغرافية ، العوامل الاقتصادية والتي تلخص في محاولة أوروبا التخلص من الرسوم الجمركية الفاحشة التي تفرضها السلطات المملوكية الحاكمة في مصر وبلاد الشام على السلع الشرقية عند مروره عبر أراضيها.

وكذلك الرغبة في صرب احتكار تجار البندقية الذين كانوا يقومون بنقل السلع الشرقية من موانئ مصر وبلاد الشام إلى أوروبا ، وقد أدى هذا الاحتكار إلى تحقيق أرباح خيالية للعاملين في التجارة من شخص الصانع من موانئ تصديرها في آسيا وتوزيعها وبيعها في أوروبا<sup>(١)</sup>

حيث احتاجت أوروبا وبلاد العرب بشكل عام إلى موارد بلاد الشرق الأقصى ، وموادها الأولية ، من التوابل ، والمواد اللازمة للعلاج الطبي ، واللاكئ والحرير ..... ، والمواد الخام والمصنوعات التي كانت من منتجات الشرق والشرق الأقصى

وكانت تلك السلع تنقل إلى أوروبا من خلال صريفيين: طريق الحرير وطريق التوابل. وقد سيطر العرب على تلك التجارة العالمية سواء بشرايتها أو نقلها ومن ثم إعادة بيعها إلى أوروبا ، فجنوا من جراء ذلك أرباحاً طائلة ، فشأت أسواق عدة في الوطن العربي وحارجه ، وأصبحت بحاجة إلى بيع منتجاتها ، وجرها ذلك إلى البحث عن المراكز البحرية وعن المحارر والقواعد والامتيازات ، ودخلت أوروبا بذلك عصر الاستغلال الرأسمالي الذي كان أساساً لدحولها عصر الاستعمار<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من كون مصر وبلاد العربية الأخرى قد أصيبت بصربة شديدة ، نتيجة لتحول التجارة الهندية الرئيسية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، إلا أن موقعها الجغرافي كان ولا يزال يصفي عليها مزايا طبيعية ضخمة بصفتها محارر للتجارة بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وكانت أهم نقاط تلاقي الطرق التجارية هي القاهرة وحلب وبيروت ، وكانت حلب بوابة للطريق التجاري إلى بغداد ، وهو الطريق الرئيسي للعلاقات

(١) - الصطوف ، عبد القافي وآخرون. تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، مطبعة الدودي ، دمشق ، ١٩٩٨ م ، ص ٦١.

(٢) يحيى ، جلال المعلم العربي الحديث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ م ، ص ١٣ - ٢٧

القائمة بين فارس والخليج العربي ، لكن هذه العلاقات ما كانت لتحرر سوى أهمية قليلة لولا الهياكل الخارجية للسلسلة: أوروبا وفارس والهند<sup>(١)</sup>

أما بالنسبة إلى حلب كانت على اختلاف الأهمية التاريخية المتعاقبة عليها ، ومهم كانت السلطة المهيمنة عليها مديته معادلات تجارية ، وهذا يفسر سبب ازدهارها الاقتصادي ، وكانت وطبيعتها الأساسية القيام بدور مركزي كبير للمعادلات التجارية ، لوقوعها في مفترق الطرق التي تربط بين الأنصول وما بين النهرين وإيران ومصر. لهذا شكلت حلب المركز الأول في التجارة الدولية العابرة ، لأراضي السلطنة العثمانية ، إذ قصبتها قوافل بحر دكر والموصل وبعاد والنصرة ، حملت الأولى والثانية حرير بلاد فارس الشمالية وغيرها ، فضلاً عن الأصغى الحيوانية والنباتية ، وجاءت قوافل بغداد والنصرة بمنتجات الليم والهند والشرق الأقصى: مثل القهوة والشاي والتوابل وأنواع الأدوية والأصغى ، وكانت هذه المواد تباع للتجار الإفريق في حلب الذين بدورهم شحوها إلى الإسكندرية أو اللادقية أو طرابلس برأ. ومن ثم بحر إلى بلدان أوروبا العربية. وكان يتم البيع غالباً عن طريق مقايضة هذه البضائع بأقمشة صوفية أوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضي الأوروبي ثم يعاد تصدير هذه الصوفيات إلى المناطق الفارسية<sup>(٢)</sup>.

وكانت تصلها مرتين أو ثلاث في العام قوافل عظيمة مؤلفة من ألفين أو ثلاثة آلاف جمل آتية من الصين والهند وبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين ، لتتوزع بعد ذلك في آسيا الصغرى وأرمينية ومصر ودمشق. وكان في أسواق حلب فيض غزير من بضع الهند ، حتى سميت حلب بالهند الصغرى<sup>(٣)</sup>

وحتى أمد قريب ، ساد اعتقاد بأن لاكتشافات الجغرافية الكبرى كبدت التجارة الشرقية حصاراً لا تعوض، ووصلت النهاية لازدهار مدن المشرق العربي كمركز لتجارة العبور ، غير أن أحداث السنوات الأخيرة أظهرت أن الحقيقة التاريخية لم تكن كذلك فأزمة تجارة التوابل لم تدر قريبا إلا في القرن السابع عشر ، بحيث بدأت التوابل في القرن الثامن عشر تصل إلى المشرق كإعادة تصدير لها بشكل أساسي إلى أوروبا مع ذلك. وشكل الحرير الخام المستورد من بلاد فارس ومن وراء القفقاس جزءاً مهماً من تجارة العبور في الولايات السورية في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاديين ، وبعد تصاؤل النشاط التجاري الذي شهده القرن التاسع عشر ، لوحظ اهتمام متزايد للعرب بأسواق المشرق وتغيرت بنتيجته نسبة

(١) - جب ، هاملتون ، ومارونديون ، المعجم الإسلامي والعربي ، ب أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ج ٢ ، دار المعارف بمصر ، ص ١٥٤

(٢) - حميدة ، عبد الرحمن ، محافظة حلب ، للمرجع السابق ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨

(٣) - بورخه ، أنوف: حلب وعلاقتها مع أوروبا ، جمعية عادات حلب ، ١٩٧٦ م ، ص ١٦٥

حصة التجارة المشرقية في التجارة العالمية ، وازدادت تجارة قريش في القرن الثامن عشر بنسبة أربعة أضعاف<sup>(١)</sup>.

وكانت موانئ البحر المتوسط المتصلة مع حلب بشكل شيط هي إسكندرية وللاذقية وطرابلس الشام ، حيث كانت طرابلس تضم عدداً من الفصليات الأوروبية ، وهي على اتصال دائم مع مثيلاتها في حلب التي كانت طريق تجارة الشرق إلى العرب وبالعكس ، قل اكتساب رأس الزجاء الصالح وحتى افتتاح قناة السويس ١٧٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ، فلا تصاهاها بلدة شرقية في سعة مبحرها وتعتبر حالاتها، حيث كانت واسطة التبادل لصادرات الهند وأواسط آسيا وأرمينية وفارس مع أوروبا والمقايضة عليها مع تجار جنوة والبندقية وفرنسا وهولندا ، حيث كانت حلب تزخر بجميع الصداقات المشرقية ، وبالنسبة مدد عهد المماليك أقاموا قناصل لهم في حلب وجاء إليها الفرنسيون والإنكليز فكثر عند الجاليات الأجنبية، وكان في حلب عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م ثمانون وكالة لبيوت تجارية أوروبية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نامت علاقات بحرية واسعة مع الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادين من خلال تشجيع السلطنة للدول الأوروبية بمنح الامتيازات لهم ، فحدث نشاط تجاري اقتصادي كبير ، فالأرض العثمانية وبلاد الشام بحاصة كانت معبراً صطراًياً يقصر المسافة بين العرب والشرق ، فضائع أرمينية وفارس والقوقاز والهند تأتي للموانئ العثمانية عن طريق البحر المتوسط بكميات وافية بحيث يكون التبادل بينها وبين المنتجات الغربية رائجة وربحية.

وكانت هذه التجارة بالنسبة للعثمانيين مصدر ربح ، لا يمكن إهماله ولا الاستعناء عنه ، فرسوم الجمرات مورد مال يزود الخزينة بقسط كبير من رصيده واحتياجاتها ، كما أن السياسة الحربية التي كان يتبعها السلاطين كانت تجبرهم على البحث عن صداقة القوى الأوروبية ، أو حيادها

وكذلك كانت أوروبا تشعر بالحاجة إلى صداقة السلطنة العثمانية ، وكسب ودها ، حيث شعرت أوروبا بمكاسبها من السلطنة ، وبحاصة بعد أن لمست أن اللاد التي تتاجر فيها هي سوق استهلاكية لمستجانيها واسعة وسهلة ، وليس باستطاعتها بهذه الطاقات القائمة أن تتحول إلى بلاد مصدرة لمواد مصنعة ، بل ستبقى بلداً منجدة فقط للمواد الخام التي تحتاجها صداعات أوروبا الحديثة.

وكذلك وجود هذه الوسطاء لعبت دوراً كبيراً في العلاقة بين الطرفين (الأوروبي العثماني) وكان من مصلحة هذه الفئة أن تستقر التجارة الأوروبية على الأرض العثمانية ، وتبقى ليدوم لهم عملهم وتستمر

(١) سكويلا ، إيزابا سمير ، لبني الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ، ت: يوسف عط ، ط ١ ، ص ١٥٦  
القارابي بيروت ١٩٨٩ م ، ط ١ ، ص ١٥٦

(٢) - نسخة من اقتصاديات حلب - غرفة تجارة حلب ، مطبعة روطوس حلب ، ١٩٥٠ م ، ص ٥ ٦



رشاؤهم ،ولذلك سيطر العربيون وبعض الفئات من الرعايا العثمانيين على التجارة الحرجية ، وتسييرها لصالحهم دون غيرهم. ومن البديهي أن يؤثر هذا في مجرى التجارة للدخلية في نطاق السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

من أبرز العوامل المساعدة على ازدهار وبشاط تجارة الجاليات الأوروبية في بلاد الشام عامة ، وحلب خاصة هي الحماية والرعاية اللتان كانتا تلفتهما من الفاصل والممر ، الدين وصعتهم لها دولها في المناطق التي تقيم فيها ليرعوا شؤونها ويقصوا بين أفرادها ، ويدافعوا عنها ، ويصاف إلى ذلك أماكن السكن التي هيأتها البوالة العثمانية للأوروبيين وهي الحانات ، وكانت تصمم بيوتاً لسكناهم ، ومحارر لصنائعهم ، وتجمعهم على احتلاف جنسياتهم الأوروبية ، هذا إلى جانب أن الدولة العثمانية قد فتحت أسواقها لجميع أنواع البعد ، مما سهل لهم سبل المبادلات التجارية<sup>(٢)</sup>.

وأطلقت الدولة العثمانية على المسيحي التاجر الأجبي الوافد إلى أراضيها ، الاسم الشرعي (مستأمن) أي أنه أقام على الأرض العثمانية للأمان الممنوح له ، والسبب في منحها الامتيازات أن المستأمن الأجبي لا هو مسلم ليندمج مع المعاملة الإسلامية لرعايا السلطان ، ولا هو رعية دمية، بل هو حالة خصه يجب أن يوضع له نظام خاص بالاتفاق مع دولته<sup>(٣)</sup>. غير أن حلب لم يكن لها مجرد وظيفة قيادية على صعيد التجارة الداخلية للدولة العثمانية ، وعلى صعيد التبادل التجاري بين هذه وأوروبا فقط ، بل شكلت أيضاً من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر الميلادي مركزاً تجارياً مهماً على صعيد التجارة<sup>(٤)</sup>.

## ب تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر:

استثمرت الجاليات الأوروبية في ممارسة نشاطها التجاري ، باستيراد المنتجات من بلادها الأصلية وتصدير ما تحتاجه بلادهم من المشرق العربي ، وفيما يلي سيتم التعرف على طبيعة تلك التجارة:

تجارة البندقية: توفقت جمهورية البندقية في تجارة المشرق بسبب تحكمها بالملاحة في البحر الأبيض المتوسط. وتنعاً لذلك تم الانشغال الفعلي للصائغ من يد التاجر الأوروبي إلى يد التاجر الشرقي ، أول ما تم على أراضي الشرق الأدنى وفروع الشركات الأوروبية في أرمير وحلب والإسكندرية<sup>(٥)</sup>.

كانت البندقية من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين أعظم دول البحر المتوسط تجارياً ، وغدت مليكة بحر الأدرياتيك وسيدة بحار الشرق ، فقلعت طيلة تلك الحقبة أقصى درجات العلى

(١) الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ١ ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩

(٢) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ١ ، المرجع نفسه ، ص ٣٥ .

(٣) - طريش ، أحمد المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٤) غاوية وفيرت للمرجع السابق ، ص ٦٠١ .

(٥) غاوية وفيرت للمرجع نفسه ، ص ٢٣ - ٢٤

والرخاء. ولقد تصافرت أسباب عدة في تكوين تلك العظمة العريضة ، غير أن سبباً من هذه الأسباب يسترعي في البداية نظر المؤرخ ألا وهو نمو الحيدة لاقتصادية نموً عظيماً وازدهار تجارة البندقية<sup>(١)</sup>.

وبطراً لأهمية حلب كان البنداقية أول من أقام فيها، ففي عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م كان يقطن حلب ما لا يقل عن ١٤٠ / عائلة من البندقية ، بالإضافة إلى عائلة العنصل وكانو يستخدمون حمس أو ست سفن سنوياً. وكان حجم تجارتهم يتراوح بين مليون ومليون ونصف من الذهب سنوياً ، حيث ترسل من البندقية في حمصة أو ستة لاف قطعة من قمائن الصوف ، ونفس الكمية تقريباً من الحرير والبروكار، وكمية كبيرة من الفرمر (صباغ أحمر فاتح) وما تبقى من أدوات المائدة الفضية أو الذهبية وكان العائد يتمثل في الحرير والتبنة (صباغ أزرق) والبهارات والصنق الحلبي<sup>(٢)</sup>.

وكانت البندقية تأتي إلى حلب بصنائع بقيمة / ٣٥٠,٠٠٠ / دوقة ذهبية، وإذا اعتبرنا الدوقات البندقية<sup>(٣)</sup> / ٤٨,٧ / فرك ، وبالتالي قيمة بصائع البندقية تعادل / ٢٦١٨٠٠ / فرك وكانت البندقية تصدر من حلب بصلع تقابل قيمة الواردات التي تدخل حلب.

ولذلك ظلت مستحات البسقية الرائجة تقليدياً في تجارتها مع حلب هي: الورق والسيح الفاجر ، والعقاقير الطبية والمراب واللؤلؤ الزجاجي المسمى كوربيولة ، والقنديل والإبر والندابيس ومنتجات معدنية أخرى ، كانت البندقية تشتريها من ألمانيا وتفايصر بها المشرق لتحصل مقابلها على القهوة والتبغ ، والتوابل والحشيش ، والأقمشة الصوفية والفضية ، وكان القطر السوري هو التجارة الرائجة في حوص المتوسط<sup>(٤)</sup>.

وكانت البندقية تشكل المحطة المهمة من محطات دورة دولية للبصائع ، وطريق التوابل الآتية من مرافئ الهند البعيدة ، وكانت تحمل الفلفل ورهر الفرع والمسوجات الفاخرة في بطن السفينة ، وعلى ظهور الجمال عبر رحلة بين البحار والصحارى ، حيث كانت حمولات من الأرز والحرف الصيني تُرد من البعال ، والفلفل الأسود وجور الطيب من بنافيا ، (الاسم القديم لاندونيسيا) ، والفلفل من سيلان والفروسة من كوشين ، والألوي وحشب الصندل المعطر من ما هي ، واللؤلؤ من البحرين لقد كانت سفن التجار العرب والفرس والهند تصعد الخليج العربي حتى تصل إلى ميناء النصرة ، وكان يصل عدد قوافل الجمال في القرن السابع عشر حتى عشرة آلاف دابة محملة بالبصائع ، ويتوقف في بغداد قطار طويل من التسم

(١) - دين المرجع السابق ، ص ٢٧

(٢) - راسر ، الكسندر وباريك، تاريخ حلب الطبيعي ، ب. خالد الجبيلي ، شعاع للنشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ١٩٩٩ م ، ص ٢٥١

(٣) - الدوقات البندقية نقد ذهبي عيار ثقل يهرب من أربعة وعشرين قيراطاً ، وهو يسب إلى جمهورية البندقية التي بدأت في صرته عام ١٢٥٠ م

(٤) - كوستانتيني ، هير؛ المرجع السابق ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩

المترجحة المهادية لتصل في نهاية المطاف إلى سورب. وكانت حلب وقتها ، إحدى أكبر وأهم محطات التبادل التجاري في حوض المتوسط بأسره (١).

وحفاظاً على العلاقات الودية والتجارية بين السلطنة العثمانية وجمهورية البندقية ، صدر فرمان سلطاني من الباب العالي موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، من أجل استيفاء الرسوم الجمركية عن البضائع التي ترد إلى موافئ السلطنة العثمانية من تجار جمهورية البندقية ، ويطلب الفرمان بالعمل على التعهد والالتزام المسموحين ليعتمد الجمهورية بالأساتنة، فلا يجوز مخالفتها، ويطلب أمناء الجمارك في حلب وبسكندرية وفي أطرافها من الأسماء والعمال بخصوص السفن الخارجة للتجارة ببضائعهم ، واستيفاء الرسوم عن بضائعهم المقرلة فقط ، وعدم استيفاء الرسوم عن البضائع غير المبدعة. وذلك لأجل الاستمرار بالصدقة القديمة مع تجار البندقية (٢).

وهكذا ازدهرت تجارة البندقية في بلاد المشرق التي فتحت أبوابها لتجارها ، واستمرت لفترة طويلة من الزمن ، وتعرضت لصعوبات جمة ، وخصوصاً من خلال العلاقات المتوترة غالباً بين البندقية والسلطنة العثمانية ، والتي ألقت بطلانها على مسيرة العمل التجاري لتجارة البندقية. ولذلك انخفض عددهم وبالتالي نشاطهم التجاري حتى شاعت الأقوال أن تصع بفضة النهاية لجمهورية البندقية ، كدولة مستقلة في أواخر القرن الثامن عشر ، لتصبح جزءاً من الوحدة الإيطالية ، محبطة من خلال تجارها ومعاملاتهم التجارية بذكريات طيبة عن المشرق عامة وولاية حلب خاصة ، كونه كانت المحطة الرئيسية لتصدير بضائعها إلى بلادها الأصلية

تجارة فرنسا: أصبحت سورب في مطلع القرن السادس عشر عدة ولايات ضمن السلطنة العثمانية ، ولم تشكل وحدة إدارية ضمن ولاية عثمانية واحدة ، وتأثرت بالاتجاهات الاقتصادية التي بدأت توجهها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية بشكل عام ومع فرنسا بشكل خاص ، إذ أحدثت هذه الدول وعلى رأسها فرنسا نتجه بأنظارها نحو الدولة العثمانية ، فهيمن التجار الأوروبيون دخل السلطنة العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المصمار ، وشكلت سورية أحد المحاور في هذا المجال (٣).

والابتداء الحقيقية للعلاقات التجارية بين فرنسا والمشرق بعد توقيع اتفاقية ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م بين فرانسوا الأول وسليمان القانوني ، وأقيمت جاليات في إسطنبول عام ٩٥٧ هـ / ١٥٥٠ م ، وأسست قنصلية

(١) - كوستانيني ، قبرا المرجع السابق ، ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٢) - الفرمان رقم ١٦٣ / تاريخ الفرمان (١١٩٢ هـ) ، من السجل / ١٤ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - رجائي المرجع السابق ، ص ٣٤

فرنسية في حلب ٩٦٨ هـ / ١٥٦٠ م في خان الحلال ، وكانت سابقاً في خان الجمرك ، حيث نقلها  
الفصل الفرنسي دارفيو عام ١٥٩٢ هـ / ١٦٨١ م ، وكان فيه آنذاك / ٨٠ / تاجراً فرنسيًا<sup>(١)</sup>.

وقدر الفصل دارفيو في عام ١٥٩٤ هـ / ١٦٨٣ م قيمة ما استوردته فرنسا من البضائع الحلبية  
بمليون ليرة، في حين وصلت تجارة الإنكليز إلى ستة ملايين ، وفيما بعد تقلص الحجم الإجمالي للتجارة  
الفرنسية إلى أربع مائة ألف ليرة فقط عام ١١١٢ هـ / ١٧٠٠ م ، وجاء هذا الانخفاض في النشاط التجاري  
الفرنسي في حلب نتيجة واصحة لشروط عدة ، كان أهمها:

الوجود المتزايد للحريز الإيراني في إسطنبول.

عادة انتشار التجار الفرنسيين سحياً للاستثمار في السوق اللبنانية.

عدم قدرة الأجواح الفرنسية على منافسة الإنتاج الإنكليزي لدى المستهلكين الحلبين<sup>(٢)</sup>.

وفيما بعد نهضت التجارة الفرنسية من كبوتها، وعادت إلى النهوض من جديد. وتمكن سفيرها  
المختصر المركيز دي هيلوب الذي أوفد من قبل الملك الفرنسي لويس الخامس عشر من الحصول على  
امتيازات كبيرة في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ، حيث منحت الحرية للتجار الفرنسيين الذين يتجرون  
بأموالهم وأمتعتهم على مراكبهم ، في موانئ مدن السلطنة ، ويتحولون دهاياً وإياباً بكامل الثقة والأمان ، ولا  
يجوز لأحد اعتراضهم أو إزعاجهم<sup>(٣)</sup>. ونصت المعاهدة في أحد بنودها على حرية تجار فرنسا في شراء  
البضائع ، ولا يجوز لأحد إجبارهم على شراء ما لا يرغبون به<sup>(٤)</sup>.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر بلغت تجارة السيج الكتاني في حلب ذروتها ، حيث بلغت  
مليون ليرة ما عدا فترة الحروب ، وقد مثلت تلك النسبة بين عامي ١١٨٠ - ١١٨٦ هـ / ١٧٦٦ -  
١٧٧٢ م ( ٨٠,٨١ % ) من مجموع البلدان المصدرة للنسيج ومن هنا يلاحظ بأنه كان للمشرق دور مهم  
وكبير في إنتاج وتطوير صناعة القطن في أوروبا ، فلقد كانت حلب بالنسبة إلى مرسيليا الهند الغربية أو  
الجارة للمتوسط<sup>(٥)</sup>.

وبذلك تكون مكانة حلب بصفاتها مركزاً لإنتاج الأقمشة تنعكس في نشاط التجارة الخارجية للمدينة  
(حلب) ، ولأخذ صورة عن هذا النشاط يكفي ذكر أرقام تجارة حلب مع مرسيليا المعروفة بشكل جيد  
والمشهورة بأهميتها ، فخلال القرن الثامن عشر، كانت صادرات حلب من الأقمشة ، لاسيما القطنية منها،

(١) - حجاز قنصلية دار بوحدة ، المرجع السابق ، ص ١٨٩

(٢) - ماسنير المرجع السابق ص ١١١

(٣) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : للمرجع السابق ، البند / ١٩ /

(٤) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / : للمرجع نفسه ، البند / ٢١ /

(٥) - Kakum Fukasawa, toilerie of commerce ed levant ed CNE ١٩٨٢ p ٢٦ . ٢٨

حصلت على هذا المرجع من طالب دكتوراه فرنسي التكيف به في القنصلية الهولندية في حلب

نحو مرسيليا ، تزايد بصورة مطردة فوصلت إلى: (٨٥٠٠٠) ليرة في عام ١١١٢ - ١١١٤ هـ / ١٧٠٠ - ١٧٠٢ م ، وإلى (١٣٢٦٠٠٠) ليرة عام ١١٦٤ - ١١٦٨ هـ / ١٧٥٠ - ١٧٥٤ م و (١٦٩٦٠٠٠) في عام ١٢٠٠ - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٥ - ١٧٨٩ م وكانت تمثل حبيد (٤٨,٢٥%) من صادرات حلب ، و (٦٧ % ) من صادرات السليح في المشرق كله ، وبذلك تكون حلب قد قلبت صورة التبادل بين أوروبا والشرق لأسي ، وحرصت نفسها في القرن الثامن عشر بصفتها مصدر للمنتجات المصنعة ، هذه هي التجارة التي تفسر تصخم صادرات حلب نحو مرسيليا التي تصاعت ست مرات من (١٧٠٠ - ١٧٨٩) ، إضافة إلى القيمة الكبرى للحمولات التي تنطلق من الإسكندرونة المرفأ المتقدم لحلب (٣٧٥٧٠٠) ليرة للمركب الواحد حتى أرمير (١٤٨٥٠٠) ليرة حتى مصر . هذه الفعالية الداخلية يجب أن نؤخذ بالحسبان لتقدير نمو حلب في القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>.

وقد تعبردت الأسباب الكامنة وراء النجاح الفرنسي السبي ، إذ أنتجت المصانع الفرنسية قماشاً صوفياً أقل وزنناً ، وأرحص ثمناً ، وأكثر جودة وانقائاً ، مما أشتمل عليه من ألوان راهية ، مما كان من سكان حلب إلا أن فضله على غيره ، وأقدموا على شرائه ، ومن ناحية ثانية استطاع الفرنسيون استعمال المنتجات التي كانت ولا تزال متوفرة في أسواق حلب وخصوصاً الفطر والحريير السوري منها ، وهما منتج كان في طور النمو والازدهار مما ساعد على تعبئة صاعاتهم النسيجية<sup>(٢)</sup> . وتحولت فرنسا بسرعة إلى أهم مشتر للحريير السوري ، وأثبتت غرفة تجارة مرسيليا ، التي أعاد كولبرت تنظيمها من جديد ، جدارتها على الأحص بعد إصلاح ثان في عام ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م كأداة فعالة في هذه العلاقات التجارية الجديدة . وفي تبادلها التجاري مقابل الحريير والحيوط العظيمة السورية ، قامت فرنسا بتوريد الأقمشة والأصعدة والسكر والقهوة ، وبعض المواد المعدنية والآلات المنزلية بالإضافة إلى الحديد والرصاص والعصدير<sup>(٣)</sup>.

ولهذا السبب تمتعت حلب بعلاقاتها التجارية مع فرنسا ، بأفضل ميران تجاري ، ففي عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م بلغت قيمة الصادرات ثلاثة ملايين ليرة ، من أصل القيمة الإجمالية للتبادل التجاري الذي قدر بحمسة ملايين ليرة ، وقيمة الواردات مليوناً فقط . مما يجعل نسبة الصادرات إلى الواردات (١٥) بعد أن كانت (١,١) عام (١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م) أما بالنسبة لميزان التبادل مع بقية الأسواق الأوروبية الذي تتفوق فيه الصادرات على الواردات ، فهو يبين أن قيمة الصادرات أعلى من قيمة الواردات بنسبة الثلث فيما يتعلق بالتبادل التجاري الإجمالي مع أوروبا . حيث تمثل قيمة للمسوجات (٤٨ %) من القيمة الإجمالية

(١) - ريمون ، فدره المنيمة العربية حلب في العصر العثماني ، ت - ملكة ليصر ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٧ م ، ص ٣٠٨ .

(٢) - برونس ، المرجع السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) - غارو وقيوت ، المرجع السابق ، ص ٦٢٧ .

للمصادرات نحو مرسيليا ، وقد رابت هذه القيمة عشرين مرة منذ أوائل القرن ، وإدام أصفدا إليها الحيوط السيجية ، تزداد قيمة القطر المصنع إلى ( ٥٦ % ) من القيمة الإجمالية<sup>(١)</sup>.

وهما يتعلق بالرسوم الجمركية على البضائع الفرنسية ، فقد حدثت السلطة في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م أن يدفع التجار الفرنسيون دائماً رسماً جمركياً قيمته خمسة بالمائة عن البضائع التي يصدرونها إلى السلطة أو يستوردونها منها ، وبما أنهم التمسوا من الباب العالي ، تحفيص هـ الرسم إلى ثلاثة بالمائة مرة عاة لمودبهم القديمة مع الباب العالي ، وأن يدرج ذلك مع الامتيازات الحديثة لذلك استجاب الباب العالي التمسهم وأمر أن لا يؤخذ منهم أكثر من ثلاثة بالمائة<sup>(٢)</sup>.

ويذكر بيزر ريدوفان تعهد السلطة العثمانية منذ عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٤ م على أن لا تتقاضي على السلع الفرنسية أكثر من ( ٥ % ) كرسوم جمركي محدد<sup>(٣)</sup>.

وعندما حاول التجار النهرب من دفع الرسوم الجمركية ، كانت العقوبات وسيلة لردع المحالفين ، وسوق مثلاً على ذلك ما حصل عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م هداما جرى عندما فرصت السلطة رسوم مضاعفة على البضائع التجارية ، التي نقلت عن طريق البر بين حلب وأزمير والماعة إلى الإفريج في حلب ، حيث تبين بأن تلك البضائع نقلت حفية بالسفن دون أن تدفع للرسوم الجمركية<sup>(٤)</sup>.

وعندما برلت الحملة الفرنسية في مصر عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨ م توترت العلاقات الفرنسية العثمانية ، وأصبح المسؤولون في السلطة يتوجسون حيفة من كل فرسي ، وقد قصص على الفرنسيين في ولاية حلب وأودعوا السجن ، وبعد انتهاء الأزمة واسحاب الحملة الفرنسية ١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م حاول التجار الفرنسيون العودة لممارسة أعمالهم التجارية ، فصدر أمر سلطاني يمنح بعض التجار من أتباع القصلية الفرنسية في حلب ، تنقيداً للبروتوكول العائم بين الدولتين واستجابة لطلب المقيم العام الفرنسي ، وافق الباب العالي للتجار الفرنسيين (اليس ديزال - براق ديزال لوراق ديزال) وأربعة من أتناعهم بالتجول بين دمشق وحلب ، والإقامة فيها لتقيام بالأعمال التجارية<sup>(٥)</sup>.

(١) - عماد المرجع السابق ، ص ٧٧٤

(٢) المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، البند / ٣٧ / .

(٣) ريدوفان ، بيزر وجان باتيمنت دوروريل تاريخ العلاقات الدولية ، ت فاير كم نقش ، دار منشورات عويدات بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٧ ، ص ١٠٨ .

(٤) - الفرمان رقم ٣٧٩ / تاريخ الفرمان (١١٥٦ هـ) من السجل رقم ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) الفرمان رقم ١٧٢ / تاريخ الفرمان (١٢١٢ هـ) من السجل رقم ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٩٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

تجارة إنكلترا: تألفت الجالية الإنكليزية في حلب في منتصف القرن الثامن عشر من قصير وشريف وعشرة تجار ورئيس ديوان وسكرتير وطبيب وموظف يدعى جويش ، وكان عدد العائلات البريطانية ثماني عائلات عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م ، وكانت قيمة التجارة السنوية لإجمالية تقدر بـ / ٣٠٠٠٠٠ / نوكات، وكانوا يستخدمون / ٢ - ٣ / بواخر لنقل السلع الأوروبية والشرقية

ولكي تقدم فكرة حول الحجم الكبير للسجّار الذي كان يقوم بها حوالي / ١٠ / بيوتات تجارية بريطانية في القرن الثامن عشر ، يكفي أن نذكر بأنه لنقل السلع من إسكندرية إلى حلب كان يدفع / ٩٠,٠٠٠ / دوقه وهي تعدّ أجرة معتدلة<sup>(١)</sup>.

حيث حصلت حلب على ما يقرب نصف الصادرات المنطلقة من مناطق الشرق إلى لندن ، والتي تولت عليها شركة المشرق الإنكليزية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. ولقد عكس عدد الإنكليز العاملين كوسطاء في المدينة أهمية حلب في تجارة إنكلترا ، إذ أفاد القس الملحق بشركة المشرق في المدينة لإنكليزي هنري موندرييل (Henry maundrell) عن وجود أكثر من أربعين معيماً في حلب من مواطنيه عام ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م<sup>(٢)</sup>.

وعلى مدى القرن الثامن عشر تغير دور حلب الأصلي في التجارة بين الشرق والغرب بصورة جذرية، فأصبحت المدينة سوقاً رئيساً لتبادل البضائع العثمانية والأوروبية ، حيث حافظ الأوروبيون على الفائدة حتى العقد الرمدي الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان الإنكليز مهتمين بصورة رئيسية بسلعة واحدة وهي الحرير ، حيث كان الحرير الإيراني يدع بصورة جيدة في لندن ، أما اللويعات السورية لأقل نفاً والتي جاءت بديلاً له برهت على أنها أقل نجاحاً ، ثم أحفقت في منافستها مع الحرير الإيطالي المنقوق ، أو الحرير الهندي والصيني الأرخص. حفص الإنكليز مشترياتهم من الحرير السوري ، كما أن منتجي الحرير والقطن وعصاة الحر في الزيف استفادوا لعقود رميدة عديدة من الطلب الأوروبي ، والحقيقة هي أن متابعة الحرير من قبل الإنكليز كانت شديدة ، بحيث كانوا بين الحين والآخر يجرّون إلى منافسة مع عمال حرير حول طريقة الحصول عليه ، وعندما كانت أسعار الحرير تصل إلى دروتها في لندن ، كان التجار الإنكليز مستعبرين لشرائه بأسعار لا يستطيع الحرفيون المحليون مجاراتها<sup>(٣)</sup>، مما يؤثر سلباً على النشاط التجاري للتجار المحليين

فعبر حلب بلغ التبادل التجاري عام ١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م حوالي ٥٤% من إجمالي واردات الحرير الإنكليزية ، و بقيمة إجمالية بلغت ٢٥٠٠٠٠ جنيه تقريباً ، ولم يمر ما بين عام ١١٦٩ ١١٧٣ هـ /

(١) سورمايل المرجع السابق ص ٣٦٨

(٢) بروش المرجع السابق ، ص ١١١

(٣) - ماركوس، المصدر السابق ، ص ١٥

١٦٥٦ - ١٧٦٠ م أكثر من ٣٧ % فقط ، ولم يصل ذلك ما بين عامي ١١٨١ - ١١٨٨ هـ / ١٧٦٧ - ١٧٧٤ م إلا إلى ١٦ % فقط. بقيمة إجمالية بلغت ٥٠.٠٠٠ جنيه تقريباً<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني في الأستانة موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، لتحويل الأموال العائدة عن البضائع المصرية من ميناء إسكندرية إلى إكثرا (حرير - جلود - هراء - رصاص) ، وذلك حسب التعرفة الموضوعة بهذا الخصوص<sup>(٢)</sup>.

ورفع المقيم العام الإنكليزي بالوكالة في الأستانة (أنطونيو هيس) كتاباً يفيد فيه ، أن الملحق التجاري الإنكليزي في مدينة حلب شكاً إليه في النجار والسمايرة الذين يشترون القطن من مدينتي كلس واصله ، بعمول من قبل الملتزم خلاف التعليمات السلطانية ، رغم أن الأوامر بهذا الخصوص تقتضي أولاً دفع الرسوم الجمركية لنقل البضائع من ميناء إسكندرية وتحميلها في السفن.

إلا أن الملتزم في المنطقة مصطفى آغا، ابتدع بدعة جديدة وأصاب إلى الرسوم المعنقدة ثلاثة قروش ، رسم يدفع عن كل قطار يؤخذ من مشتري القطن من أتباع الإنكليز ، وحال دون نقل كميات القطن من ميناء إسكندرية إلى السفن ، وذلك بتهديد المستخدمين ، حيث تم إعلام قاضي حلب ، ولذلك أصدر الباب العالي قراراً بدفع / ٢ / أقة<sup>(٣)</sup> قيمة كل أوقية من القطن الممتد ، وأقحة واحدة عن كل لوقية من القطن العادي. وترك الحرية لتجار إكثرا وأتباعهم في إجراء المشتريات من القطن والاقتصار على أحد (٣%) كرسوم جمركي دون زيادة<sup>(٤)</sup>.

وكانت إكثرا تصدر إلى ولاية حلب ١١٥٤ هـ / ١٧٥٠ م بعض أنواع الحرير والذهب والمحمض ، يحمل من موانئ إكثرا إلى حلب عن طريق ميناء إسكندرونة. وصدر فرمان سلطاني لتحويل الرسوم عن تلك البضائع وإرسالها إلى بيت المال في الأستانة<sup>(٥)</sup>.

(١) - غاوية وهيرت: المرجع السابق ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) - العثمان رقم / ١٩٧ / تاريخ الفرمان (١١٨٢ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الأقة. وهي أصغر وحدات العقود العثمانية ، ووردت غالباً بصيغة أحشا في بعض المصادر ، وبخاصة في المصادر المصرية ، وهي كلمة تركية معناه القوي الصارب إلى اليابس ، صرّبت من قبل أوران عام ٧٣٩ هـ / ١٣٢٨ م انظر محمود عامر المكايين والأوراس والقود ، مطبعة فيز حيس ، دمشق ، ١٩٩٧ م ، ص ١٨٢

(٤) - العثمان رقم / ٢٦٢ / تاريخ الفرمان (١١٨٩ هـ) من السجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - العثمان رقم / ٢٤٢ / تاريخ الفرمان (١١٥٤ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق



وكانت السلطة العثمانية حريصة على استمرار العلاقات التجارية الجيدة بينها وبين إنكلير ، للمحافظة على المكاسب الاقتصادية لكلا الطرفين ، ومما زاد في فوائد التجارة البريطانية مع العثمانيين العداء المستحكم آنذاك بين العثمانيين وفرنسا في أعقاب حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام ، كما أن القوة البحرية الكبيرة لبريطانيا مكنتها من فرض ما يشبه الاحتكار على التجارة الدائبة مع بلاد المشرق ، فعند المصدر الرئيس للصناعات المصنعة ومنتجات المستعمرات البريطانية<sup>(١)</sup>

كما أصدرت السلطة العثمانية فرماً ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م يأمر بعدم التعدي على التجار الإنكليز المستوردين والمصدرين لبصائعهم ، وفق المعاهدة المعهودة مع إنكلترا ، وصدر هذا الفرمان بسبب عريضة رفعها إلى الباب العالي المعتمد المقيم الإنكليزي بارون هيربرت رانكال ، يعرب فيها بأن رعيته من الأجانب المستوردين للبصائع والمصدرين لبيعها هم أحرار سلع وشراء بصائعهم ، ولا يحق لأحد التعتري عليهم<sup>(٢)</sup>.

وكذلك صدر فرمان آخر ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م أجل استرداد الرسوم الجمركية المدفوعة مكررة في ولاية حلب من قبل بعض تجار إنكلترا عن بصائعهم ، حيث أن المدعو (جان بومن) الناجر الإنكليزي الذي كان لديه أنواع متعددة من البصائع ومنها (٧٠) ساعات يد وصفت داخل صندوق صغير لأجل بيعها في جزيرة قبرص بعد أن دفع عنها الرسوم الجمركية ، ولكن بعد التفتيد لم تبع هذه الساعات فرجع بها الناجر المذكور إلى حلب مزوداً بالتذكرة وإشعار تأدية الرسوم ، ولكن محصل حلب لم يقبلها لمخالفتها للتعهد السلطاني ، وقد استوفى الرسوم مكررة وبطريق الإراغم ، لذلك يجب على والي حلب استرداد الرسوم المكررة وإعادتها لأصحابها<sup>(٣)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، بشأن السفر التجارية الإنكليزية المحملة بالبصائع من (حرير وصوف) والمارة عبر موانئ السلطنة لبيعها ، وقيل نقلها للأرياف ، حيث تدفع عنها الرسوم الجمركية ، ويعدّها يصار إلى بيعها ، ولكي لا تطلب منهم رسوم جمركية مرة أخرى بناء على التعهد الحظي المعطى لإنكلترا ، علماً أن البصائع الجاري بيعها بالأرياف بعد استيفاء رسومها الجمركية ، وأم البصاعة التي لم تخرج من السفينة فلم يستوف عنها الرسوم ، فإذا استوفيت تكون مكررة ، وتكون مخالفة للشروع ومداخلة للقواعد التجارية ، لذلك على أماء الجمارك استيفاء الرسوم الجمركية فقط عن الأمتعة

(١) - حوري ، جورج. المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على إمبراطورية العثمانية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع ٤١-٤٢ ، ١٩٩٢ م ، ص ٩٠

(٢) - الفرمان رقم / ٧٧ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧ - ١٨ ، دار الوثائق التاريخية للناحية دمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٥٠ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٤٣ ، دار الوثائق التاريخية للناحية دمشق

المفرجة بعية بيعها ، لذلك تطلب الابتعاد وعدم التعتري على التجار وعدم المطالبة بالرسوم عن البصائع غير المصاعة<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني حدد الرسوم الجمركية عن البصائع المستوردة من إنكلترا ، والتي كانت تباع في الأرياف لولاية حلب ، ولذلك يجب أن تطبق لأنظمة للبصائع المستوردة من الدولة المذكورة ، والحاصلة برسوم تحميط القهوة وحبوط الزهر ونقبة الأصناف المختلفة من الصانع التي يباع قسم منها في الصواحي والأرياف لولاية حلب<sup>(٢)</sup>.

ومن أجل تشجيع التجارة الإنكليزية في أراضي السلطنة العثمانية أصدرت السلطنة ، أمراً سلطانياً بتحقيق التعرفة الجمركية عن البصائع المصدرة (قطر - جلود مدبوغة) من ولاية حلب إلى إنكلترا بواسطة التجار الإنكليز<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً استمر التجار الإنكليز بمراقبة ورصد وصبط أسعار التوابل والبر في حلب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، وبقي الحرير ، سواء كان إيرانياً أم سورياً ، هو السلعة الأساسية التي تمحورت حولها مصالح التجار الإنكليز في أسواق المدينة ، حيث كان يتم انتفاع بسلع متفرقة أخرى متجدة محلياً كالحرير الحام والحبوط القطنية المستعملة في العزل والسجج إضافة إلى العصاة الحوزية المستعملة من كرستان<sup>(٤)</sup>.

تجارة هولندا: كان الهولنديون يملكون أسطولاً تجارياً مهماً ، ولديهم مدن تستقطب التجارة الأوروبية مثل أمستردام وروتردام التي أصبحت مركزاً عالمياً للتجارة بعد اكتشاف البحيرة ، وكان أسطولها بحمولة / ٧٠٠ / طن ينقل الجوج ولأندس في بحر الشمال والمحيط لأطلسي ، فقد جذبت تجارة الشرق هولندا إلى السواحل الشرقية للمتوسط ، وكانت سعيهم تعمل تحت الراية الفرنسية في القرن السادس عشر ، واندفع الهولنديون إلى إسبانيا ، وطلبوا العمل تحت الراية البريطانية ، وأسست شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢م / ١٥٩٤م وشركات أخرى ، وبعد انتصار الأسطول الهولندي على الأسطول الأسباني في عام ١٦٠٦م / ١٦٠٧م وقد إلى إسطنبول (كورسيلوس فان هاجا) عام ١٦٢١م / ١٦١٢م ليبدأ لدولته

(١) - الفرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - الفرمان رقم / ١٨٦ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٢ - ١٧١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ١٩٤ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - برونس المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

امتيازات مماثلة، لما حصلت عليه فرنسا وإكلترا والندقية ووفق في ذلك ، ولقد لعب الهولنديون دوراً مهماً في حركة النقل التجاري مع الشرق ، وخاصة تجارتها مع الشرق الأقصى<sup>(١)</sup>

وحصل السفير الهولندي جوسنفوس كولير على امتيازات من السلطنة العثمانية ١٠٩١هـ / ١٦٨٠ م ، على الصعيد الاقتصادي سمحت الامتيازات بحرية النقل للتجار ، وكذلك الحق بدفع تعريفة جمركية مناسبة. وقد نصت المادة / ١٢ / على أن (تدفع على المنتجات التي يحملها التجار الهولنديون ، والتي يشترونها بداء على طلب مجلس الطنقات / ٣ % / صربية جمركية لا أكثر ، في حلب والإسكندرية والأماكن الأخرى)<sup>(٢)</sup>

ويمكن التمييز بين صنفين من المنتجات المتبادلة بين سورية العثمانية وهولندا ، فالمنتجات التي تؤخذ من قلب السلطنة العثمانية (الكتان والصوف والقطن و الحرير والصوف المعزول من وبر الماعز والحبوب). أما المنتجات التي ترد من بعيد (التوابل والنهارات والعصا وأقمشة الحرير) ، بينما يصدر العثمانيون إلى هولندا وبشكل رئيس (الحرير والفطر والصوف والمسوحات الأخرى) وكان الهولنديون يأتون بالفولاذ والسحاس وملح البارود والسيوف والبارود وبعض القطع الفضية.

ولقد شكلت التوابل تجارة مهمة بين آسيا وأوروبا ، فهي ضرورية للأطعمة ، وحلب تشغل مكانة مهمة في هذه التجارة، إذ أنها تقع على الطريق البرية بين آسيا والبحر المتوسط ، وتستخدم كمحزن للعديد من التوابل المستوردة من الهند. وكذلك النسيج ، إذ نفيت دمشق طويلاً المنافس لمدينة حلب ، ولكن بهصة تجارة الحرير بين الشرق والعرب وأهمية دمشق البعيدة كثيراً عن مراكز الإنتاج قلصت هذه المنافسة ، وأصبحت حلب السوق الرئيسية للحرير بالنسبة إلى أوروبا<sup>(٣)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني موجه إلى والي حلب من أجل بيع الحرائر والأجواح العائدة للترجمان الهولندي التابع للقنصلية الهولندية في حلب ، وذلك لتسديد دين على الترجمان المذكور وتوزيع أثمانها على الدائنين<sup>(٤)</sup>

والمهم التأكيد على جلب واستيراد الحرير من الشرق وتصديره بواسطة التجار الهولنديين ، ومنهم ترجمان القنصلية الهولندية.

(١) حجاز قنصلية دار بوحة بحلب، المرجع السابق ، ص ١١٩.

(٢) - للمدرس' المرجع السابق ، ص ٢٤

(٣) - للمدرس للمرجع نفسه ، ص ٤٥

(٤) - للمدرس رقم / ٩٧ / تاريخ الفرمان (١١٧٨ هـ) من السجل رقم / ٦ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٦٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وكذلك صدر فرمان سلطاني اخر عام ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م موجه من الباب العالي إلى المسؤولين في ولاية حلب، للطلب من القنصل الهولندي لتسليم كمية من الحرير موجودة لدى التاجر أحسان التابع للعنصلية الهولندية، حيث أودعها عند التاجر المذكور الحاج موسى آغا راده قبل وفاته، والمطلوب تسليم كمية الحرير إلى ورثة الحاج المتوفى<sup>(١)</sup>.

كان الفطن كما الحرير المنسج المطلوب كثيراً في حلب من قبل تجار هولندا، يأتي عندهما الصوف والموهر تلك كانت المنتجات المرغوب بها من الهولنديين، وأصبح التجار المذكورون يصدرون نحو الدولة العثمانية لأغطية والشراشف والألبسة الصوفية الرفعة (لاكن) ومنذ عام ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م، بدأ تصدير هذه الألبسة إلى أرمير وحلب بمعدل ستة آلاف قطعة كل عام.

واستمر وجود التجار الهولنديين في حلب، ومن أبرزهم دانييل بومستر ورميه جن حكوب وفان ليدرغن وهانريك إبراهيم هيرمان، وكانوا يقومون بالمهام العنصلية.

وكان شركة فان هيمسكرك، ماسيك وشركاه، في نهاية القرن الثامن عشر وجود مزدهر في حلب<sup>(٢)</sup>.

إلا أن هجوم الفرنسيين على مصر عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٨ م أثر سلباً، حيث هجمت السفن الفرنسية أساطيل تجار هولندا، واستولت على حمولتها. الأمر الذي راد من أحوال التجار الهولنديين سوءاً، وببء على ذلك طلب المقيم العام لجمهورية هولندا قطع العلاقات مع السلطنة العثمانية مؤكداً على استمرار الصداقة بين الدولتين. لذلك انسحب تجار هولندا من حلب<sup>(٣)</sup>.

وبعد استعراصا لتجارة الجاليات في ولاية حلب من خلال المصادر والمراجع والوثائق التاريخية، لوحظ كيف بدأ جلياً اهتمام الأوروبيين بالتجارة مع أهم ولايات السلطنة العثمانية، وكيف تطورت التجارة الفرنسية مستفيدة من تطور العلاقات السياسية بين السلطنة وفرنسا، من خلال توقيع معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م وتوسيع تجارة الفرنسيين، كما تطورت تجارة إكلترا وهاست فرنسا، فكانوا يشتررون الحرير بكميات كبيرة، ويجدون تسهيلات وسعة لتصريف منتجاتهم، التي كانت تتمتع بنوعية أفضل من المعسوجات الفرنسية.

أما المندوبة فكانت أوصعها مصطرية بسبب علاقتها غير المستقرة مع السلطنة، ورغم ذلك مارست عملها التجاري عبر جالياتها في ولاية حلب، واستمرت في ذلك إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث انتهى

(١) الفرمان رقم / ٩٥ / تاريخ الفرمان (١١٨٢ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٧٢، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - للموسس، المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) الفرمان رقم / ١٠٦ / تاريخ الفرمان (١٢١٣ هـ) من السجل رقم / ٢٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٧٨ - ٧٩، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وجوده كسولة مستقلة، وانضمت إلى الاتحاد الإيطالي. أما التجارة الهولندية فكانت تشبه التجارة البندقية في حالة عدم الاستقرار، حيث كان اهتمام الهولنديين بالدرجة الأولى ممارسة العمل التجاري مع أردير. وكون حلب مركزاً تجارياً كبيراً فقد استمر وجود التجار الهولنديين الذين كانوا يستوردون الحرير الخام والمسوحات الحريرية بكميات كبيرة إلى جانب سلع أخرى.

### ج التبادل التجاري:

انطلق الأوروبيون يجوبون البحار والمحيطات بحثاً عن منتجات الشرق، عبر مسالك وطرق عديدة، وكان البحر المتوسط واحداً منها، حيث دفعت الثورة الصناعية التي حدثت في أوروبا في القرن الثامن عشر، وطول القرن التاسع عشر للبحث عن أسواق لتصريف البضائع الأوروبية المصنعة، وكذلك البحث عن المواد الأولية اللازمة للمصانع الحديثة، فأصبحت المواد الخام الزراعية في المصانع وصار استهلاكها لتلك المواد يريد الطلب عليها لذلك فالثورة الصناعية الأوروبية تعدت من قارات آسيا وأفريقية وأمريكا اللاتينية، وكانت حلب من أهم المحطات التجارية مع أوروبا.

وفيما يلي سألقي الضوء على أثر ما حملته الحاليات لأوروبية إلى أوطانها من ولاية حلب. وعلى كل ما استوردته من أوطانها لتورعه في أماكن إقامتها وممارسة نشاطها التجاري.

**صادرات ولاية حلب:** تعتبر منطقة حلب من أشهر مناطق زراعة العسقل في العالم، وقد سبب إليه وعرف بالعسقل الحلبي، وأنتجت حلب أشهر الأصناف وأجودها نمياً، وعدت الإقليم المثالي لزراعة هذه الشجرة، وتذكر المصادر أن حلب كانت تصدر العسقل، وكان غالي الثمر خارج حلب، لذلك كان الأغنياء يقطعونهم القديرون على شرائه، أما الأوروبيون فكانوا يشحونه عن طريق البحر إلى بلادهم، حيث كان يباع بأسعار مرتفعة في أوروبا<sup>(١)</sup>.

وكانت السلطة العثمانية مهتمة بهذا المحصول كثيراً، لذلك أصدر الباب العالي فرماً يقضي بقطف ثمار العسقل من سائين حلب وإيداعها بالمستودعات، وبيعها للتجار لأجانب بعد تجهيقها مع استيفاء الرسوم الجمركية عنها<sup>(٢)</sup>.

(١) ريويد المرجع السابق، ص ١٥١

(٢) - العثمان رقم / ١٩٢ / تاريخ الفرمان (١١٩٦ هـ) من السجل رقم / ١٦ / بلاوامر المصطنانية بولاية حلب، ص ١٥٠، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وفي عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١م وصمم لأوامر السطانية ، برصد كتاباً لفاضي حلب يذكر فيه عن صدور الأمر المتضمن كيفية تحمين محاصيل ثمار الفستق في بساتين حلب ، وبيعها للتجار الأجانب واستيفاء الرسوم الجمركية عنها<sup>(١)</sup>.

وتعد صناعة الصابون واحدة من الصاعات التقليدية ، التي اكتسبت سوقاً واسعاً في المناطق التي ترتبط اقتصادياً بحلب ، وحلت المعمل الكبيرة التي تملك قدرة إنتاجية عالية ، محل المشغل الصغيرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. وبعض المعامل السبعة التي عدها روسو في بداية القرن التاسع عشر ، قد نبت في القرن الثامن عشر ومنها مصنعة الزبابي ومصنعة الجبيلي ، ثم ازداد عدد المصانع في القرن التاسع عشر ، الأمر الذي يؤكد نشاط هذه الصناعة<sup>(٢)</sup>.

وشكلت صناعة الصابون ركناً أساسياً في تجارة حلب وبتجارتها الصناعي ، وخصوصاً الصابون الذي تصدره سورياً إلى أوروبا والذي قدر ثمنه / ٢٠٠٠٠٠ / ذوقاً أو ما يساوي مليون ونصف من الفريكات. وكانت أشجار الزيتون منتشرة في سوريا وريتها الأساس في صدعه الصابون، وكان مركز زراعته بظاهر حلب وإنتاجية<sup>(٣)</sup>.

ولقد عرفت حلب صناعة النسيج ، فهي صناعة موزعة في القدم ، وقد انتشرت هذه الصناعة وبالدات النسيج اليدوي ، الذي داعت شهرته داخل سوريا وخارجها بسرعة كبيرة ، لما تمتعت به من سمعة جيدة وجمالية وجوده ومثله، وقد مارس سكان حلب سناء ورجالاً ، هذه الصناعة في القيساريات ودخل البيوت السكنية ، وأقل وجود قيسرية أو بيت دور نول أو بولين يدويين ، فتحويت حلب إلى مصنع لصناعة النسيج اليدوي<sup>(٤)</sup>.

و يؤكد العزي ذلك ويقول " كن في حلب بحر حمسة عشر ألف نول تحاك بها الأقمشة القطنية والعريية المعروفة بالألأجة ، والحريرية المعروفة بالجارا ، والمقصصة المعروفة بالمسيخ والنوابطو وشغل والداسقو (الدمشقي) وتقليد الشال العجمي والأزر الحريرية المقصصة ، والملاحف المتنوعة الحريرية المقصصة والعريية الموشاة، والمسايل الحريرية المقصصة المعروفة بالوشية. وكان يلزم لتشغيل كل نول منها ما لا يقل من أربعة أشخاص من الصدع والعملة ، مابين حائك ومسد وصياغ وفنال ودقاق ونطاف وقصار وصفال. ولا جرم أنه كان ينتج منها سنون ألف نسمة م بين عني وفهير وكبير وصغير وذكر وأنثى".

(١) - الغرمان رقم / ١٩٥ / تاريخ الغرمان (١١٩٦ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوامر السطانية لولاية حلب ، ص ١٥٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - ريمون- المرجع السابق ، ص ٣٠٦

(٣) - الحصري للمرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٥٧.

(٤) - العادري، مطبع صناعة للنسيج اليدوي بحلب، اقتصاديات حلب، العدد / ٢ / دار للفواء لطباعة حلب، ١٩٩٣ م، ص ٤٩ - ٥٠

و اشتهرت حلب أيضاً بصناعة النظير والبركشة ، كما اشتهرت بصناعة الجارة والدباغة والحدادة والصابون وصناعة القاشي<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فإن وتيرة تطور إنتاج السيج لم تكن واضحة في القرن الثامن عشر ، ولكن الإنتاج نفسه في أواخر ذلك القرن أصبح كبيراً ، فلما وجد في حلب / ١٢ / سوقاً شعبية كانت تعطى تجارة لأقمشة والمنوسات ، فوفقاً لمختلف التقديرات كان في حلب ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف آلة نسج<sup>(٢)</sup> . ولهذا فهي القرن الثامن عشر لم تكن حلب مركزاً مهماً لتجارة العنبر فحسب ، بل كانت من أصحح المراكز التجارية الحرفية في الشرق ، لا سيما في مجال إنتاج الأقمشة المعدة للتصدير إلى الأسواق الخارجية<sup>(٣)</sup>.

ولقد بقيت البلاد الأوروبية حريصة على شراء المنتجات الصناعية سيلاد الشامية قروناً عديدة ، وبقيت الأسواق الأوروبية حريصة للحصول على مسوجاتنا حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ويدل على ذلك الوثيقة التاريخية المهمة التي تملكها شركة العزل والسيج في حلب ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨ م ، وهي عبارة عن " بوليصة شحن " نصمت شحن كميات من العزل والسيج والحريز ومصوغات النحاس<sup>(٤)</sup> وهذه الوثيقة المنصمة شحن بصانع سورية من إسكندرونة إلى أوروبا عام ١٢١١هـ / ١٧٩٨ م ، تدل على اعتماد الأسواق الأوروبية حتى أوائل القرن التاسع عشر على الصناعات السورية ، وأهمها العزل والسيج والحريز والنحاس

ومن جهة أخرى استمرت تجارة الحريز وصناعته بحلب طيلة الفترة المملوكية ، وحافظت على هذا النشاط في العصر العثماني خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين من الحكم العثماني ، بسبب قربها من لأدصور ، كما حافظت على مركزها المتميز كمحطة مرور بين أوروبا من جهة ، وإيران والشرق الأقصى من جهة أخرى ، ولعل غنى حلب بالأسواق والحديث التي تقوم على تسويق الصانع وشحنها دليل على ذلك ، وكانت التجارة الحلبية كما ذكرنا سابقاً تأخذ طريقها إلى أوروبا عبر مباء الإسكندرونة ومباء طرابلس الشام ذهاباً وإياباً<sup>(٥)</sup>.

ولذلك برعت حلب في تقصيب الحريز وتاجرت به مع أوروبا ، التي كانت تغلب على شرائه نظراً لجودته أو لرخص أسعاره بالمقارنة مع أسعار الحريز الذي كان يجلب من أواسط آسيا

(١) العري المصنوع السابق ، ج ١ ص ٩٦ - ٩٧

(٢) - عمادة المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٣) سكايب : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٤) - الفسلي ، محمد سعيد وآخرون قاموس الصناعات الشامية ، ط ١ طائر القمبي ، دلو طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ٣١

(٥) شعب شوقي حلب وجزاه الحريز وصناعه في المهندسين المملوكي والعثماني ، مجلة الحوليات ، المرجع السابق ، ص ٦٩ - ١٧٠

وأصبحت تجارة الحرير بنكسة كبيرة في مطلع القرن الثامن عشر، بسبب احتلال روسيا في عهد القيصر بطرس الأكبر المناطق المنتجة للحرير في شمال بلاد فارس، فتوقف تدفق الحرير الفارسي إلى حلب وعبرها إلى أوروبا. ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس، واستئناف القتال بين الطرفين في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، حيث سيطر نادر شاه على الحكم وأنهى حكم السلالة الصفوية، وبالطبع كان لذلك أثره الكبير في تحجيم النشاط التجاري بين حلب وأصفهان والخليج العربي وهذا يفسر الأهمية الكبيرة لمادة الحرير في تجارة حلب الدولية<sup>(١)</sup>.

وكذلك أصيبت تجارة الحرير في القرن الثامن عشر بنكسة أخرى، وذلك بإقدام الحكومة العثمانية على فرض صرائف باهظة عليها فكسدت سوقها ولم يعد التجار الإفرنج يشفرون حام الحرير من حلب وبلاد الشام الأخرى، وتقتصرت مشنرياتهم على الأنسجة الحريرية التي كانت أموال حلب يستجها، وبعض مدن الشام الأخرى كالربانير والكوفيات والحي والأطلس والمبروم المحمل<sup>(٢)</sup>.

ولذلك صدر فرمان سلطاني من الباب العالي، نصص بتعليمات عن فرض الرسوم على تجارة الحرير هي أنطاكية، وأمر بملاحقة المتلاعبين بوجهه الفرمان إلى قاضي حلب وواليه لإصدار تعليمات حررية إلى مدير جباية حلب وإلى قاضي إنطاكية، بوجوب نقصي الرسوم عن تجارة الحرير في قصبة إنطاكية وجبايته، التي كانت تعتبر المورد الرئيسي لهذه المنطقة. ومنع التلاعب في دفع الرسوم، كما وقع سابقاً بالحرير المستورد من مقاطعة آل بويه في ولاية حلب، لذلك حذر هؤلاء وأمر المسؤولين بملاحقتهم وجباية الرسوم الجمركية<sup>(٣)</sup>.

ولم تصدر حلب إلى دول أوروبا الحرير فحسب، بل العفص وصوف الغنم الذي صنع الأوروبيون منه الأقمشة التي لا تتحل بالمطر، كذلك الأقمشة الفطية<sup>(٤)</sup>.

وأبرز ما استورده الهولنديون من حلب، الكتان والصوف والفطر والحرير والصوف المعروف من وبر الماعز والموهير والحبوب والمنتجات التي ترد إلى حلب من بعيد، كالتوابل والبهارات والفصصة وأقمشة الحرير<sup>(٥)</sup>.

(١) - رفق عبد الكريم دراسات تاريخية، المجلد السابع عشر والثامن عشر، ١٩٨٤ م، ص ١١٦ - ١١٧

(٢) - غوستاف - تاريخ الحرير في بلاد الشام، مجلة الشرق، للعدد الخامس، ص ٢٨٥ - ٢٨٦

(٣) - الفرمان رقم / ٣٥٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) من السجل رقم ٤ / دلائل السطانية بولاية حلب، ص ١١٦، دلائل الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - نوفل، المرجع السابق، ص ٤٩

(٥) - للمدرس المرجع السابق، ص ٤٤.



وكذلك أصدرت السلطنة العثمانية ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م ، فرماناً لتنزيل التعرفة الجمركية عن الصنائع (القطر والجلود المدبوغة) المصاعة في ولاية حلب ، إلى التجار الإنكليز<sup>(١)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م موجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، ويتعلق بالتعرفة الجمركية التي تؤخذ عن كميات الأقطان المصدرة إلى خارج البلاد عن طريق ميناء الإسكندرية ، وكانت على كل قطر<sup>(٢)</sup> ٤٠ أفجة وقد بلغت الرسوم التي حصلت سنوياً من ولاية حلب ، والمدونة في السجلات السنوية بإيرادات القطر بين ٤٠٠٠ / إلى ٦٠٠٠ / قرشاً منها الرسوم الجمركية التي تؤخذ من التجار الأوروبيين<sup>(٣)</sup>. ومن خلال مبلغ الرسوم الجمركية لمحصلة على صادرات القطر من حلب ، نرى أن حجم الصادرات القطنية إلى أوروبا كان كبيراً ، والتي كانت تحتاجها مصانعها الحديثة كمادة أولية الأمر الذي زاد من أهمية ولاية حلب في أعين الأوروبيين.

واردات ولاية حلب: استوردت حلب بدورها كميات كبيرة من السلع سنوياً ، ومصدر تلك الصنائع كان من ريفها المحاور ومن مناطق أخرى من الشرق ، التي تبعد آلاف الأميال عن أورب العربية تنقلها إلى مدينة حلب الحيوانات المختلفة ، فرادى أو على شكل قوافل لسد ما تحتاجه لإطعام المدينة ، ولتزويد آلاف الحرفيين الموجودين فيها بالمواد الخام ، وكانت حلب بدورها تستورد كميات معتبرة ومتنوعة من بضائع أوروبا، مثل لندن ومرسيل ومستردام وليفوردو والبندقية وغيرها عن طريق موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط كالإسكندرية واللاذقية.

أما الصنائع المصنعة التي استوردتها المدينة من أوروبا للاستهلاك المحلي ، فكانت محدودة كمياً ومتخصصة نوعاً كالألوانق وساعات الحائط وساعات اليد والأدوات المنزلية والأسلحة البارية والمنتجات الكيماوية<sup>(٤)</sup>.

ويذكر العربي أن الإقبال كان شديداً على النسيج ، مما شجع عملية استيراد الورق من أوروبا إلى حلب، وساعد في إقامة المكتبات العامة والخاصة<sup>(٥)</sup>.

(١) - فرمان رقم / ١٩٤ / تاريخ فرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر المصطنانية بولاية حلب ، ص ١٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - القطار من وحدات اللون ، وكان ورده يختلف تبعاً للزمان ، وكذلك المكان الذي يستخدم فيه عملية اللون. وهي أواخر العصر المملوكي ، كان يتراوح ورده ما بين ٤٥ - ٩٦ كغ وهي سنة ١٦٦٥ م وصل ورده إلى ١٢٠ كغ

(٣) - فرمان رقم / ٨٢ / تاريخ فرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٦٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - ماركوس المصدر السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٤

(٥) - العربي المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٤

وكان الهولنديون يجلبون إلى حلب الفولاذ والنحاس ومنح البارود ، والسيوف والبارود، وبعض القطع من الفضة<sup>(١)</sup>. وكانت حلب تستورد كميات ضخمة من الأجواخ الإنكليزية التي أعزمت بها لأغبياء<sup>(٢)</sup>. والفائض من تلك الأجواخ يرسل بدوره إلى أورفة ودير بكر وأدنة وأرصروم وبغداد ودمشق وبلاد العجم والهند ومكة<sup>(٣)</sup>.

وثمة فرمان سلطاني من الباب العالي وجه إلى المسؤولين في ولاية حلب ، يتعلق بالرسوم الجمركية وينص على توزيع تلك الرسوم على البضائع المستوردة من إنكلتر إلى ولاية حلب عن طريق ميناء إسكندرونة ، من جوح يؤخذ عن كل حرمة في مركز جمرك إسكندرونة / ٤٠ / بارة ، وكل دسنة من جنود الأرباب / ٢ / بارة وفلسين ، وكل قطار شامي من الرصاص / ٦ / بارات ويؤخذ كحمولة نقلها إلى حلب من إسكندرونة عن كل طرد / ٨ / بارات وفلسين ، وعلى كل رطل حلبي من الرصاص بارة واحدة وعلى طرود (الحكيم والجلود والخورساني الهندي) / ٢,٥ / ريال فرشاً ، وعن كل طرد حريز أو قطر بارة عثمانية ، وباقي البضائع يحسن تحصيل بين زيادة ونقص وتؤخذ الرسوم من الملتزمين والمالكين طبق التعليمات المذكورة<sup>(٤)</sup>.

وبعد السماح بشرب القهوة في السلطنة العثمانية ، صدر أمر سلطاني بتطبيق التعليمات الصادرة بخصوصها ، وبخاصة ما استورد منها عن طريق ميناء الإسكندرونة ، ولهذا كانت مادة القهوة على قائمة الواردات لحلب<sup>(٥)</sup>.

(١) - المدرس: المرجع السابق ، ص ٤٤.

(٢) - صكاي: المرجع السابق ، ص ١٧٧.

(٣) - توتل: المرجع السابق ، ص ٤٩.

(٤) - فرمان رقم / ١١١ / تاريخ فرمان (١٢٠٥ هـ) من السجل رقم / ٢٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب، ص ٧٧ - ٧٨ - ٧٩، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - فرمان رقم / ١٢٣ / تاريخ فرمان (١١٨٩ هـ) من السجل رقم / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

وكانت السفن التجارية الإنكليزية المحملة بالصنائع من حرير وصوف ، والمارة عبر موانئ السلطنة لبيعها ، وقبل نقلها لأرياف ولاية حلب تدفع عنها الرسوم الجمركية ويعدّها بصار إلى بيعها<sup>(١)</sup>.

كما صدر أمر سلطاني لاستيفاء الرسوم الجمركية عن بضاعة القصدير (٢٨ صندوقاً من لحم القصدير) الواردة إلى جمر ك حلب من إنكلتر<sup>(٢)</sup> ويلاحظ استيراد معدن القصدير الذي يحتاجه حرفيو حلب في صاعاتهم المختلفة ، وهو أحد صادرات أورود إلى ولاية حلب.

وفي عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م صدر فرمان سلطاني، من أجل استرداد الرسوم الجمركية المدفوعة عن البضاعة الواردة إلى حلب التي كانت عبّرة عن / ٦٢٥ / ثوباً من الشاش الهندي المستورد من إنكلتر<sup>(٣)</sup>.

وكان الميران التجاري أحياناً يرجح لصالح المشرقة فيس عمي ١١١٢ ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م ، تدهورت أسعار المنتجات الأوروبية بشكل حاد، وارتفعت أسعار المواد لأولية القادمة من الشرق تدريجياً. وشهدت الوكالات التجارية في حلب تنافساً حاداً بين الأوروبيين على شراء المواد الأولية<sup>(٤)</sup>.

وعلى أي حال ، شهد العقد الأخير من القرن الثامن عشر والعفود لأولى من القرن التاسع عشر ، تدهوراً حاداً في نشاط حلب. ومن أهم العوامل التي أدت إلى ذلك انهيار إنتاج الحرير في إيران ، وتحول الكثير من صادراته إلى الخليج العربي ، بدلاً من استخدام الطريق الفري والبحر المتوسط. والعمل الآخر يتمثل في التسرع بين القوى السياسية في ولاية حلب (الحرب الأهلية بين الإنكشارية والأشراف) ، مما أضر باقتصاد الولاية المذكورة صراً بالعام. ونتيجة لذلك أصبحت المصالح البريطانية في حلب ممثلة عام ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م في شخص القنصل ، بعد أن كان هناك ٢٨ بيتاً تجارياً بريطانياً في حلب عند منتصف القرن الثامن عشر الميلادي<sup>(٥)</sup>.

يستنتج من كل ما سبق أن الجاليات الأوروبية كانت تستورد من ولاية حلب مواد أولية ضرورية لصناعاتها ، ونموها الاقتصادي. وتبيع في الولاية المذكورة مصوغاتها الاستهلاكية.

(١) - الفرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ الفرمان (١١٩١ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - الفرمان رقم / ١٥ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ١٦ / تاريخ الفرمان (١٢٠٨ هـ) من السجل رقم / ٢٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - غاوي وهيرب المرجع السابق ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩.

(٥) - عيسوي ، شارل: التاريخ الاقتصادي للبلاد للحصوب ١٨٠٠ - ١٩١٤ م ، ت. رؤوف عباس حامد ، مركز دراسات للوحدة العربية ، مكتبة أبوذر الغفاري ، صنعاء ، ص ٢٢١

ومع مرور الزمن أصبحت بلاد الشام عامة ، تقدم للدول الأوروبية المواد الخام اللازمة لمصنعيها الصناعية الصالحة.

ولعبت حلب دوراً بارزاً في نقل تلك المواد باعتبارها تتمتع بموقع استراتيجي ، استرعى اهتمام وانشاء الجاليات الأوروبية لم تحتوي من محارر صالحة للسلع والبضائع التجارية كانت دولها بحاجة ماسة لها لاستمرار نموها الاقتصادي

#### د - النقود:

كانت العمليات التجارية بين أبناء المشرق والأوروبيين ، وقبل قيم الثورة الصناعية تتم بالمقايضة أو بالقد. ولكن بعد قيام الثورة الصناعية أصبحت تتم بالقد حصراً ، أما حلب فكانت تتم فيها عمليات البيع والشراء قبل ذلك بالقد ، الأمر الذي أدى إلى هزته لدى الحلبيين ، ولقد وجد في حلب دار لضرب النقود السلطانية فيها منذ القديم وحتى القرن السابع عشر ، وقد وفر لها مركزها التجاري العديد من النقود كما وبعاً.

ويذكر دارفيو انفصل الفرنسي في مذكراته بالقرن السابع عشر أن النقود كانت تصرب في حلب. وبافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م تحولت معظم التجارة الدولية مع الشرق إلى البحر الأحمر ، الأمر الذي أثر على حلب بشكل سلبي ، ومع ذلك برى التعامل بالقد الفضي والنحاسي المصروب فيها ، إضافة للعمل بالنقود الأخرى كالإسبانية والفرنسية والمجرية والمصرية وإمارة البندقية ، وكانت النقود السلطانية التي تساوي / ٢٢٥ / قرشاً يقيم النقود الذهبية تتغير قيمتها حسب لأحوال ، ولما كانت حلب مدينة ذات تجارة ، سمح لها السلاطين بصرب النقود في قلعتها جيدة التحصين تجاه الهجمات الخارجية والمحروسة بالقوات العظمى. وكانت المدينة تستحم في الوقت ذاته النقود الذهبية والفضية التي صربت في إستاسول بكميات كبيرة ، لذلك سمح لها بصرب النقود من الفئات الصغيرة ، بينما النقود من الفئات الكبيرة كانت تصرب في العاصمة العثمانية

وشهدت دار صرب النقود في حلب في الثلاثينيات من القرن السابع عشر ، عندما كانت حلب تعيش عصرها الذهبي تجارياً ، وتصدر كميات كبيرة من الحرير والسلع الهندية ، وتستورد الأقمشة والمنسوجات الحريرية والفصدير وغيرها من أوروبا بكميات كبيرة جداً. وتم الحصول على النقود الأوروبية في القرن السابع عشر عن طريق التجار والصرافين الأرمن ، ويذكر انفصل دارفيو بأن النقود الفضية الأوروبية

المستوردة من مرسيليا ، كانت تدفق في حلب إلى كان بيها قطع مرورة بدعوة الصرافين قُرب باب الحمارك أو خان الجمرك<sup>(١)</sup>.

استخدم النقد في السلطنة العثمانية كوسيلة من وسائل التبادل التجاري من ناحية ، وكسلعة تاجر بها الأوروبيون من ناحية أخرى ، وكان لها أثرها في أوضاع الدولة العثمانية المالية و لاقتصادية في أواخر القرن السابع عشر . فلم تستطع موارد الدولة العثمانية من المعادن ثلثية الحاجة المتزايدة للنقد ، فهي النصف الثاني من القرن السادس عشر وصلت الأزمة النقدية العثمانية إلى أوجها ، إذ تدفقت الفضة الرحبصة إلى بلاد البحر المتوسط من العالم الجديد (أمريكا) بواسطة المستعمرين الأساس هارتك النقد العثماني تبعاً لذلك ، وانهرت وحيته الفضية ، وهي الأقجة (تسمى أيضاً أسير) وارتفع سعر الذهب ، وفل وجوده بسبب ارتفاع قيمته بالنسبة للفضة ، وأصدرت الدولة العثمانية وحدة نقدية فضية عام ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠ م وهي البارة ، لكنها لم تد في الفساء على التصحح النقدي وغلاء لأسعار ، وفشلت كذلك محاولة أخرى لاحقة لإصدار عملة جديدة هي القرش<sup>(٢)</sup> في الربع الأخير من القرن السابع عشر<sup>(٣)</sup>.

وكان النقد المستخدم آنذاك متنوعاً، حيث أن الدولة العثمانية لم تلجأ إلى توحيدده في ولاياتها المختلفة ، والعملة المتداولة كانت الأقجة أو العثماني ، وإلى جانبها عملتان فضيتان أُجبيتان أطلق عليها الأتراك اسم غروش ، إحداهما ذات أصل هولندي، وتحمل صورة الأسد ، وتعرف بالأسدي أو الأرسلاسي ، وقد تضاعف استخدام هذه العملة بوحل محلها القرش المماوي المسمى بالريال، أو قره قروش. وإلى جانب النقد الفضي كان التجار يتعاملون بالنقد الذهبي الأجنبي وخاصة اللوكات البندقية<sup>(٤)</sup>.

وفيما بعد صدر فرمان سلطاني موجه للمشرقيين على نظام البيع والشراء والمعاملات وأمور الأحاد والعطاء والمعاملات المالية والنقدية والأوراق وقيمتها ، عن طريق رئيس المحاسبة الذي كان له الحق في تعدي النقص والأخطاء في المعاملات المالية والمحاسبة ، بالنسبة لنظام العملات العثمانية ودرجاتها وقيمتها بين الأقجة والذهب ، وبين الذهب والفضة والدرهم والبارة. وقد بين فرمان السلطاني جدولاً مفصلاً يعطي هذه النسبة بالنسبة للعملة الأجنبية الواردة إلى الحرية العثمانية من الخارج ، وقد صدر هذا فرمان

(١) - سورمايس المرجع السابق ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٢) - تشبه لقروش الفضية التي ستصدر تحت حكم السلطان أحمد الثالث / ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م / أي أنها تحمل في النصف الأعلى من وجهها ستة السك ، وستة تسلط السلطان العرش ، وأسمي للسلطان وابيه في طعنه حقيقة ومن ثم سمي للنقد الجديد بالقطرولي

نظراً للصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٧٦

(٣) - رافق، المشرق العربي ، المرجع السابق ، ص ٨٨

(٤) - الصباغ: المجمع لعربي ، المرجع السابق ، ص ١٠٩

السلطاني ووصل إلى الدوائر والمحاكم للعمل به ، حسب الزيادة والنقص ليحم العطائي بموجبه حسب الصادات والواردات إلى الحرية<sup>(١)</sup>.

ومع ظهور القرش ، بدأت هذه العملة النقدية الجديدة تفرص نفسها كعملة فصيصة أساسية ، وبدأ اعتبارها الوحدة الحسابية الرئيسة في أنحاء كثيرة من سوريا. ومع تقدم القرن الثامن عشر ، ازدادت أهمية القرش ، ولم يحل محل البرة فقط ، التي كانت تعني من صعوباتها الحاصة ، ولا سيم بعد منتصف القرن المذكور - وإنما أيضاً محل بعض النقود الأوروبية. ففي حلب أصبح القرش وحدة الحساب ، وكذلك وحدة التبادل الرئيسة. واحتل القرش مركز الصدارة في كل من التجارة الخارجية والتعاملات الداخلية بعد منتصف القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup>.

ومعنت السلطنة العثمانية نقل الأموال النقدية خارج السطبة ، ولذلك قم الأوروبيون بتحصيل أرباحهم وأحدها إلى أوطانهم على شكل بضائع ، أو تحفيض مبيعاتهم

وعندما فقد الإنكليز اهتمامهم ببضائع الشرق حفصوا صادراتهم من القماش وفقاً لذلك. أما الفرنسيون من الناحية الأخرى ، فقد كانوا يأتون بمبالغ نقدية كبيرة لتمويل مشترياتهم ، حيث كن التجار في حلب والمدن الأخرى يفصلون العملة المعدنية الفصيصة المستوردة (معظمها أسبانية ومكسيكية) على عملتهم المحلية، وكانوا يحصلون عليها بصورة جاهرة بمعدلات تبادلية مربحة جداً بالنسبة للعملة الفرنسية ، وتأثير هذا على قيمة العملة أمر غير معروف. لقد ردت الفرنسيين بالناكيد الشروط المفضلة ، وكذلك الأرباح، والتي لم تظهر في إحصائيات التجارة النظامية<sup>(٣)</sup>.

ولذلك حصل الفرنسيون من السلطنة خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م على أن التجار الفرنسيين الذين لم يكلفوا دفع صريية سابقاً على النقود التي يأتون بها من بلادهم إلى الدولة لعلية يحلوا بذلك الآن على أمعاء الحرائر ورجال المالية العثمانيين عدم التعرض لهم بحجة أنهم يصرّون من دراهمهم نقوداً عثمانية<sup>(٤)</sup>. يدل ذلك على أن النقود كانت تتحلل في عمليات التبادل التجاري بين الجاليات الأوروبية وولاية حلب كسلع.

(١) - العرس رقم / ٨٤ / تاريخ العرس (١١٣٥ هـ) من السجل رقم / ٢ / بلاؤمر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٠ ، در الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - باموك ، شوكت: التاريخ المالي للدولة العثمانية ، ت عبد اللطيف الحارث ، در المدار الاسلامي ، ليل ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ٣٠٤

(٣) - ماركوس. المصدر السابق ، ص ١٥٨

(٤) معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق، ليل ٣

وكذلك التجار والرعايا الفرنسيون لا يدفعون رسماً ولا ضريبة جمركية على النقود الذهبية والفضية التي أتت بها إلى الدولة العثمانية ، كما وأنهم لا يكرهون على تحويل نقود بلادهم إلى نقود عثمانية<sup>(١)</sup> .

وقد عملت الموزن الأوروبية على منع حمل النقد المريف إلى بلاد السلطنة العثمانية ، فكنبت غرفة تجارة مرسيية إلى القنصل في الإسكندرية ، تحرم بيع النقود ، وتأمروهم بزيارة المراكب عند وصولها للتأكد من حلوها من هذه السلعة ، وكذلك فعلت شركة الليغانت الإنكليزية التي طلبت من سفيرها وقنصلها فحص المال الوارد إلى السلطنة العثمانية على مراكب إنكليزية ، بحضور الموظفين العثمانيين ، إلا أن تفتيش السفن ، والأوامر والمصادرة ، والنقص ، لم تقطع دابر تجارة النقد المريف ، مما دعا العثمانيين إلى أخذ احتياطات أشد وأقصى وبحاصه في حلب ، حتى غدا من الصعب جداً إدخال أي نقد مريف إلى هذه المدينة (حلب) فجميع المال المتداول في التجارة أصبح يمر بأيدي الصرافين ، أو وسطاء الصرف ، وهم أفراد ماهرون جداً في معرفة أنواع النقد ، وصحيحه من مريفه ، وغدت العادة المتبعة أن يجري البيع في حلب بواسطة أكياس محتومة بختم أولئك الوسطاء المسؤولين عن نوع النقد الموجود تحت ختمهم ووزنه<sup>(٢)</sup> .

كما صدر فرمان سلطاني حول كيفية وكمية وأوران وأنواع العملات المستعملة في الممالك العثمانية ، سواء كانت عثمانية أم أجنبية وعدم التلاعب بقيمتها أو تزيفها ، والتهديد حتى بالقول للمتلاعبين بها أو مريفها ، لما في ذلك من الإصرار بعاد الله تعالى وإصرار وحساسة بالصدعة والتجربة وأمر المعيشة<sup>(٣)</sup> .

وعندما ظهرت بعض العملات المزيفة باقصة الورق ، بسبب إهمال بعض المسؤولين لوطائفهم وتلاعب الطرفين ، ولما كان هذا التزيف والتلاعب بالنقود موجباً لحسارة الناس واضطراب التجارة ، لذلك وجب جمع العملات المزيفة وإرسالها إلى دار الصرب ببستانبول ، وإزالة العقوبات الشديدة بالمريفين والمحالفين<sup>(٤)</sup> . أما الذهب ، فكان بادراً ، أو أنه كان يجمع ويحرق ، أو ينقل إلى الهند والشرق الأقصى ، ولم تكن الدول الأوروبية تدفع ثمن مشترياتها بالذهب ، لأنها كانت هي الأخرى تحسنه لاستخدامات أخرى في بلادها<sup>(٥)</sup> .

ولدينا دليل واضح على استخدام السدات في العملات المالية فيما بين التجار الأوروبيين والتجار المحليين كونها أكثر تسهيلاً للعمليات التجارية ، إذ أن نقلها من مدينة إلى أخرى لا يعرض صاحبها عسر

(١) المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، الجلد ٦٤

(٢) الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩

(٣) - فرمان رقم / ٤٤٠ / تاريخ فرمان (١١٣٨ هـ) من السجل رقم / ٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٤) - فرمان رقم / ٢٧٢ / تاريخ فرمان (١١٨٠ هـ) من السجل رقم / ٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٩٠

الطرق غير الأمانة للسلب والذهب ، ولا يتقل حملها، لأنها مجرد ورقة. ويلاحظ في أمر سلطاني أن المقيم المدعو داليس من الحالبية الفرنسية ، الذي سلم أحد تجار حلب من الأقبات النقدية نحو خمسة وأربعين ألفاً وثلاثة مائة وأربعين قرشاً ، بموجب أوراق بوليصة (سندات) بعية إرسالها للفاطر في الأستانة وتسليمها للتاجر فلورديس<sup>(١)</sup>. مما يدل على استخدام السندات والحوالات في العمليات التجارية بدل لأموال النقدية.

وكان النقد الذهبي المتداول آنذاك في حلب والمعروف بعندق يعادل قيمته / ٤٤٠ / أقة ، لا أن ظهرت في الأسواق عمله ذهبية شبيهة يقص وربها بع قيمته / ٣٠٥ / أقة في كل قطعة ، مما أدى إلى صرر الحرينة و لأهالي عد التداول ، لذلك صدر فرمان سلطاني لسحب النقد الجديد وسك نقد قيمته / ٤٤٠ / أقة كما هو معروف<sup>(٢)</sup>.

وعندما ظهرت قطع نقدية ذات المائة مارة والتي سكّت من قبل الأجانب لاقت رواجاً وقبولاً كبيرين بالتعامل ، وسهولة تحصيل الصرائب الأميرية وبحال وإحراج الصالح. وبالنظر لهذه الفائدة فقد ورد أمر إلى مؤسسة دار الضرب ، بسك القطع وترويجها في السلطنة<sup>(٣)</sup>.

وبذلك كانت السلطنة حريصة على نظامها النقدي المتداول في ولاياتها ، كما كانت حريصة على صرر النقود الأصلية ومحاربة المزيعة ، وقد استخدمت الجاليات الذهب كوسيلة تجارية مع ولاية حلب.

## هـ - الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون:

احتاج التجار الأوروبيون عند عقد صفقات تجارية إلى وكلاء وترجمة ومقارئين ، فلم يكن لهم من خيار سوى الاستفادة من هذه الفئة من الناس الذين كانوا على استعداد للتعامل معهم ، وكان معظمهم من المسيحيين في المناطق الساحلية، بالإضافة إلى الأرض في حلب ، فإن الكثيرين منهم أخذوا يطورون التجارة الأوروبية لمصلحتهم الخاصة ، بعد أن وصعوا أقدامهم فيها. وكان يساعدهم في ذلك اندماجهم في جنسية حمايتهم وفقاً لما جرى عليه العرف طبقاً للامنيارات الأجنبية التي كانت تخول السفر في الأستانة أن يمنحو براءات أو حصانات حماية يصدرها الباب العالي لعدد من الأشخاص الذين يختارونهم لحمايتهم<sup>(٤)</sup>.

(١) - الفرمان رقم / ١٠٧ / تاريخ الفرمان (١٢١٣ هـ) من السجل رقم / ٢٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٨٠ ، ٧٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - الفرمان رقم / ٣٥٨ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٣ / تاريخ الفرمان (١٢٠٣ هـ) من السجل رقم / ٢٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - هامبتون المرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢



وقلة من الأوروبيين من تكند عناء تعلم اللغة العربية ، لأن الوسطاء المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدونهم فيما يختص بتعقيدات حيلة العمل المحلية التجارية<sup>(١)</sup> فكان التجار الهولنديون في حلب لا يتعاطون البيع المباشر ، ولكن يتعاملون مع تجار الجملة الأغنياء ، أو مع الدلالين كوسطاء في عملية التصريف ، وأغلب هؤلاء من الجالية اليهودية أو اليونانية أو الأرمنية. وبذلك بنقادون سوء التفاهم في الصفقات التجارية<sup>(٢)</sup>.

كما تعتبر الحالية الأرمنية بحلب من أهم جاليات المهجر الأرميني ، ومن المرجح أن الأرمن كانوا يعرفون مدينة حلب جيداً منذ القرن السادس الميلادي ، من خلال مرور قوافل الحجج الأرمن القادمين من أرمينيا وكنيليك في طريقها لزيارة الأماكن المقدسة. ففي القرن السادس عشر وعلى مدى قرنين من الزمن عادت مدينة حلب مركزاً تجارياً كبيراً نتيجة استيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، وعلى طرابلس ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ، وبدأ التجار الأرمن يأتون إلى مدينة حلب من مختلف أنحاء أرمينيا. وفي هذه الأثناء ، بدأ ممثلو الدول الأوروبية ولا سيما ممثلو هولندا وفرنسا ويطالب وأسانيا ، يستقروا في حلب لغايات تجارية ، حيث كانت قصصياتهم أيضاً. وكانوا يتعاملون مع التجار الأرمن ، لدورهم الكبير هناك في الحياة التجارية والصناعية لمدينة حلب<sup>(٣)</sup> ، رغم العدد غير الكبير للجالية الأرمنية في حلب<sup>(٤)</sup>.

وكان للأرمن دور فعال في تجارة الحرير في القرن السادس عشر ، إذ كانوا يحلبون البضائع من بلاد فارس ، ويقدمونها إلى تجار البندقية فيها ، وكان معظمهم يسكنون في حي الجديدة<sup>(٥)</sup>.

وعندما تطورت تجارة الكنيسة القبطية في القرن الثامن عشر. لعب المسيحيون فيها دوراً مهماً. وقد أسهمت علاقاتهم المتصورة مع التجار الفرنسيين الذين كانوا يصدرون هذه البضائع ، لقد كانوا الوسطاء المحتومين في جميع العلاقات مع الفرنسيين ، ولكنهم عرفوا كيف يكونون شبكات تجارية لتسويق المواد الأولية والبضائع المصنعة ، فقد لعبوا دوراً مهماً في تجارة الحرير لإيراني في القرن السادس عشر ، واحتكارهم للتجارة في شمال ما بين النهرين وفارس ، وقد أسهم في دعم الجالية الأرمنية في حلب وحتى القرن الثامن عشر كانوا لا يزالون يسيطرون على تجارة القماش المطبوع بالأحمر المصنوع في ديار بكر ثم في حلب ، وفي القرن الثامن عشر لعب السريان الكاثوليك دوراً مماثلاً ، حيث يهول الرحالة فولني عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م (إنهم السريان يمارسون الفن والتجارة ، وقد اكتسبتهم حماية الإفرنج أفضلية واضحة

(١) سرفوس: المصدر السابق ، ص ٥٨

(٢) - المدرس المرجع السابق ، ص ٥٦

(٣) عز الدين ، هري. الجاليات الأرمنية في البلاد العربية ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣ م ، ص ٥٣ - ٥٦.

(٤) كشيبيان ، ألكسندر. إسهامات المواطنين الأرمن في الحياة العامة ببلاد السوریه منذ أقدم العصور وحتى يومنا ، حلب ، ٢٠٠٧ م ، ص ١٨

(٥) - حجار قصصية در بوحة هي حلب ، للمرجع السابق ، ص ١٩٢

حيثما وجدت مكاتب أوروبية ، ولتلك فلازدهار الهائل الذي عرفته تجارة حلب في مجال السبيح في القرن الثامن عشر، يجب أن يتم ربطه بالدور الذي أداه المسيحيون في حرفة حلب ، ومن جهة أخرى بالمكانة التي حققوها لأنفسهم على صعيد التجارة الدولية لحلب. وكان النجاح لاقتصادي للمسيحيين مرتبطاً إلى حد ما بالصلوات التي أقاموها مع الإفرنج . ولكن قبل كل شيء ، بالمقدرة المهمة التي أبدوها على التأقلم وافتتاح الأفق وروح المبادرة لدى طائفة استطاعت أن تستعد إلى أبعد الحدود من الظروف المواتية التي وجدت نفسها فيها في حلب<sup>(١)</sup>.

ولعب اليونانيون دور الوسيطاء، وقد احتلوا مكاناً بارزاً في السوق الداخلية ، وكانوا على اتصال بالأعيان والتجار العثمانيين ، ويشتررون أو يبيعون لحساب التجار العربيين ، وكان هؤلاء مقيمين في ولايات السلطنة ويقيم عليهم الشعور بقربهم من الأوروبيين ، وكان اليونانيون يعملون لدى السفراء أو القناصل كمترجمين أو سكرتاريين ، وما لبثوا أن أصبحوا محميين من جاسمهم وسوف يستفيدون في القرن الثامن عشر من لائحة الحماية الرسمية للأوروبيين ، وشكلوا جزءاً من " حاملي البراءات " <sup>(٢)</sup>.

ولم يقتصر هذا الأمر على الأرمن واليونان بل انصم إليهم بعض الموارنة الذين كانت لهم علاقات مع الإفرنج أكثر من أي طائفة أخرى ، وكانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الموجودة في الأديرة ليتعلموا اللغة الإيطالية ، بالإضافة إلى أشياء أخرى تؤهلهم للعمل في المخابر الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

وتطالما وثقه لسفير فرنسا في إسطنبول، وهي عذرة عن عريضة رفعها للباب العالي ، مصمومها أن السماسرة من الطائفة المارونية الفائمين بالوساطة بين التجار الإفرنج وغيرهم ، يلاقون مشقات وصعوبات في أعمالهم رغم أنهم يدفعون ما عليهم من جرية ورسوم ، لذلك صرحت الأوامر السلطانية بمع ذلك<sup>(٤)</sup>.

أما اليهود فقد عوملوا في ظل الحكم العثماني معاملة طيبة ، وتحسنت أحوالهم عما كانت عليه ، ولهذا تدفوا ، ومنذ القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على السلطنة العثمانية من بلاد أوروبا وخاصة أسبانيا والبرتغال ، ولقد استقبلهم العثمانيون استقبالا حسناً ، وسمحوا لهم بافتتاح الحوانيت التجارية والعمل بالتجارة والصناعة والطب ، واستغل اليهود ذلك وتقربوا من الجاليات الأوروبية ، وبال بعضهم الحماية ، وعملوا كمعادتهم بالربا وقرص الأموال بفوائد فاحشة، وكانوا أشبه ما يكونون بمصارف متقلبة ، ولعبوا دوراً خطيراً في اقتصاد البلاد العربية وبخاصة في التجارة والصناعة اللتين كانتا بأيديهم ، وشاركوا

(١) - ريمون، المرجع السابق ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥

(٢) - ماننجر ، روبرت تاريخ النوبة العثمانية ، ت. بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م ، ص ٢٨٦

٣٨٧

(٣) - رابن: للمصدر السابق ، ص ٢٦٦

(٤) - للفرمان رقم / ٢٢١ / تاريخ الفرمان ( ١٦٧٩ هـ ) من المسجل رقم / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٥٨ ، دار

لوثائق للتاريخية بدمشق

المسيحيين في أحد نصيب من تجارة الوطن العربي مع أوروبا ، وفي التجارة الداخلية كوسطاء بين السكان والأوروبيين.

وكان لليهود في القرن الثامن عشر دور كبير وذلك لأنهم عملوا مع التجار الأوروبيين في بادئ الأمر ، وكان منهم المترجمون ، والوكلاء المحضرون ، والدائرون ، والوسطاء وما لبثت بعضهم أن كون تجارته الخارجية الخاصة على النمط الأوروبي<sup>(١)</sup> ، فقد كان أول مترجم للقنصل الفرنسي في حلب يهودياً في عام ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٠ م<sup>(٢)</sup>.

ورغم ما حصلوا عليه من الأرباح وفود تجاري ، كانوا في بعض الأحيان يحتفلون مع تجار السدول الأوروبية. ومما ذكره قنصل فرنسا في حلب عام ١١٠٤ هـ / ١٦٩٢ م بشأن اليهود أن: "ليس بين الأمم العاملة في تجارة الإسكالات من يسيء تجارتنا كما يفعل اليهود الوافدون من أوروبا ولكن يجب التأكد من أن القنصل اليهودي لن يأخذهم تحت رعايته ، أم بالنسبة للإنكليزي ، فإنه لن يقبلهم حتماً بسبب لأوامر القاسية من الحكومة الكبيرة بهذا الصدد"<sup>(٣)</sup>.

وحصلت فرنسا من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م مع السلطنة العثمانية على ما يضمن سلامة هؤلاء الوسطاء ، حيث لم يسمح بمعارضة هؤلاء السماسرة في المستقبل عدد ذهابهم وإيابهم ، وتحويلهم بين التجار لقضاء أشغال التجار الفرنسيين ، وألا يعارضوا بأي وجه كان ، ولا يسرع لأحد إكرام هؤلاء السماسرة أو منعهم من الخدمة من أية أمة كانوا. وإذا كان بعض اليهود وغيرهم يرون أن السمسرة عانت إليهم بالإرث فللفرنسيين الحرية في استخدام من يريدون ، وعندما يطردون من خدمتهم من استقدموه للسمسرة أو عندما يموت ، فلا يسوغ لأحد أن يطلب ممن خلفه رسماً بحجة أحد رسم للقطيعة المعروف بالكذك أو بقسم السمسرة ، والذين يحالفون منطوق هذا الحكم يعاقبون<sup>(٤)</sup>.

فصلاً عن ذلك وسعت الحماية الأجنبية كثيراً من حدود إمكانيات هؤلاء الوسطاء في العمل التجاري إلى درجة أنهم كانوا قانونيين في منتصف القرن الثامن عشر على إثارة مشكلات كبيرة ، عندما نافسوا تجار الشركات الأوروبية التي كانت تحميهم ، وعندما تنامي عدد الذين حصلوا على هذا التمييز ، ظهرت كسلاخ دبي حدين ، فقد تعرض الإنكليز والفرنسيون لمناقشة شركات التجارة المشرقية ، بسبب إثراء وغي طينة اجتماعية طالبت مصالح الأجانب ، وكانت في الوقت نفسه طبقة تعيش في كنف السلطنة العثمانية ، وكان لذلك آثار مدمرة على تماسك اللحمة الداخلية في مجتمعات المدن العثمانية الكبرى.

(١) المصدر: تزيح العرب الحديث والمعاصر ، المرجع السابق ص ١٨٩ - ٢٠٠

(٢) - حريقاني ، محمود تاريخ اليهود في حلب ، شعاع لنشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م ، ص ٦٢ - ٦٣

(٣) المصدر: للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٣

(٤) - المعاهدة ١٧٤٠ م ، المرجع السابق ، البند ٦٠

وكان المواطنون المحميون يبيعون ثياباً ويعتَمرون قبعات تميزهم عن غيرهم من السكان ، وقد سببت الإغراءات المالية لغير المسميين التي وفرتها لهم الحماية الأجنبية شعوراً بالفرقة والتقسيم ضمن السلطنة العثمانية. ففي حلب عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م دفع الحرية (٨١٢٠) مسيحي ، وانخفض هذا العدد بعد أربعة عشر عاماً إلى (٧٢١٣) ليهبط في عام ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣ م إلى (٥٢٠٠)<sup>(١)</sup>. ويمكن تفسير ذلك بزيادة عدد من حصل على الحماية منهم.

وعندما ضعفت السلطنة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر ، تعاقمت سيطرة التجار الأوروبيين على المراكز التجارية الحساسة في ولاية حلب ، واعتمدوا بتسيير أعمالهم في التجارة الخارجية على التجار المسيحيين واليهود من سكان البلاد ليؤمّنوا عنهم كوسطاء ومواب لهم ، ولعب هؤلاء دوراً كبيراً في اقتصاد الولايات العربية العثمانية<sup>(٢)</sup>.

وساعدت الحاليات الأوروبية في أعمالهم التجارية في ولاية حلب عن طريق تعميم التسهيلات للتجار ، واستفاد هؤلاء الوسطاء بتحصين أوضاعهم المادية والمعيشية من خلال البراءات التي حصلوا عليها من الباب العالي ، بواسطة المسؤولين عن الحاليات لأوروبية ، وأعفت تلك البراءات حامليها من الضرائب والرسوم والحرية ، الأمر الذي خلق أوثق العلاقات بين الوسطاء من أهل البلاد وبين التجار الأوروبيين ، فكان كل منهما بحاجة إلى الطرف الآخر لتسيير أموره.

## و - الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب:

كانت ولاية حلب كم أسلها تعج بالتجار الأوروبيين ، يشترون ويبيعون ما يشترونه إلى المرافئ التابعة لولاية حلب لترسل بدورها إلى بلدانهم ، ويستلمون البصائع المرسلّة إليهم ليفوموا ببيعها في الولاية المذكورة وغير ها ، ومع ذلك لم تكن هذه العمليات تتم بسهولة وبسر ، بل عترضت سبيلها صعوبات جمة تلك التجارة قضت مصحح التجار الأوروبيين أحياناً ، وأعاقت ممارستهم لأعمالهم أحياناً أخرى. وأهم هذه الصعوبات:

١- تأخر وسائل النقل: داخل الدولة العثمانية ، إذ بقيت على حالها كم كانت في العهد المملوكي تعاني من عنت ، منها تأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الأمن في الطرقات التي تسير عليها القوافل ، وكانت وسيلة النقل في سورية الجمال والبغال ، والاعتماد على الجمال كان أكثر انتشاراً<sup>(٣)</sup>.

(١) كوستانتيني المرجع السابق ، ص ٢٥٥

(٢) الحليم المرجع السابق ، ص ١٥٦ - ١٦

(٣) نسكاها، المرجع السابق ، ص ١٩٠

٢ اعتداءات البدو: لم يكن بوسع التجار أن يفل بصناعته من مدينة إلى أخرى على جمل أو عدة جمال وحده ، وإما كان عليه أن ينتظر قفلة كبيرة لتقوم بهذه المهمة ، وذلك لعدم استتباب الأمن في كثير من الطرق. وكان قطاع الطرق من البدو منتشرين في أماكن عبور النشائع التجارية. وكانوا يعبرون على القوافل الصغيرة ، ولا يكتفون بها ما تحمل ، وإما يعتدون على أفرادها ، لذا كان التجار يلتجئون إلى القوافل الكبيرة المشتركة ، ويؤدون بها بالحراسة المطلوبة . و مثل هذه القوافل سارت بانتظام بين دمشق وحلب وطرابلس مارة بحمص وحماة<sup>(١)</sup>. وبعد حاولت السلطة العثمانية القضاء على غزوات قطاع الطرق ، فعملت على إنشاء الحصون ، وترميم الموجود منها على طريق القوافل التجارية. ولم يكن هدفها من وراء ذلك قوافل التجارة فحسب ، وإما قافلة الحجيج أيضاً ، وتكون تلك الحصون مراكز حربية ، أيضاً تراقب البدو والعابثين بالأمن المنتشرين في تلك البقاع. ومع ذلك لم تستطع وضع حد للمصائبات والاعتداءات. فالحكومة العثمانية إن لم تستطع حماية الطرق التجارية الحماية الكافية ، وإن كانت قد بذلت جهداً في تمهيد طرق المواصلات بين المدن<sup>(٢)</sup>.

وانتد العثمانيون ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين التدابير التي كانت سائدة أيام المماليك نفسها كدفع أموال لشيوخ قبيلة الموالي (mawali) الملقب أمير العرب أو سيد الصحراء ، مقابل حمايته للقوافل العابرة للممرات الخطرة للقرات والواقعة اليوم بين بيرة حيك التركية وعانة الموحودة على تخوم العراق ، حيث لم يكن من وجود للمستوطنات ولا حتى لملاجئ يلود بها المرء من قطاع الطرق على الرغم من أن هذا الانفاق كان عرصه للتفكك كما حصل عام ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٤ م عندما لم يتوان الموالي عن إبادة الحامية الحلبية ، إلا أنه كان يؤمن ما يكفي من الحد الأدنى من الأمن لإبقاء الطرق إلى العراق مفتوحة.

وطراً في القرن الثامن عشر ما غير هذه الأمور، إذ قام اتحاد قبائل عنزة (anaza) القوي بالإطاحة بالموالي ، ربما أن اتحاد قبائل عنزة رفض بيع خدماته الأهمية للعثمانيين ، مفصلاً غزو القوافل ومنها ، تكررت الغزوات التي لم توفر حتى قوافل الحج ، مكيدة إياها العديد من الأرواح ومنزلة بها الحسانز، فأدى هذا الوضع المتدهور في الصحراء إلى محاولة تسوية قبائل التركمان (turkoman) أولاً ، ثم بعد ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اللاجئين من الشركس على طول التحم الصحراوي ، سعياً منهم لسيطرت البدو ، غير أن فشل السبل المتبعة في إخصاعهم وما نجم عنه من

(١) - الحسن بن المرجع السابق ، ص ١٢٢

(٢) - الصباغ المجتمع العربي ، المرجع السابق ، ص ١٧.

انعدام الأمن على طريق الصحراء ، أسهم على الأرجح ، في انهيار تجارة القوافل وأدى إلى استبدالها بالنقل البحري في القرن التاسع عشر<sup>(١)</sup>.

ولذلك فالعرب البدو الذين عاشوا حياة رعوية في البادية السورية وفي أراض على أطرافها ، كان لهم وجود هائل في القرن الثامن عشر ، إذ تضخمت أعدادهم نتيجة النزوحات الكبيرة من الحريرة السورية ، وقاموا بتأسيس رئاسة افتراضية على مناطق الدرواح والاستقرار الموسمي ، بجمع لأتوات من المسافرين وسلب القوافل وإخضاع القرى للابتزاز والسرقة<sup>(٢)</sup>.

وتذكر المصادر التاريخية أن تجار بروسية الألمان في حلب الذين تقدموا بعربيتهم للمقام السلطاني ، أعربو فيها بأنه منذ سنوات ، ظهر حوار حان قرية موطن بحلب أشقياء من الأكراد ينتمون إلى عشيرة بكاشلي ، يقومون بأعمال سلب التجار واغتصاب أموالهم بعاراتهم المألوفة ، وكانت قد صدرت الأوامر لوضع حد لهذا لاء الأشقياء ولزوم تطهير الحان المذكور ، ولكن الأشقياء لم يتقيدوا بذلك ، وقد أقدم بعض الأفراد منهم على الهجوم على المحلات ، واسنولوا على / ٢٩ / لعيفة حرير ومائتي ذهبية موشاة ومصابد رأسية و / ٥٢ / بعلًا مع أمتعة و أشياء ، بما فيهم خمسة تجار تم إعدامهم مع بغالهم ، وإل الأشرار من هذه الرمرة العائمين على منع المرور والعبور على الطرق أثناء غاراتهم قاموا بأعمال سلب الذهب والحيوانات والأمتعة ، وتركوا أماكنها هباءً منثوراً

وكان الأمر يعرض وجوب الحفاظ والحرص من طرف المسؤول عن أمن المنطقة ، المدعو فتح الله ، وبطرق لكسبه ، وعدم التمكن من السيطرة على الأشقياء ، الذين غنموا الفرصة وقاموا بهذه العارات ، الأمر الذي أجبر الباب العالي للطلب من لوالي بعد تعيين المباشر للعمل على استرداد الأموال المنهوبة المسلوبة من لأشقياء ، وإعادتها إلى أصحابها من التجار الأجانب<sup>(٣)</sup>. ودرءاً لأخطار الأشقياء من مفسدتهم الطهرة ، كان قد صدر الأمر بوجوب إسكان عشيرة بكاشلي في الرقة ، وبذلك يؤدي إلى استئثار الأمن في الطرق ويتم الاستقرار ، علماً بأنه في الأصل كانت هذه العشيرة من سكان الرقة الذين تركوا ديارهم ، واتخذوا مكاناً لهم في حوار حان قرية موطن بحلب لأعمال السلب والذهب<sup>(٤)</sup>.

(١) - ماسترز المرجع السابق ، ص ١٤٠ - ١٤١

(٢) - ماركوس المصدر السابق ، ص ٤٢

(٣) - العرمان رقم / ٣٩ / تاريخ العرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوسر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - العرمان رقم / ٤٠ / تاريخ العرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوسر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وإصطغر الباشا في حلب أحياناً إلى الاتفاق مع رعماء تلك العصابات ، لتهتدة الأحوال في المقاطعة ، وحماية القوافل التجارية ، مدركاً في الوقت ذاته ، أن تهتدة تلك القنائل البدوية ، ومنعها من السطو يحنج إلى مصاريف كبيرة إضافية ، عد خطورة قتالهم<sup>(١)</sup>.

وكان الباب العالي يتحل أحياناً بإرسال حملات عسكرية إلى حلب ، للقمص على قطاع الطرق والأنقياء من العربان والأكراد ، ونأمين الاستقرار في المنطقة<sup>(٢)</sup>. وكان يأمر وبشكل مستمر بوجود ملاحقة رجال العصابات وقطاع الطرق والقضاء على تجمعاتهم ، ومعاقبة المتعاونين معهم من رجال العشائر وأفراد القنائل<sup>(٣)</sup>.

إن الأمل والسلم هما شرطان لممارسة أي عمل تجاري ، لذلك تصرر التجار الأوروبيون نتيجة تعرضهم للسلب والنهب على يد البدو ، الذين تعودو على سلب القوافل التجارية ، ومن أحل صمام سلامة التجارة كانت السلطة العثمانية تلاحقهم ، وأحياناً تلجأ إلى شراء ودهم بعية انتقاء شرهم ومعدتهم لإفصاح المجال للمرور للقوافل التجارية بأمن.

٣- قطاع الطرق: عندما يسافر الأوروبيون يكرن تعرض السكس المحليين لهجمات السلب والنهب أقل حدوثاً من قبل العربان والأكراد بسبب توأطو حاكم حلب مع رعماء تلك العصابات وتقديم الهدايا للمنفوية لهم.

وكان هناك اتفاق بين باشا حلب والعصابات الكردية المتمركزة حول نيناس والتي تدافع عن الطرقات الجبلية طمعاً بالهدايا ، ونهجم قوافل النجار المحليين ، لأنها لا تحدث صجة مثل مهاجمة قوافل النجار الأوروبيين التي كانت تؤدي إلى عراقب غير سليمة لأن الأوروبيين كانوا في مثل هذه الأحوال يطلنون الحكومة بالتعويض عن خسائهم ، وفي حال عدم التعويض للقافلة المسروقة ، والتي تحصر أكثر من فصية يجتمع القناصل ، ويحبسون سقرءهم في إسانبول. ومثل هذه الاعاوى تصرر الناشأ، وخاصة إذا وصلت الشكوى إلى الباب العالي ، وهناك حالات حصة لا يرد على السفير فيها ، ولا يستلم جواباً لها<sup>(٤)</sup>.

(١) - سورمياي المرجع السابق ، ص ٢٤٧

(٢) - الفرمان رقم / ١١٢ / تاريخ الفرمان (١١٥٢ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٥٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٦٦ / تاريخ الفرمان (١١٨١ هـ) من السجل رقم / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٤٧ - ٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٤) - سورمياي المرجع السابق ، ص ٣٧٣

وكما صدر أمر سلطاني للمسؤولين عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م عن مبدء إسكندرونة ، يطالب الحفاظ على التجار الإفرنج من الأشقياء في الجبال ، لتأمين المرور والعبور إلى حلب وأقصيتها وبيلاز وإطاكية في الداخل ، والحفاظ والحراسة من أعمال الشقاوة<sup>(١)</sup> .

وكذلك صدر فرمان سلطاني عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م بوجوب تطهير المدن والقرى من عناصر الأشقياء المتسلطين عليها بين إطاكية وأصصة والقضاء عليهم حفظاً للأمن وسلامة الرعية<sup>(٢)</sup> .

وكذلك وجد رجال الأكراد المقيمين في سلسلة جبال الأمانوس الوعرة إلى الشمال من مدينة حلب ، حيث سيطروا ومن حلال قلاعهم المستقلة على الطرق الاستراتيجية في مناطقهم ، وبخاصة الطريق الساحلي من سورية إلى الأناضول<sup>(٣)</sup> .

وقد صدر فرمان سلطاني عام ١١٩٠ هـ / ١٧٦٦ م بناءً على طلب السفير الإنكليزي بالأسنانة أطوبيو هيس يشرح فيه ، قيم الأشقياء بقطع الطريق على قوافل التجار الإنكليز ، ونهب أمتعتهم وأحد أموالهم تعديراً وطلباً ، وعدم إطفائهم لأوامر السلطانية طمعاً بجلب الأموال وقتل النفوس وسفك الدماء ، لذلك يجب قتلهم والقضاء عليهم<sup>(٤)</sup> .

كما يذكر الرحالة شارل رو (Chariel Roux) بأن قافلة مؤلفة من مئة وثلاثين جملًا غادرت حلب في ١٢ / شباط ١٧٤٣ م متجهة إلى الإسكندرونة تحت حراسة شديدة بعد شكاوى قنصل فرنسا إلى الباشا ، لأن القافلة التي سبقتها بيوم واحد تعرضت لهجوم مجموعة من فاطعي الطرق الأكراد ، وكانت القافلة لحساب فرنسا<sup>(٥)</sup> .

وكذلك صدر أمر سلطاني آخر إلى والي حلب حول وصع الطرق وإيجاد الأمن والطمأنينة فيها ، لأنه عندما يأتي فصل الربيع وتحصر الأشجار ، فإن رمة الأشقياء في الجبال تكثر من ممارسة السلب والنهب ،

(١) - العرمان رقم / ٣٩٤ / تاريخ العرمان (١١٥٥ هـ) من السجل رقم / ٤ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - العرمان رقم / ٨٤ / تاريخ العرمان (١١٩٥ هـ) من السجل رقم / ١٦ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٥٨ - ٥٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - ماركوس المصدر السابق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) - العرمان رقم / ٨ / تاريخ العرمان (١١٩٠ هـ) من السجل رقم / ١٣ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٩ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - لطفي: المرجع السابق ، ص ٢٨٠



حيث يكون أفراد الفئائل والعشائر في حالة حلو الطريق ، لذلك يجب القسص وتأديب الأشقياء وتوفير الطمأنينة للأرعية وأبناء السبيل لينصرف الجميع إلى أعمالهم<sup>(١)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني وهو عبارة عن إقرار موجه إلى المسؤولين الرسميين في ولاية حلب ، وأمر بالصرب على أيادي السارقين واللصوص وقطاع الطرق ، بسب عريضة قدمها سفير هابسبورغ في الإسكندرية ، وهي عبارة عن شكوى ، حول تعرض تحارب فرسيين كانوا قادمين إلى حلب من المسروقات ، وذلك يدل على نهب المسؤولين ، وعلى احتلال الأمن ، ولذلك طالب فرمان السلطاني بذل الجهود لإعادة المسروقات إلى أصحابها ومعاقبة اللصوص<sup>(٢)</sup>.

ولهذا تعهد رئيس مفررة مقاطعة مراقب في ولاية حلب ، بتحصيص / ٨٠ / فرداً من حرس عسكري الخيالة لتأمين حراسة حدود المنطقة من أولها إلى آخرها دهب وإياب ، وذلك على الطرقات والمعابر المؤدية من وإلى المقاطعة ، لتأمين مرور القوافل والمسافرين ورعايا القرى والمرارعين من تعبيري الأشقياء وصيانة حياتهم وأموالهم<sup>(٣)</sup>.

وكذلك رئيس مفررة حرس طومان التابعة لولاية حلب ، فقد تعهد بدوره بتحصيص / ١٤ / فرداً من الجيئة و / ٤٠ / فرداً من حرس الحبال ، لتأمين سلامة المسافرين وقوافل التجار في المعابر والطرق الواقعة في تلك المنطقة ، وصيانة حياتهم وأموالهم من الأشقياء وقطاع الطرق<sup>(٤)</sup>.

٤ القراصنة: كانت التجارة لأوروبية تلقى صعوبات ليس على البر فقط ، بل كان أيضاً للبحر نصيب من هذه الصعوبات ، فقد كانت مراكب الشحن التابعة للتجار الأوروبيين عرضة لهجوم القراصنة ، فالمقيم العام الفرنسي بإسطنبول شوانيردة سبييرية ، رفع تقريراً إلى الباب العالي يشرح فيه تعرض بعض سفن القراصنة الروس التي ظهرت في سواحل سلفكة ، والتي اغتصبت بعض القوارب ، حسب المعلومات التي وردت من أهالي بيلان. فوجب العمل على إبعاد السفن الروسية المحتمل ظهورها ثانية ، وتم توجيهه

(١) فرمان رقم / ٢٦٤ / تاريخ للفرمان (١١٦٣ هـ) من السجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤١ ، دواوين الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) فرمان رقم / ٥٧٣ / تاريخ للفرمان (١١٦٣ هـ) من السجل رقم / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣١١ ، دواوين الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) فرمان رقم / ٣٦ / تاريخ للفرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٠ ، دواوين الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) فرمان رقم / ٣٧ / تاريخ للفرمان (١٢٠٧ هـ) من السجل رقم / ٢٣ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٠ ، دواوين الوثائق التاريخية بدمشق .

كتاب إلى قنصل الإفريج في ميناء إسكندرويه ، يطلب إليهم صمن تعويض الأضرار الواقعة في الأنفس والمال<sup>(١)</sup>.

ومما جاء في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م الواقعة ما بين فرنسا والسلطنة العثمانية ، بأن تقوم لأخيرة بحراسة ومساعدة المراكب الفرنسية التي تأتي إلى موانئ السلطنة ، وأن تحرح منها بكل أمان ، وإذا سلب شيء من أدواتها وأشياءها فليس الواجب بدل فقط قصارى الجهد لإعادة المسلوب إن كان أناساً أو أشياء ، وإنما يعاقب المعتكف بصرامة أيأ كانوا<sup>(٢)</sup>.

وفي بند آخر من المعاهدة المذكورة ، نصت على أنه إذا كان التجار الفرنسيون مسافرين على مراكب العدو بقصد التجارة ، ولو أن سفهم وأمرهم مخالفين للشرائع ، لأنهم وجدوا في مراكب العدو ، فلا يسوغ لهذه الحجة ضبط أموالهم وأسر أشخاصهم ، بشرط ألا يكونوا في مراكب القراصنة ، وألا يبدو منهم عمل عدائي أو يخططوا حدود مهنتهم<sup>(٣)</sup>.

وإذا شحس فرنسي مركبه مؤوبة من بلاد العدو وحملها إلى بلاد العدو ، فالتقى بسفن المسلمين ، فلا يسوغ أخذ مركبه وأسر الأشخاص بحجة أنهم ناقلو ميرة إلى بلاد العدو<sup>(٤)</sup>.

٥- الحروب: كان للحروب دور في إعاقة التجارة لما تسببه من فقدان الأمن ، ونشر الدعر والفوضى والسلب والنهب ، فعندما نشبت الحروب بين الدولة العثمانية والعجم ما بين عامي ١١٣٦ - ١١٥٩ هـ / ١٧٢٣ - ١٧٤٦ م وخاصة سلسلة من الحروب الصويلة مع إيران ، حيث كانت حلب ضحية تلك الحروب. صحيح أن حلب كانت بعدة عن ساحات المعارك بشكل مباشر ، إلا أنها عانت من صرور الحروب الذي كان ثقبلاً ، وبعثات الدرع الكبيرة استغذت أموال الدولة ، وبذلك كان السكان عرضة لطبقات الضريبة المرتفعة ، التي أثارت الكثير من الامتعاص والاعتراض العام ، علاوة على ذلك فإن استمرار الحروب لمدة طويلة مع إيران على طول الجبهة العراقية ، لعب دوراً مدمراً لتجارة حلب ، المتجهة نحو الشرق ، فكانت العداوات واللجوء إلى الحرب الاقتصادية من قبل الطرفين ، يوقف شحنات الحرير الإيراني إلى المدينة ، مما وضع حداً لنهية نشاط تجاري كان قد أغنى تجار المدينة سابقاً ولعدة قرون. ومن جهة أخرى عرصت الحروب الإيرانية حلب لعبور جحافل الجيش العثماني من وإلى الجبهة الإيرانية<sup>(٥)</sup>. وفي ذلك ضرر كبير لحلب وتجارها.

(١) - الفرمان رقم / ٣٢ / تاريخ الفرمان (١١٨٧ هـ) من السجل رقم / ١١ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٦ - ٢٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، طبع / ٣٠ / .

(٣) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، طبع / ٤ / .

(٤) - معاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، طبع / ٥ / .

(٥) - مارغوس ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

إضافة إلى ذلك فإن أموراً أخرى أعاقَت التجارة والعمل التجاري ، وكان على رأسها الإخلال بالأمن الناتج عن الحروب والأطماع الدولية والعسكرية ، والصراعات على المنطقة ، والمشكلات الكثيرة التي كانت تؤدي إلى عدم الاطمئنان وإلى هرب الأموال والممتلكات ، وحواف التجار على بضائعهم ، وأموالهم وبالتالي تعطيل السير على بعض الخطوط التجارية والنحت عن طرق أمة طويلة أكثر كلفة ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف النشاط التجاري وجموده<sup>(١)</sup>.

ويصف الرحالة الإنكليزي بوكرك (pokoeke) عندما حظ في حلب ، خلال العام ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م بالقول: إنها من أجمل مدن الشرق ، ولكن أسوأها أحدث بالجمود بالنسبة إلى ما كانت عليه في الماضي ، بسبب الحرب بين العثمانيين والعجم ، والتي أوقفت حركة القوافل التجارية بين العجم ، وأرمير عن طريق حلب وجبال طوروس.

ففي عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م قامت الحرب بين العجم والنوبة العثمانية. فاصطرب حبس الأمن وتوقفت حركة التجارة<sup>(٢)</sup>.

وفي نهاية القرن الثامن عشر مهدت التجارة الأوروبية في ولاية حلب ، وذلك بسبب الحملة الفرنسية على مصر وسورية عام ١٢١١ هـ / ١٧٩٨ م ، وكانت حكومة باريس تعلم أن الباب العالي سيكون شديداً عياراً على احتلال فرنسا لمصر ، وكان رد الفعل لدى السلطة قوياً ، بحيث أعلن السلطان سليم الثالث الحرب على فرنسا، وتم اعتقال السفير الفرنسي بيير روفيه مع موظفين آخرين من السفارة الفرنسية في العاصمة العثمانية ، وتوسعت حملة الاعتقالات ضد جميع الفرنسيين من دبلوماسيين وتجار وغيرهم ، وتعرض الجميع لسوء معاملة الحكام العثمانيين ، وكانت حالة الفرنسيين في حلب هي الأسوأ ، فقد وصل عدد المعتقلين منهم إلى ٤٠ / شخصاً في نهاية القرن الثامن عشر ، وكانوا يحتلون المكاة الأولى بين التجار الأوروبيين في حلب ، وكان الفصيل الفرنسي (Jean. choderlos) البالغ من العمر ستين عاماً ، وكان فصيل فرنسا في أرمير وطرابلس سابقاً ، ونقل إلى حلب قسلاً وبعد وصوله بمدة ١٦ / شهراً ، أعلنت السلطة العثمانية الحرب ضد فرنسا. ومن ذلك التاريخ تبدأ عداوته فسجن وأتباعه من الفرنسيين في قلعة حلب<sup>(٣)</sup>.

وفي الحقبة التي امتدت من عام ١٢٠٤ - ١٢٣٠ هـ / ١٧٩٠ - ١٨١٥ م والتي شهدت قيام الثورة الفرنسية وحروب نابليون الاستعمارية ، كانت الطرق البحرية عبر البحر الأبيض المتوسط معطلة من جراء

(١) - ريوبي: المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٢) - توتل: المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٨.

(٣) - سورمايل: المرجع السابق ، ص ٦١٧.

ذلك ، وتظهرت التجارة الدولية إلى حد كبير . وفي تلك الحقبة عانت التجارة في حلب أيضاً من فتور وتدهور حاد<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فالموسوعة البريطانية أشادت بحلب ، ووصفتها المدينة الرئيسة في شمال سوريا والسوق الأساسية للشرق ، وأن ثرواتها لاهتصادية استمرت حتى أواخر القرن الثامن عشر ، على الرغم من الحروب والصراعات مع إيران<sup>(٢)</sup>.

٦- البلبص: إن أكثر الصعوبات المحلية التي اصطدمت بها تجارة الجاليات الأوروبية في حلب ، بل أعظم الآفات التي ابتليت بها ، هي البلبص وهو عبارة عن مبالغ من المال طالب بها بائع حلب أو حكامها التجار الأوروبيين ، وألزموا بدفعه بذرائع وحجج واهية لا أساس لها من الصحة أو الواقع ، أو للمنطق ، وعدم كان للبلبص بعرص ، كان قنصل الجالية يجمع مواطنيه للبحث معهم عن وسيلة للتخلص منه ، وكانوا في أغلب الأحوال يعرفون أنه لا فائدة من المناقشة والتداول ، لأن طلبات الناشأ لا ترد. وعندما تزداد عمليات البلبص ، كانت الجالية ترسل وفداً يحمل شكواها إلى إستانبول ليحير السفير بذلك ، إلا أن الأخير كان عاجزاً عن حل المشكلة بسرعة ، لأن الديون قد يتأخر في عقد اجتماعه ، أو يكون السلطان حارح المدينة في أحد معسكراته ، والديوان مرافق له<sup>(٣)</sup>.

أما حلب فإن مراسلات قنصل البندقية وفرنسا وهولندا وإنكلترا ، تنعج بالشكاوي من الباشوات وعمال الجمارك ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، حتى أن القنصل الفرنسي دارفيو يحيرد بأن جميع الأوروبيين سواء في تحمل البلبص والغرامات. إلا أن الأمة الفرنسية كانت تدفع منها كميات أكبر ، لأن الإنكليز والهولنديين والبندقية نفهموا الواقع العثماني ، وعرفوا كيفية التعامل مع الباشوات وتحقيق رغبتهم بالهدايا أو بإعطائهم ما يطلبون دون مقاومة ، لأن المفومة كانت تعني بلصاً أكبر أو سجنًا أطول ، والشكوى تكلف نفقات كثيرة ولا تنتهي عادة إلى حل إيجابي<sup>(٤)</sup>.

#### مظاهر البلبص:

أ- الهدايا والهبات: كانت سدرج من هدايا غدت مع الزمن تقليداً من الصعب التخلص منه إلى بلص صريح. فمن الواجب على القنصل مثلاً أن يقدم إلى السلطات الحاكمة في الإسكندرية سلعاً وبصائع من أوروبا. يقول القنصل دارفيو " كان علينا إرسال هدايا المعتادة ، لأنه لا أحد يمكنه الاقتراب من هؤلاء الموظفين الكبار العثمانيين أو يبالغ في خطوة التكلّم معهم دون إرسال القنصل الجديد هدايا مسبقاً ، وأقول دون

(١) غاييه ريفرت للمرجع السابق ، ص ٣٩

(٢) الثوبجي ، محمد: لتفاعل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية ، دمشق ، ١٩٨٨ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٣) الصباغ الجاليات لأوروبية ، للمرجع السابق ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣

(٤) Darvoux' p ٣٦٤

إحفاء الحقيفة بأن هؤلاء يعدون الهدايا المرسلة إليهم رشاً أو بعض الضر عن حجمها وكبرها ، ولذلك كان على السفير في إستقبال والتفصيل في حلب أو غيرها من المدن ألا يقبض هديته نصف يردة من الفموش ، أو قرشاً واحداً لأنها ستفرض هدايا بخلافة ، مصحوبة بكلمات تدل على قلة أدب ، وعدا ذلك فإن الموظفين الحكوميين مهزون في الورق والقياس ، وكل هدية تقدم إليهم يسجلون أو صافها المفصلة في دفتر ، وفي مرات لاحقة سيطالبون بهدايا أخرى كحق مكتسب لهم ، وعليها ألا يسي أن العثمانيين طماعون وقذرون إلى درجة أنهم يعدون الهدايا والصح التي تقدم لهم قانوناً وواجباً " وقد سجل الفصل الهدايا المقدمة وكانت على الشكل التالي (بمختصر) الثياب الحريرية - الأقمشة الصوفية التي يصل ثمنها إلى / ٥٠٠ / فريش ذهبي فريسي. مصاريح أخرى تصل إلى / ٥٠٠ / ليرة ذهبية ، وبصع ليرات<sup>(١)</sup>.

وكان الحكام من الولاية ، يسعون بعد شرائهم من الولاية عليهم من السلطان بمبالغ ضخمة لاسترداد المبالغ التي دفعوها من تحصيل الضرائب ، فتعسرو في فرض المبالغ الباهظة على أهالي المدينة الذين رفضوا دفعها ، وتمردوا عليها نصف أكثر من مرة ، حتى أنهم في بعض المرات طردوا الولاية من المدينة ، وفي عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م وفور وصول علي باشا إلى مدينة حلب ، بدأ بتطبيق عملية بلص وسلب منظمين على طبقات اجتماعية يبدأ بالموردين ، ثم بالصرافين وكان أهل المدينة يسموهم صرافي (saraffi) وصولاً إلى صناع السيج ، وجماعات أخرى من أهل الحرف والصناعة في المدينة ، فهرب الصرافون من المدينة لينفثوا المبالغ الضخمة التي أودعوها عندهم انتحار الأجانب. وطلب هؤلاء التجار من السلطان العثماني عزل الباشا اللص من منصبه ، قبل أن يتعرض أعمالهم للتلغ وأرزاقهم للهلاك<sup>(٢)</sup>.

وصدر فرمان سلطاني إلى باشا حلب وقاضياها ١١٦١ هـ / ١٧٤٨ م ، جزء شكوى ضد محصل وجابي حلب ، حيث أن الأمتعة والأشياء التي ترد إلى حلب من بغداد وأرصروم وأطرافها وما يرد عن طريق البر إلى حلب ، حيث يؤخذ عليها ما يسمى (بلوص) الذي يقدم زيادة ، عما يطلب منه من التجار الأجانب المقيمين في حلب<sup>(٣)</sup>.

وفي عريضة مرفوعة من القنصل الهولندي في حلب إلى الباب العالي ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م يشكو فيها ، أن التجار والسفن التابعة لحكومته يلاقون الصعوبات والإزعاجات رغم البراءات التي يحملونها ، لذلك صدرت الأوامر السلطانية بالامتناع عن ذلك ومع أحد الهدايا والهبات<sup>(٤)</sup>.

(١) سورطايا: المرجع السابق ، ص ٣٨١

(٢) - كوستانتيني: المرجع السابق ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٣) الفرمان رقم / ٢٢٣ / تاريخ الفرمان (١١٦١ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٢٤ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) الفرمان رقم / ١٦ / تاريخ الفرمان (١١٧٧ هـ) ، من السجل / ٧ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

ب- الاستدانة: وهي شكل من أشكال اليأس إذ كان الولاة والحكام يستديون من التجار الأوروبيين ملاً معيناً ، ولكنهم لا يردونه في معظم الحالات ، و كانوا يردون جزءاً قليلاً جداً منه ، ويروى القنصل دارفيو لاحقاً معلومات عن طمع الموظفين الرسميين الكبار الذي وصل أحياناً إلى درجة التسول ، فمثلاً والي حلب (محمود باشا) قد سلب القنصل النمساوي الأتركي للملك الفرنسي لويس السادس عشر ، ورعاياه والهولنديين من التجار الذين تحت الرعاية الفرنسية. فاضطر دارفيو قنصل فرنسا في حلب عام ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م إلى دعوة تجار بني قومه ، لإرسال رد مناسب إلى الوالي الذي كان قد طلب ثلاثين قطعة قماش قطبية خفيفة شريطة دفع ثمنها ، ومن العادات السيئة التي انتشرت كالأفراط السارية ، تأميم جميع حكام المدينة السلع لحاجاتهم الشخصية (كالمشروبات الروحية وغير الروحية والحلويات والورق والشمع الآسيوي وسيراميك الأرض والرخام وغيرها) ، وعلى الرغم من الأهمية غير الكبيرة لهذه السلع إلا أن الحكام طلبوها بكميات كبيرة جداً ، ويقول دارفيو (أن الحاكم محمود باشا الذي طلب شراء / ٣٠ / قطعة قماش من بحجة حياطة البسة لرجالها ، كنت أعلم اليقين بأنه سيوفي بعض ديونه التي تراكمت بثمنها ، لذلك لا يمكن أن أكفله، وكنت أعتقد بأنه يتوجب علي عرض المسألة في اجتماع عام ، فقرر المجتمعون تقديم قطع القماش باسم الجالية الفرنسية وكفله الشهيد وصراف السراي عند التحار ، وباعوا الباشا قممته بقيمة / ٢٠٠٠ / قرشاً فوعد الوالي بإيفاء الدين خلال شهر ، ولم أتدخل شخصياً بهذا الأمر ، مخافة عدم وفاء الباشا بوعده ، فوصل ساع من الباب العالي إلى حلب ، وأحضر حاكم حلب محمود باشا بوجوب معارضة المدينة خلال ثلاثة أيام والتوجه إلى إسطنبول لتوليته منصب جديد حصل عليه من السلطان ، ودون إصاعة الوقف طالبك محمود باشا ب / ٢٠٥٩ / قرشاً ثمن لأقمشة ، فقدم لي أمر قبض وبدء عليه سيدعم المبلغ بعد فترة معقولة ، ونظراً لعدم وجود أي حل آخر كان من الضروري قبول اقتراحه<sup>(١)</sup>. يلاحظ من حديث دارفيو طمع وجشع بعض ولاة حلب ، من خلال النطفل على الجاليات لأوروبية.

وصدر فرمان سلطاني إلى قاضي حلب ومحصلها ، بشأن الوزير السابق المنوي حسين باشا الذي كان والياً على حلب بقي بدمته للتجارين الفرنسيين المقيمين في حلب بدراك وبراويل ، مبلغ قدره / ٣٨٧٦ / قرشاً مقابل رهن حاتم ذهب وحاتم رمرد ، ولذلك يجب حل هذه القضية ، ويطلب من قاضي حلب ومحصلها ، تقدير قيمة الأشياء المرهونة بوجود أهل الخبرة. ففي حال زيادة قيمتها عن الدين أرسلها إلى الباب العالي ليصار إلى تسديد الدين من قبلنا ، وفي حال كفاية قيمة المرهونات أو نقصها عن مبلغ الدين تسلم المرهونات إلى صاحب الاستحقاق ، والتراخي عن النقص إذ وقع<sup>(٢)</sup>.

(١) - سورميس. المرجع السابق ، ص ٢٥٨

(٢) - الفرمان رقم / ٢٠ / تاريخ الفرمان (١١٨٨ هـ) ، من السجل / ١٢ / للأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ١٦ - ١٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

وبعد ذلك تم إحصاء وكير أصحاب الدين ترجمان الفصليّة الفرنسيّة في ولاية حلب ، إلى مجلس الشرع وبحضور المحصل والوجوه وأهل الحر ، فقرروا قيمة الأشياء المرهونة بمبلغ / ٢٧٥٠ / قرش ، وهو أقل من قيمة الدين المطلوب. فجرى تسليم المرهونات إلى الوكيل الشرعي ، وجرى التراصي على المبلغ الناقص بمعرفة قاضي حلب<sup>(١)</sup>.

وهي وثيقة أخرى يدعي فيها تاجر فرنسي أن له ديناً في دمة محصل حلب السبق المتوفى ، وهو الحاج يوسف آغا ، وبجمالي الدين / ٥٠٠٠ / قرش ، ويرجو تحصيل دينه من محلفات أو متروكات المحصل المذكور. فصدر فرمان سلطاني موجه إلى قاضي حلب ، لإجراء اللازم بشأن دين التاجر الفرنسي<sup>(٢)</sup>. مما يدل على أحوال التجار الأوروبيين الممتازة.

٧ الرسوم الزائدة: وهي الرسوم التي يجب أن يدفعها التجار الأوروبيون على بضائعهم عند دخولها وحروجها من وإلى أراضي السلطة العثمانية ، ومن المعروف أن رسوم الجمرك ، كانت تفرص في الدولة العثمانية على السلع والنصائح المستوردة من أي مكان ، و إلى مركز مبراً أو بحراً ، أكانت للبيع أو لإعادة نقلها ، وكذلك كانت تفرص على النصائح والسلع المصدرة منه. أما القيمة المفروضة فكانت تختلف من مكان إلى آخر ، فحسب العادة المتبعة سابقاً ، ونوع السلع ، ولقد أصدرت السلطة تعريفات تفصيلية خاصة بكل مدينة أو ميناء في سوريا في القرن السابع عشر ، حيث صدرت تلك الرسوم والتي تتراوح ما بين / ٥ % / ٣ % حسب الأوضاع التجارية<sup>(٣)</sup>.

وكان التجار الفرنسيون يدفعون ( ٥ % ) عن بضائعهم في أراضي السلطة العثمانية ، وحاولوا تخفيض ذلك إلى ( ٣ % ) مستغلين ما تمتعوا به من امتيازات ، فاستجابت السلطات العثمانية للطلب بموجب الالتماس المقدم من برسد لدى السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وعندما اشتد ضعف السلطة العثمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، واشتدت حاجتها إلى المال ، استغل تلك الناشوات وعمال الجمارك في الولايات العثمانية ، ونصرفوا من أنفسهم دون النظر إلى قرارات أو قرارات ، ولا أدل على ذلك من الشكوى التي تقدمت بها إكثرتا سنة ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م

(١) - فرمان رقم / ٢١ / تاريخ فرمان ( ١١٨٨ هـ ) . من السجل / ١٢ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧ . دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - فرمان رقم / ١٠١ / تاريخ فرمان ( ١٢٠٤ هـ ) ، من السجل / ٢٠ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٧٠ . دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - فصائح الجاليات لأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩

(٤) - المعاهدة ١٧٤٠ م المرجع السابق ، البند ٣٦

ضد محصل الجمارك في حلب الذي يأخذ رسماً إضافياً في الإسكندرونة / ٢,٥ % / إلى جانب / ٣ % / في حلب<sup>(١)</sup>.

يلاحظ أن سفراء بريطانيا والبنديقية في الأستانة تقدموا بشكوى ، معادها أن التجار الأجانب الساعين لهاتين الدولتين وغيرهم من التجار ، الذين يأتون إلى حلب قد تعرضوا للمضايقة ، لإجبارهم على دفع رسوم رائدة عن الحد القانوني خلافاً لتعهدت السلطات العثمانية للأجانب<sup>(٢)</sup>.

وفي وثيقة أخرى عبارة عن فرمان سلطاني إلى والي ومحصل حلب ، بتصرير تعليمات وتنبيهات حول شؤون مالية وإدارية ، فحواها أن البطارة على تجارة الأقمشة وتجارها القادمين برأ إلى حلب ، من بغداد والبصرة وأطروم وتوانعها هي من شؤون الولاية أنفسهم.

ومع ذلك كان بعض الموظفين المعيين من قبل هؤلاء الولاية جمع الرسوم ، كثيراً ما أرفهوا التجار المذكورين بمطالبتهم ، وتحلوا في شؤون الأقمشة الواردة من البلاد لأخرى ، الأمر الذي خلق لدى التجار المذكورين عدم الرغبة بالمجيء إلى حلب وأدى ذلك إلى تناقص الواردات المذكورة إليها<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ في فرمان سلطاني آخر موجه إلى باشا حلب وقاصيها ، يطالب بعدم أخذ الرسوم الجمركية والفصائية مرة ثانية من التجار البريطانيين المقيمين في حلب ، عن البضاعة والأقمشة الواردة إلى حلب ، عملاً بالعهود السلطانية ، وتلبية لرجاء التجار المذكورين والسفير الإنكليزي في الأستانة<sup>(٤)</sup>.

وكذلك عريضه السفير الفرنسي في الأستانة الكونت دي تستال بخصوص تجار دولته ، الذين كانوا يضطرون إلى دفع رسوم البضائع والأمتعة في أحد الموانئ العثمانية ، ثم إجبار أمراء الجمارك لهم بدفع الرسوم مرة ثانية وما في ذلك من المحالقات<sup>(٥)</sup>.

في معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م بين السلطنة العثمانية وفرنسا التي نصت في أحد بنودها ، على أن البضائع التي يشحنها التجار الفرنسيون من بلادهم إلى أراضي السلطنة ، وكذلك البضائع التي يشحنونها من أراضي السلطنة إلى بلادهم فرنسا ، تقدر في الجمارك بالتمس الذي كانت تقدر به قديماً لمصط الرسوم

(١) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠

(٢) - الفرمان رقم / ٢٧٣ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ٢٧٣ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - الفرمان رقم / ٦٤٢ / تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٥٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٥) - الفرمان رقم / ٤٧٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٨ هـ) ، من السجل / ٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٢٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق



الجمركية وتحصيلها ، وكانت تؤخذ قبلاً دون زيادة في ثمنها<sup>(١)</sup>. ما هيك عن ضريبة العنصاية (الجرارة) والباح وهو رسم البضائع الداخلة من القرى<sup>(٢)</sup>.

وفي شكوى أخرى تقدم بها السعير الإنكليزي في الاستانة عام ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧ م يشرح فيب ، أن دائرة الجمرك في حلب تتقاضى رسوماً أكثر مما هو متفق عليه على البضائع الإنكليزية ، خلافاً للعهد السلطاني الصادر ، فصدر فرمان سلطاني نصمّر عدم السماح بأحد أية رسوم زيادة على ما هو متفق عليه مع للتجار الإنكليز<sup>(٣)</sup>

وكذلك صدر فرمان سلطاني بلروم تطبيق التعليمات الخاصة بالرسوم الجمركية ، التي تؤخذ على البضائع المستوردة من قبل تجار إنكلتر إلى حلب وعدم أحد أية رسوم مكررة<sup>(٤)</sup>.

كما وجه أمر سلطاني عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م إلى قاضي حلب ومحصله وإلى التجار الأجانب ، الذين يتعاملون مع موانئ قبرص ، حول البضائع التي تترك في ميناء طورية بجزيرة قبرص ، حيث عندما تفتح الطرود وتعرض للبيع يدفع التجار الرسوم الجمركية عن البضائع التي بيعت فقط في قبرص ، ويعطى بها إشعار ، وتقل بعبء البضائع التي لم تبع إلى حلب لشاع هالك ، وقد عمدت السلطات الجمركية بحلب إلى أحد الرسوم الجمركية عن البضائع المبعة في قبرص رغم إبراز التجار الإشعارات بدفع الرسوم ، ولذلك يجب العمل على استرداد الرسوم المدفوعة<sup>(٥)</sup>.

كما أن محصل حلب لا يقبل إلا أن يتخذ رسوماً إضافية ، مما سبب صرراً بالتجار الأجانب ، وبعد إجراء التحقيق وبحضور محصل حلب ومعتدي تجار (فرنسا - إنكلترا - بروسيا - إيطاليا) وبوجود مترجمهم ، جرى استطاق التجار الأجانب والتحقيق معهم في هذه الشكوى ، تبين أنه لم تؤخذ رسوم مكررة عن البضائع المباع في قبرص<sup>(٦)</sup>.

(١) - المعاصرة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، للبند ٨

(٢) - المعاصرة / ١٧٤٠ م / المرجع نفسه ، البند ١٠.

(٣) - الفرمان رقم / ٢٦ / تاريخ الفرمان (١٢٠٣ هـ) ، من السجل / ٢١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٤) - الفرمان رقم / ١٤٩ / تاريخ الفرمان (١٢١١ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٩ ، ٨٠ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٥) - الفرمان رقم / ١٩٥ / تاريخ الفرمان (١٢١٢ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٦) - الفرمان رقم / ١٩١ / تاريخ الفرمان (١٢١٢ هـ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

وفي وثيقة أخرى يلاحظ برءة محصل حلب من النهم الموجهة إليه من قبل التجار الأجانب المذكورين<sup>(١)</sup>.

٨- الطاعون: أصيبت إلى أرمت كسب الرزق انتشار الأمراض السارية في حلب ، ومراكز التجارة الأخرى التي كانت تعلق الدس بين الحين و الآخر وتؤثر بدورها على الحركة التجارية، إذ وضعت حداً لكافة الأعمال التجارية ، ففي عام ١١٧٥ هـ / ١٧٦١م اشتكى رجل إنكليزي من مرض الطاعون الذي صرب المدينة (حلب) ، وفي ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣م عطل طاعون قس احتاج كلاً من العراق وإيران بصورة مؤقتة شحن البضائع إلى حلب من تلك لأطراف<sup>(٢)</sup>.

وخلال القرن الثامن عشر عانت حلب من ثمانية أوبئة انتشرت فيها في عام (١١١٨ هـ / ١٧٠٦م حتى ١١١٩ هـ / ١٧٠٦م و ١١٣١ هـ / ١٧١٨م حتى ١١٣٢ هـ / ١٧١٩م و ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩م حتى ١١٤٦ هـ / ١٧٣٢م و ١١٥٥ هـ / ٧٤٢م و ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤م و ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠م حتى ١١٧٦ هـ / ١٧٦٢م ومن ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦م حتى ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٧م و ١٢٠٨ هـ / ١٧٩٣م) أما الأوروبيون الذين كانوا مقيمين في حلب فقد استخدموا الأسلوب الوقائي لمنع انتشار الوباء بينهم، وحددوا اتصالهم بعدد محدود من رعايتهم وشركائهم وإخوانهم في الدين فكانوا يحجرون على أنفسهم في مجمعات حلال أوقات الطاعون<sup>(٣)</sup>.

وسبباً اعتكاف الأوروبيين وعدد من المسيحيين واليهود تراجعت التجارة ، وحتى التجار المسلمين اعتكفوا في بيوتهم عند انتشار الطاعون بشدة ، لهذا لم يصل إلا عدد قليل جداً من القوافل من المدن الأخرى<sup>(٤)</sup>.

كل ذلك انعكس سلباً على التبادل التجاري بين حلب وأوروبا ، مما بين عامي ١١٨٩ - ١٢٣٨ هـ / ١٧٧٥ - ١٨٢٢ م ، فانخفض التبادل التجاري من ٤٦ مليون إلى ٢٣ مليون قرشاً، وميت حلب والمراكز التجارية في وسط سوريا وجنوبها بكساد مريع. وتبعاً لذلك فقد انخفضت تجارة حلب مع أوروبا من ١٨ مليون عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م إلى ١٠ مليون فرنك في الأعوام ١٧٨٣ - ١٧٩٢ م. وإلى ٥ مليون في الأعوام ١٢٣١ - ١٢٣٨ هـ / ١٨١٥ - ١٨٢٢ م<sup>(٥)</sup>.

(١) الفرمان رقم / ١٩٢ / تاريخ الفرمان (١٢١٢ هـ ) ، من السجل / ٢٥ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - ماركوس المصدر السابق ، ص ١٥٩

(٣) - ماركوس المصدر نفسه، ص ٢٥٦ - ٢٥٩

(٤) - راسل المصدر السابق ، ص ٤٣٦

(٥) - غاوية وهبرت: المرجع السابق ، ص ٦٣٤

## ي - الطرق التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها حلب:

الطرق التجارية: إن تنظيم حركة المواصلات بين أوروبا والهند على جسر بري شمال بلاد الشام يربط سواحل المشرق بالحليج ، يدل على أهمية موقع حلب في إطار أوسع نطاقاً وأبعد مدى ، فقد تحولت حلب إلى نقطة تلاقي العديد من خطوط المواصلات العابرة للقاربان<sup>(١)</sup> لم يكن في بلاد الشام كلها سوى طريقين عريضين تستخدمهما القوافل ، وتنتشر على جانبيهما الحانات ، وتحرسهم الحاميات ، وهما يحترقان الولايات السورية من الشمال إلى الجنوب.

وحتى القرن الثامن عشر كانت لا تزال تستخدم فيها بعض الأجزاء من الطرق الرومانية الشهيرة ، وكانت إحدى الطريقين العريضين تمتد على طول الساحل من غزة إلى اللاذقية ، بينما تمتد بموازيها إلى الشرق من سلسلة الجبال طريق القوافل الثانية التي تربط حلب بدمشق عبر حماه وحمص. وكان سلوك هذا الطريق يستغرق من تسعة إلى عشرة أيام.

وفي الشمال كان الطريقان يتلاقيان ثم يتجهن إلى إستانبول عبر بيلس وبباس، وإلى أرمينيا وإيرس عبر كلبس وديار بكر. وفي الجنوب كانت الطريق الشرقية تتجه إلى مكة عبر حوران وشرقي الأردن ، وبين دمشق ومكة مسيرة خمسين يوماً كانت تتجه عبر جسر ذات يعقوب وطبرية إلى نابلس ، ومن هناك إلى القدس لمسيرة عشرة أيام من دمشق أو إلى يافا والقاهرة عبر غزة ومن الشرق إلى الغرب امتدت طريق القوافل من الحصرة وبغداد وإلى حلب ودمشق.

وأخيراً كانت المراكز الداخلية مرتبطة مع المدن الساحلية بطرق قصيرة لمسيرة ثلاثة أو ثمانية أيام، تبعاً لتغير الفصول. منها طريق حلب والإسكندرية عبر إدلب وجسر الشعور مع اللاذقية وطرابلس، وحماة وحمص مع طرابلس ، ودمشق طرابلس وببروت وصيدا، القدس مع صيدا وعكا وباف.

كان يتطلب قطع المسافة من حلب إلى القدس مسيرة لا تقل عن عشرين يوماً وكانت الطرق محفوفة بالأخطار ، ففي الشمال كانت القوافل تتعرض لخطر السلب والنهب على أيدي القبائل الكردية، وفي الجنوب لعصابات البدو.

وفي أواسط القرن الثامن عشر كانت حانات القوافل منتشرة على الطرق الرئيسية ، بفواصل مسيرة نصف يوم أو يوم كامل بين الحان والآخر وكان باستطاعة حانات القوافل الكبيرة استقبال أكثر من ألف رجل بين جدرانها.

وكان المسافرين من لأعيان ومن بينهم بعض الأوروبيين يسعون للحصول على فرمان سلطاني ، يلزم القوافل المجاورة لطريق السفر، بتأمين المأكل والمبيت لمن يحصل عليه مستقطعة من الالتزامات

(١) - غاوية وهيرب المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.

المعروضة عليها<sup>(١)</sup>. ومعظم شبكة الطرق تعود إلى ما قبل الحكم العثماني سلكها الإنسان وروعي هي ذلك . مقر الإنسان والأحوال الاقتصادية والأمن بسبب التضاريس ومجاري الأنهار وغيرها<sup>(٢)</sup>.

وكانت بعض الطرق التجارية تنطلق من المناطق المنتجة للسلع الاستهلاكية لتلتقي في مراكز الحضرية الكبرى ، واشتهرت بعض الطرق المهمة بأسماء سلع معينة مثل (طريق الذهب) عبر الصحراء أثناء العصور الوسطى، و (طريق الحرير) الذي احترق آسيا الوسطى، و (طريق الدجور) الذي عبر جنوب الجزيرة العربية إلى الحجاز. وكان من شأن تلك الطرق التجارية أن تصل دائماً بين التجمعات السكانية الكثيفة والمناطق الاقتصادية الشهيرة ، التي قامت على زراعة لأرض وتربية المشية، فتأتي الرواحل من (إبل وبعال وحمير) إلى المدن ، محملة بالإنتاج الحام ثم تعادها محملة مرودة بالسلع المصنوعة كالنسيج والقمش والجلد المدبوع والحلي والأدوات الزجاجية<sup>(٣)</sup>.

ومن أبرز الطرق التجارية التي تفرعت من مدينة حلب ، كانت خمس طرق رئيسية هي:

- ١- طريق حلب - اللاذقية وهي قصيرة مارة بإذنة وجسر الشغور واللاذقية.
- ٢- طريق حلب - إسكندرية وتعبّر بمر بيلاز ثم تتعطف جنوباً فتقطع جبال طوروس حتى الإسكندرية
- ٣- طريق بري من حلب - قلعة جسر - طرس - نصيبين - الموصل ومنها إلى الشرق حتى للصين والهند.
- ٤- طريق من حلب إلى مسكنة على الفرات ، وتسير النهر إلى أن تصل للخليج العربي ومنه للهند بحراً.
- ٥- طريق يتجه إلى الجنوب نحو دمشق من حلب - فسراقب - فالمعرة - فخال شيوخ - حماة - حمص - فحسيه - فالديك - دمشق<sup>(٤)</sup>.

وسانن النقل: وهي التي كانت تسلك جميع الطرق التجارية محملة بالبضائع التجارية ، هي المشرق العربي طلت الدواب الوسيلة الرئيسة لنقل البضائع حتى ظهور سكة الحديد ، هي أواخر القرن التاسع عشر ، ومن تلك البضائع الأغواص والعوارص الحشوية والريوت والقش والقمح والحديد كلها نقلت على ظهور الدواب، أما الناس فكانوا ينقلون في الهوادج وعلى ظهور البغال والحيل والجمال والحمير وسيراً على الأقدام ، أما العربات ذوات العجلات فقد استعملت على نطاق ضيق . وفي الطرقات الوعرة استخدمت لأبقار في جرها ، وفي الأماكن السهلة والممهدة استخدمت بقية الحيوانات لجرها (مثل الحيل والبغال والحمير) . لا

(١) - سكاك المرجع السابق ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) - اليسيف ، لكتيب طرق المواصلات في بلاد الشام ما بين القرنين السادس عشر والعشرين ، ت: ير الدين الرفاعي ، المؤتمر الدولي للثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١٥١٦ - ١٩٣٩ م ج ١ ، ص ٢٩٤

(٣) - اليسيف: المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(٤) - ريدي ، ردا. للحصائص المعمارية لحلب حلب ، مطبعة جامعة تشرين ، ١٩٩٤ م ، ص ١٣٠ ' بحث أعد لتبيل درجة البكالوريوس في الهندسة المدنية '

سيم العربات داخل المدن ، ولم يكن نقل البضائع على الدواب تحتاج إلى بناء طرق ، فقد كانت المسالك الصيقة التي تستخدمها الدواب تحترق كل المناطق السورية وتربط القرى بعضها ببعض<sup>(١)</sup>.

ومن حلب كانت تنطلق إلى الشرق أيضاً أربع قوافل ، وكانت طريق القوافل بين حلب وبعداد تستغرق

/ ٢٨٠ / ساعة ، وكانت القافلة تصمم عادة ما بين / ٣٠٠ إلى ٤٠٠ / رأس من دواب النقل.

وعلى الرغم من أن عدد الجمال في كل قافلة منها يصل إلى / ١٠٠٠ حتى ١٣٠٠ / جمل ، باستثناء القوافل المتجهة من النصرة إلى حلب ، فكانت تصمم أحياناً ستة آلاف دابة نقل ، وكان وزن حمل الجمل في القرن الثامن عشر يعدر بثلاثمائة كيلو غرام.

وفي المسافات البعيدة التي تريد على / ٢٠٠ / كم كان باستطاعة قافلة واحدة ، أن تضم ما بين / ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ / جمل ، وكانت حلب تتلقى قرابة ستة آلاف طن من السلع بقدر ثمنها بمبالغ كبيرة<sup>(٢)</sup>. وبقيت الدواب حتى منتصف القرن التاسع عشر الوسيلة الشائعة لنقل المؤن والبضائع عن طريق البر ، ومن المعروف أن النقل البري كان عملاً شاقاً وبطيئاً إلى درجة ، أن المسافات كانت تقاس بالأيام وليست بالكيلومترات ، وكانت مدة الرحلة تتوقف على فصول السنة ووعورة المسالك<sup>(٣)</sup>.

وقدر عدد الجمال العاملة على خط بعداد حلب بحمسة آلاف جمل في أوائل القرن التاسع عشر ، علماً أن الرحلة من بعداد إلى حلب كانت آنذاك تستغرق ثمانية عشر يوماً ، أما الرحلة من إسكندرويه إلى ديار بكر التي تبعد / ٢٥٠ / ميلاً فكانت تستغرق ستة عشر يوماً ، في حين كان السفر عبر طريق القوافل الوصل بين حلب وإستابول يستغرق أربعين يوماً ، وتشير المصادر إلى أن أربع قوافل كبيرة كانت تنطلق سنوياً من حلب إلى إستابول خلال القرن الثامن عشر ، وكانت هذه القوافل في أغلب الأحوال تتقل مختلف أصناف السلع الخفيفة مثل : الأقمشة والمنسوجات والبهارات<sup>(٤)</sup>.

كما استفاد منها بدو نادية الشام عن طريق حمايتهم للقوافل ، وتزويدها بالجمال والأدلاء ، وقد بلغ دخل العربان أكثر من نصف مليون قطعة ذهبية سنوياً ، وقد أتاح هذا الوضع للتبدو في بلاد الشام ، أهمية كبيرة في البناء الاقتصادي ، فالقوافل هي الوسيلة الوحيدة للنقل والسفر حتى القرن التاسع عشر ، وكان البدو يتعهدون تلك الحيوانات بالتربية والإكثار منها ، وأوجدوا لهم في المدن الرئيسة وكلاء يتعاقدون مع الراغبين في السفر أو نقل البضائع.

(١) سكيّا: المرجع السابق ، ص ١٩٠.

(٢) - سكيّا. المرجع نفسه ، ص ١٥٧.

(٣) كوفارت ، دويلا الدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، ت. إيس أرملاري ، مكتبة الحبيكان ، الرياص ، ٢٠٠٤ م ، ص ٢٤٤.

(٤) - كوفارت: المرجع نفسه ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

وكانت القافلة تصمم دليلاً بدوياً وحصاً وعدداً من الحراس المسلحين، يمثلون القبائل التي تمر القوافل من منطقتها، ويحصلون مقابل ذلك على مبالغ معينة، وكانت القوافل التي تقطع الصحراء أهم وأكبر من غيرها، إذ كان يصل تعداد جمالها أحياناً إلى ثلاثة آلاف جمل، واستمرت تلك القوافل وسيلة السفر والنقل الرئيسية حتى أواخر القرن التاسع عشر، إذ تآخر مد الخطوط الحديدية في بلاد الشام إلى عام ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م<sup>(١)</sup> وتآخر ظهور السبارات.

**موانئ حلب البحرية:** لم تكن تجارة الجاليات لأوروبية في ولاية حلب تعتمد على النقل البري فقط، وإنما كانت تعتمد كذلك على النقل البحري من وإلى الموانئ القريبة من حلب، ومن أهم تلك الموانئ ميناء الإسكندرية الذي يقع على بعد ٧٠ كم غربي حلب بحط مستقيم، وعن إيطاكية بعشرين ميلاً، واسمها باللغة الفرنسية الكسدرت وبإنكليزية ألكسندريه.

وقد اعتمدت حلب من قبل على ميناء طرابلس إلى أن رفع الإفرنج المتوطنون في حلب معروصاً للدولة العثمانية مدعوماً بيد الأموال لحمل ميناء الإسكندرية يستقبل صادراتهم ووارداتهم إلى حلب، وكان الساعث لهم على ذلك أمران: أحدهما ظلم حكم طرابلس الذين كانوا يتعصبون على تلك النشائج، وثانيها قربها من حلب وحسن موقعها الطبيعي<sup>(٢)</sup>.

وكثر بعد ذلك وجود الإفرنج والروم في الإسكندرية، وكثر فيها الجاسات، وعتاد الغدادي إلى الإسكندرية، أن يمكث ليالي الشتاء في تلك الحانات، حتى صارت تشبه الخانات.

وكان في الإسكندرية وكلاء أو قناصل لسبع دول، أما القناصل الأصليون فكانوا يتمركزون في خان الإفرنج في حلب، ولما كانت الإسكندرية فرصة بحرية وباب تجارة لحلب وصواحبها، وجدت إلى جانب جمرتها مخازن عظيمة، وقام تجار الإفرنج بالبيع والشراء فيها دون انقطاع، وكانت سفن الإفرنج ستة وعشرين مليوناً رأسياً في الميناء، أما بيلان فكانت مركز قضاء يتبع ولاية حلب<sup>(٣)</sup>.

وتميزت الإسكندرية بقربها من حلب وما وراءها من البلاد الممتدة حتى العراق والحجم والهند، أما مينائها فلا يصارعه في حسه أي ميناء في الساحل الشمالي، لوقوعه في خليج مصون من الأنواء، إلا أن هواء الإسكندرية وبل، لوفرة المستنقعات حولها، ولهذا فإن تجار الإفرنج والمرفهين من أهلها لا يمكنون في الصيف إلا سحابة النهار، وفي الليل يصعدون إلى بيلان ذات الهواء الجيد، وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كان موقع

(١) - غرايه المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥

(٢) - العربي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) - زكريا، أحمد وصفي. جولة أثرية في بعض البلاد الشمالية، دار الفكر، ص ١٦ - ١٧.

الإسكندرية الجغرافي، وكثرة توافد سفن البحر وهواقل البر، يريدونها موانئ في العمران والسكان. ولواء الإسكندرية يتألف من ثلاثة أقضية، الإسكندرية وقرق حاس وإطاكية، ولكل منها نواح عديدة<sup>(١)</sup>.

لقد تفوق ميناء إسكندرية على ميناء طرابلس، الأمر الذي أفقد الأخيرة منزلتها في بظر الأوربيين، ورد في الطين بلة المسافة البعيدة الفاصلة بين حلب وطرابلس، إذ كان يلزم الوقت ثمانية أيام من السير لعبورها، إضافة إلى الظروف الخطيرة المحيطة بالطرق المؤدية إلى المدينة، ولقد أمكن للقوفل للقادمة من حلب، بلوغ طرابلس عبر مصر، الأول دلتني بحرق حمص وحماة، والثاني ساحلي يمتد على طول ساحل الشرق.

وكذلك الرسوم الجمركية التي فرضها حكام طرابلس على كل من شاء استعمال مرفأها، وبطراً لبعده هذه المدينة عن حلب عتمد لأوروبيون وعلى نحو مستمر وسري طيح الاسكندرون مرفأاً ترسو فيه سفنهم، وعلى الرغم من أن شاطئ الإسكندرية كان كالمستفيع بكثرة البعوض فيه، إلا أنه كان على بعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من السفر على ظهور البغال من حلب، أصف إلى ذلك موقع إطاكية على هضبة يحلو مطلقها، ويرتاح فيه المسافرين، ويجتوون فيه ملجأ يلودون به من السلاب والتهاب.

وكان للإسكندرية فائدة أخرى تكمن في وقوعها تحت الإدارة المباشرة لحكام حلب، فقرر الأوروبيون حصر تجارتهم المرفئية مع الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.

وكان خليج الإسكندرية يحل في اليابسة ثلاثين ميلاً، وموقعة الجغرافي يدعو إلى تأسيس مرفأ بحري يكون من أعظم موانئ البحر المتوسط. فالإسكندرية موقعها لها محسنت عظيمة فهي المرفأ الوحيد لمن حلب أنطاكية - كليس - عيتاب - مرعش - نورة - الليرة - ديار بكر، ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل، ويمكن بواسطته الاتصال مع الدحل وهو أكبر مرفأ في بلاد الشام لأن بإمكانه استقبال البواخر والأساطيل الصخمة. ولذلك اقتضى أن يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعي للتجارة مع أوروبا والبحر المتوسط<sup>(٣)</sup>.

وكان هناك مجموعة من التجار الذين يفلتون البصائع من وإلى مقاطعات كرك بوبه وبلاوط وبياضي في ولاية حلب عن طريق ميناء إسكندرية وبياس، وأكثرهم من الأوربيين دون دفع الرسوم الجمركية، لذلك صدر أمر بملاحقة هؤلاء التجار ومعههم من تحميل سفنهم بالبصائع، ثم معرفة البصائع التي هربوها لوضع الحجر عليها، وجباية الرسوم مصاعفة، وفي حال ممانعة التجار المشار إليهم إرسال أسمائهم وصرورهم إلى الأستانة للإطلاع والتنفيذ<sup>(٤)</sup>.

(١) - زكريا، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) - ماستر المرجع السابق، ص ٩٥ - ٩٩.

(٣) - كرد علي، محمد خطط الشام، مطبعة المعيد بدمشق، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م، ٦٠ جزء، ج ٥، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) - العريان رقم / ٣٥٩ / تاريخ العريان (١١٥٥ هـ)، من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية بولاية حلب، ص ١٧٧، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

كما سارت السلطنة إلى ضبط تحصيل الرسوم الجمركية عن بضائع ، فأرسل الباب العالي أمراً سلطانياً إلى والي حلب و قصاة بطاكية ويايس وإلى محصل و أمدة الحمارك في حلب وإسكندرونة ويايس ، المتضمن أن البضائع التي تنتج من مقاطعات (كرك بوية بلاموط بياغي قاضي) في منطقة حلب وتصدر إلى الحارح لا تدفع عنها الرسوم كاملة عند نقله بطريق ميناء إسكندرونة ويايس من قبل التجار ، لذلك صدر أمر بتحصيل هذه الرسوم ، وعدم تحصيل البضائع في السور إلا بعد دفع الرسوم بشكل مصاعف<sup>(١)</sup>.

لذلك صدر فرمان سلطاني يطالب بالحرص عند انتقاء الأسماء لتحصيل الرسوم الجمركية عن البضائع الصادرة والواردة إلى ولاية حلب بواسطة ميناء إسكندرونة<sup>(٢)</sup>.

وعلى مدى أربع سنوات امتدت ما بين ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م و ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م كانت هناك ٦٢ سفينة أوروبية لا تزال تعرج على ميناء إسكندرونة ، ٢٧ سفينة منها من مرسيليا و ٨ من ليفرنو و ٥ من هولندا و ٥ من البقية وفي الفترة نفسها الممتدة ما بين عامي ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م و ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م و ٦٨ قافلة لنقل البضائع على الطريق الممتد ما بين حلب وإسكندرونة ، صمد كل واحدة منها ٢٥٠ - ٢٠٠٠ جمل<sup>(٣)</sup>.

كما سعت السلطنة العثمانية لضبط لأمن وتوفير الحماية للتجار والمسافرين من وإلى ولاية حلب ، عن طريق ميناء إسكندرونة ، ولذلك صدر فرمان سلطاني موجه إلى قصاة بيلان ويايس يتضمن تعرض التجار الأوروبيين أثناء تحميل ونقل البضائع في الميناء المذكور للاعتداء عليهم ، من قبل المدعو دانيال وبعض الأشقياء معه ونهب البضائع. مما تسبب بضرر في الميناء ، وألحق قصاً في إيرادات الجمرك عليه. لذلك يجب إحصال دانيال والأشقياء وسجنهم ، وإعادة لأمن الاستقرار<sup>(٤)</sup>.

وفي أواخر القرن السابع عشر وحال القرن الثامن عشر ، تحول قسم من عمليات حلب التجارية إلى اللادقية ، التي تبعد عن مدينة حلب مسيرة أربعة أو خمسة أيام ، ووفقاً لمذكرات البريطاني موندريلا عام ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م كانت اللادقية مدينة مزدهرة ، ويعود الفضل في إبعاشها إلى قنلان أغاء وكان رجلاً غنياً قبض على رمام السلطة في هذه المدينة ، وكان مولعاً جداً بالتجارة.

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧٣٥ م غير ممثلاً قريباً في اللادقية ، لأن فرنسا أولت اهتماماً خاصاً لتجارة الحرير الخام عبر هذا المرفأ. وفي عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م طلب الفنصل الفرنسي في حلب من حكومته

(١) - الفرمان رقم / ٣٦٠ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) ، من السجل / ٤ / بالأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٧٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٢) - الفرمان رقم / ٣٢٠ / تاريخ الفرمان (١١٨٣ هـ) ، من السجل / ٨ / بالأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - غاوية وفيرت: للمرجع السابق ، ص ٦٢٠.

(٤) - الفرمان رقم / ٢٩٦ / تاريخ الفرمان (١١٥٥ هـ) ، من السجل / ٤ / بالأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٩٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.



تعيين نائب للعصر في اللادقية ، ولكن طبعه لم يتحقق إلا بعد ثلاثة وعشرين عاماً<sup>(١)</sup>. ولذلك كان تجار حلب يولون أهمية للادقية ، وإن كان الطريق إليها أبعد من غيرها ، وذلك لأمن طرقها ، رغم أن هذا أبعد من طريق حلب - إسكندرونة<sup>(٢)</sup>.

.....

(١) مسكاتب المرجع السابق ، ص ١٧٥

(٢) - الحميني: المرجع السابق ، ص ١٨٥.

## الفصل الثالث

### الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب

أماكن السكن.

حياة الجاليات الخاصة.

علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها .

علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية العثمانية في ولاية حلب .

علاقات الجاليات الأوروبية مع القوى الاجتماعية المحلية في حلب.

كانت الجماعة المعقمة من التحار الأوروبيين والوكلاء التجاريين ، الذي يعود وجودهم في حلب لقرون عديدة ، كبيرة وواضحة ، ففي القرن الثامن عشر تجاوز حجمها مئة شخص ، معظمهم من الفرنسيين والإنكليز يتبعهم القليل من التجار الإيطاليين والهولنديين

عاشوا في حلب كمواطنين أجنب محميين بامتيازات خارجة عن التشريع الوطني ، وهذه الامتيازات نصمتها اتفاقيات بين الحكومات الأوروبية والسلطنة العثمانية ، وأهمها معاهدة لامتيازات (Capitulation).

أما قنصلتهم في حلب فكانوا يمثلون مصالحهم التجارية وقصايتهم الشخصية أمام السلطات الحاكمة، رغم أن بعضهم أقام لمساكن عديدة في حلب، لكنهم بقوا غرباء عن مجتمعها. ولم تكن بالنسبة لهم سوى محطة عمل مؤقتة، وبلد إجنبي عاشوا فيه مرتحين، وكانوا دائماً تواقين إلى أوطانهم، وقلة منهم اقتصرت زوجاتهم معهم، أو تزوجوا من نساء محليات مسيحيات، وكانوا يعيشون في نزل عديدة (الخانات) في قلب المنطقة التجارية، بعيدين عن المناطق السكنية للسكان المحليين، كما أن قلة منهم تكبدوا عاء تعلم اللغة العربية، لأن الوسطاء المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدوهم فيما يخص تعقيدات العمل اليومية<sup>١</sup>.

لم تكن الجاليات الأوروبية في ولاية حلب مهمة فقط بالنشاط التجاري ، والحصول على البضائع والأرباح فقد كان للحاليات حياتها الاجتماعية التي تشبه إلى حد ما حياة سكان الولاية المذكورة

فقد اهتمت بأماكن سكنها (الحانات) من حيث إعدادها وتأمينها بشكل يومي كل وسائل الراحة ، كما اهتمت الجاليات بتوفير السعادة والبحث عنها في مولد الطعام والشراب والدرجات في صواحي حلب ، وإقامة الاحفالات الوطنية والدينية وحفلات التسلية ، وسعت لإقامة علاقات حميمة فيما بينها ، ومع سكان حلب من مختلف الطوائف (الإسلامية والمسيحية واليهودية) ، وكل ذلك للتخفيف من حدة الشوق والحنين إلى أرض الوطن (أوروبا) وفيما يلي سنبسط بعض النواحي الاجتماعية لتلك الجاليات بدءاً من.

## ١ - أماكن السكن:

لم تكن تلك الأماكن متجمعة في مكان واحد حاص. وكان جل اعتمادهم في سكنهم على خاناتها التي كانت مبعثرة في مدينة حلب ، ولم يكن سكن هذه الحاليات وقفاً على هذه الحفة فحسب ، بل كانت حلب منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تعتبر أهم العقد التجارية بين الشرق والغرب ، وأول من جاءها من العرب متجاراً البنادقة والفرنسيون ، حيث أقاموا فيها المكاتب التجارية ، ثم جاءها الإنكليز في القرن

(١) - ماركوس ، المصدر السابق ، ص ٥٨

السادس عشر وتلاههم الهولنديون ، وتنازل بعض أفراد الجاليات الأوروبية في حلب وعدوا كأنهم من أهلها ، وكان من الطبيعي أن تكثر في حلب الخانات كمساكن للتجار الإفرنج<sup>(١)</sup>.

فالدور السفلى من كل حان كان معداً لإيواء البضائع والرواحل ، أما العليا فكانت مخصصة لسكن التجار طيلة إقامتهم في حلب الشهباء.

وكانت غرف النوم تشبه إلى حد بعيد غرف الفنادق ، أي أنها كانت متسلسلة ، بعضها بجانب بعضها الآخر ، يمتد أمامها رواق طويل يشرف على أرض الحان ، وكان قسم من تلك الغرف مخصص لمبيت كبار التجار والقناصل ، يمتاز عن القسم الآخر الذي يبرز فيه الوافدون العاديين.

وكان لكل جالية أوروبية حان خاص لنزولهم فيه ، فيستقبلهم ويكفلها ومعاونوه يحتفون بأبناء قومهم ، ثم يودعونهم مروجين ببعض الهدايا التذكارية من صنع حلب.

وكلمة حان<sup>(٢)</sup> فارسية وتعني بيت ، وخان التجار كم يقول " محيط المحيط " منزلهم للتجارة ، وحان المسافرين هو محل نزولهم. وقد دخلت هذه الكلمة إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية منها إذ أن (Kan) الفرنسية تعني محط القوافل. وكان في حلب عام ١١٤٥ هـ / ١٧٢٣ م أربعون حاناً تعصر بالوافدين من أوروبا وبلاد فارس وأنداء السلطنة العثمانية وغيرها<sup>(٣)</sup>.

كما تعود الحانات في نشاطها إلى عهود قديمة ، ولعب بداية ظهورها كان انطلاقاً من إقامة الآبار وما حولها من سراج على طرق القوافل ، ثم تطورت إلى الأبنية الصالحة والحمة المزودة بكل وسائل الراحة والأمان.

وكانت الحانات تقام على طريق القوافل على مراحل محددة ولمسافات معينة، ولا تستغرق أكثر من مسيرة يوم واحد بين الحان والذي يليه صمماً لراحة المسافرين وحفظاً على أموالهم وأرواحهم من عناءات وعث قطاع الطرق واللصوص. كما أقيمت داخل المدن وعلى أطرافها أيضاً ، فكان لها دور مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في التاريخ الإسلامي ، ففيها كان يلتقي التجار ليتبادلون السلع ويتقابل المسافرون فيتبادلون الأخبار والقصص

(١) - حلاق ، عبدالله يوركي حطياب ، مجلة الصدا ، حلب ، ١٩٨٣ م ، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) الحان أصل الكلمة فارسي وهناك من قال أنها تعني الحانوت أو المتجر ، أو منزل للمسافرين ويرادف كلمة الخان أيضاً الوكالة أو القنصلية ويذكر خير الدين الأمدي في موسوعته " ومشي هذا الدرر بالحن لأنه يبينه الحان أعني الملك " كما سميت بـ " القنصلية " لأنها منسوبة إلى القنصلية فهي محطة بالحن حياً وبورها مختلف كثير عن الحان. انظر عبدالله حلاق حطياب ، للمرجع السابق ص ٧٦.

(٣) حلاق: المرجع السابق ، ص ٧٦

كان يقوم عليها إداريون مهمتهم تجهز النزلاء بما يحتاجون من مبيت وطعام. وعمال تلقى عليهم مهمات تنظيم الحار وتنظيفه ، كما تصمم الحانات الكثير من المرافق كالمحزن بتحرين السلع ، وحوض الماء ، وحضائر للماشية ، إضافة إلى المسجد والكنيسة والكيس وغرف المدمة<sup>(١)</sup>.

وهي الحقيقة ازدهرت الحانات التي تسمى الوكالات في العصر المملوكي ، لكن العناية الخاصة بالحانات ازدهرت في العصر العثماني بسبب توسع وإزدياد المبادلات التجارية بين البلاد الخاضعة للسلطنة العثمانية. ونظراً لأهمية حلب التجارية فقد كثرت فيها الحانات ، فهي تصمم مجموعة من هذه المباني المتميزة التي تشتهر بواجهاتها المربعة برحارف بديعة ، ومداخلها القوسية الضخمة ، وتعلق بواسطة مصراعي باب حشي مصنوع بالحديد والنحاس ، وفيه باب صغير للدخول في حين يعلق مساءً.

من حانات حلب يشبه بعضها البعض من حيث التخطيط والتقسيمات المعمارية ، كما أن أغلب واجهات تلك الحانات مزودة برحارف حجرية وهندسية ونائبة تدل على روعة الفن والصناعة.

لقد كانت الحانات في حلب منذ القرن السادس عشر وحتى العقد الأول من القرن العشرين مكاناً للسكن الدائم ، والذي كان ضرورياً حتى القرن التاسع عشر للتجار الأوروبيين الذين كانوا يشكلون مجتمعاً صغيراً ينتف حول العنصر ، وأمكن صغيرة للإرساليات الدينية التنصيرية ، في الواقع لقد تلائم هذا النموذج المعماري لكونه مرتبطاً بالمشاغل والمحطات التجارية ، مع سبق جديد وهو الحانات

ونائي أهمية هذا التطور المعماري في حلب بشكل خاص ، من دورها التجاري الاستثنائي من جهة ، ولكثره عدد التجار سبياً الذين مارسوا مشاغل فيها خلال عدة قرون من جهة أخرى لقد حول التجار الأحياء هذه الأمكنة المعقدة إلى سكر له طابع لأبدية ، مظاهره مميزة ومختلفة عن المنزل المدي التقليدي ذي المسحة الداخلية.

لقد أظهر الوصف القديم وبالتحديد وصف الطبيب راسل في منتصف القرن الثامن عشر ، أن هذا السكن اكتسب معظم ملامحه في تلك العصر. حيث وصف راسل بشكل دقيق صيرورة تحول الحانات إلى شقق ، وقد ذكر عدداً من السمات الأساسية لهذه العمارة ، وبدأ بوصف الشكل الأصلي للحار ، فقد حصص الطابق الأول لاستقبال المسافرين الذين يستأجرون العرف بسعر رهيد ، كما يوجد في الطابق الأرضي ممشي مفتوح توصل إلى صف من العرف ، والإضاءة في معظم هذه الشقق أقل منها من الطابق الأرضي الذي تندر فيه النوافذ في الحلف ، أما السجاد فكان هو الأثاث الأساسي في الحانات. كما وصف منازل الأوروبيين بأنها وحدات مستقلة منازلهم واسعة وعملية، حيث يشغل لمزل نصف وأحياناً كامل جانب مربع المساحة. الرواق مسقوف ، وبوافت كبيرة على النمط الأوروبي تفتح على الساحة ، أما الأرضيات فهي مرصوفة بالحجر والمرمر ، الشقق واسعة ومفروشة بصفاً ، والمكاتب التجارية في الطابق الأرضي. وأصبح الممشى هو

(١) - فارس ، محمد كمال. حانات حلب، مجلة اقتصاديات حلب، عدد ٣ ، دار الوفاء للطباعة، حلب، ١٩٩٢ م، ص ٥٥ - ٥٦

العنصر الأساسي في تنظيم الحيز السكني، لأنه يعد مساحة دائرية جامعة ، مساحة شبه عامة ، مستقرة ومحيطية مفتوحة بشكل واسع على الساحة بأقواس ، أصبح مساحة داخلية للتوزيع ضمن شقة ، ولم يعد مساحة جانبية بالنسبة للمساحة وبالنسبة لمجموعة الحجرات التي تقضي إليه ، بل أصبح مساحة محورية بفصل القيام بعدة حل تنظيمية ، وخاصة في التوزيع وشكل الفتحات المتناظرة على طرفي الممشى بحيث تكون أبواب العرفة مواجهة للتوافذ المفتوحة على الساحة حتى الجانب الآخر<sup>(١)</sup>.

أما التعبير الثاني والمميز الذي وصفه راسل هو معالجة الأرضيات ، حيث استعاض عن البلاط الحش والبسيط المتواتر التكرار ، ببلاط أملس ومرمر أكثر بغاوة وجمالاً. وكانت الرسومات على المرمر عبارة عن مربعات وأشكال هندسية تدل على المركزية وانعلاق العرفة وعلى تنظيمها الدائري ، كما تتم إلحاق قسم من الممشى الذي كان معرولاً بشكل كامل عن باقي السط التكراري والمتصل للخارج.

والسمة الثالثة التي لاحظها راسل هي أهمية الديكور والأثاث ، فقد كانت المفروشات في الأماكن الحلبية بسيطة بينما كانت في منازل الأوروبيين أبهى<sup>(٢)</sup>.

وقد أدخل الأوروبيون بعض التعديلات على القسم المخصص لسكنهم ، بحيث يتلاءم مع حاجاتهم ودوقهم الفني ، وبصم لهم الراحة ووسائلها. فالأروقة التي تطل عليها الغرف ، أحاطوها بحاجر حديدي منحرف "فرايزون" على النمط الإيطالي ، لتكون أسطحه يتزهون فيها ، وفتحوا نوافذ واسعة ، على النمط الأوروبي مظلة على الباحة ، كما حولت بعض الغرف إلى مطابخ<sup>(٣)</sup>.

وبذلك درج التجار الأوروبيون على إقامة في الطبقات العلوية من خانات المدينة بحثاً عن الهدوء ، وبعداً عن ضوضاء الحركة التجارية اليومية وصحيتها<sup>(٤)</sup>.

ومن أبرز حانات حلب خان الجمرك ، وقد تركه الفرنسيون وسأجروا حن الحبال لسكنهم واستعمالهم الخاص ، وسكن قنصلهم في مبنى مجاور ، وكان يسمى حان الفرنسيين. يعد خان الجمرك أوسع خانات حلب شهرة في عالم التجارة ، بل في العديد من بلدان الشرق والعرب ، فقد كان منذ القرن السادس عشر ، مقر التجار الأجانب<sup>(٥)</sup>. وهناك خان البنادق وهو حان مهم ، يقع قرب الجامع الكبير، وكان يشغله البنادق وقنصلهم<sup>(٦)</sup>.

(١) - دافيد ، جان كلود : إقامة تجار الجملة في خانات حلب ، ت. غاده الحسين ، مجله الحوليات ، المرجع السابق ، ص ٣٥٠

(٢) - دافيد : المرجع نفسه ، ص ٣٤٩ - ٣٥١

(٣) - الصباغ : الحوليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٥٦.

(٤) - بروبي : المرجع السابق ، ص ١٤٤ - ١٤٥

(٥) - حلال : المرجع السابق ، ص ٧٦

(٦) - قلعة جي : المرجع السابق ، ص ١٦٢.

وخان التورير، الذي يقع بين قلعة حلب والجامع الكبير، بقي في العصر العثماني عام ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٣ م، ويعد من أشهر حانات حلب، ويمتاز بواجهاته الداخلية والخارجية المرخرفة، وبوابته الصحن الجميلة، وبواقفه العبية بالرخارف، وهو نموذج رائع لحانات حلب، له صحن سموي واسع، تحيط به المستودعات والمحارر النجارية، وفي الطابق العلوي مظل على الصحن بواسطة منسلة من القناطر، وبلي الرواق غربا ومستودعات<sup>(١)</sup>.

وقد تحول الحان إلى حارة أوروبية مغلقة، تحوي التجار والمثريين ورجال القنصلية، وفاقت حلب بذلك جميع مدن السلطنة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

ومن جهة أخرى وفرت السلطنة الحماية لأماكن سكن الجاليات الأوروبية، هي أحد بدود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م بين السلطنة العثمانية وفرنسا يلاحظ عدم السماح لموظفي الباب العالي ورجال القوى المسلحة أن يدخلوا بدون سبب ضروري بالقوة بيتا يسكنه شخص فرنسي. وإذا دعت الحالة السحول يعلم بذلك السفير أو القنصل إذا وجدا في محل الحادثة، ويكون الحضور إلى ذلك البيت المنوه عنه مع الأشخاص الذين عيّنهم السفير أو القنصل لينوبوا عنه، وإذا حالف أحد هذه الأحكام يعاقب على ذلك<sup>(٣)</sup>.

تزود الكثير من الحانات بحارات مياه كثيرة توجد تحت الأرض تدعى (صهاريج)<sup>(٤)</sup>. وتزود بعض هذه الصهاريج بالمياه بواسطة الأنابيب الموصولة من الفة مباشرة إلا أن معظمها يملأ في أوائل الربيع بواسطة السفانين. وبعد ملء الصهاريج بالماء، تغلق فتحتها، وتحفظ المياه فيها حتى الأشهر الحارة، وتسحب بواسطة وعاء رصاصي وحمل. وتكون لذيذة وباردة، وتستمر على هذه الحالة طوال الصيف<sup>(٥)</sup>.

(١) الحمصي المرجع لسبق، ص ١٣٦

(٢) الأسدي المصدر لسبق، ص ٤٧

(٣) - المعاهدة ١٧٤٠ م المرجع لسبق، البند ٧٠

(٤) - يسمى للصهاريج تحت أرض الحن ويشكل منن، والصهاريج فتحات للتهوية كي لا تصيح المياه آسنة، كما يتم تنظيفها بشكل دوري

(٥) - رسل المصدر لسبق ص ٦٣.

## ب - حياة الجاليات الخاصة:

كانت الجاليات لأوروبية في ولاية حلب تشكل مجتمعاً صغيراً ، ولهذا المجتمع حياته الخاصة يتميز بها عن المجتمع المحلي ، فلم يسس أفراد الجاليات لأوروبية حياتهم الاجتماعية رغم تعقيدات العمل التجاري وصعوبتها ، فكانوا يستغلون جميع الفرص ليمصوا أوقات سعيدة من خلال قيامهم برحلات وبرهات حول مدينة حلب إلى بعض المواقع الأثرية القريبة والبعيدة ، وأيضاً رحلات الصيد والفصص ، وإقامة الولائم الفاخرة العبية بمختلف أنواع الأطعمة ، عدا عن ممارسة بعض الألعاب الرياضية وألعاب التسلية الأخرى. فمثلاً في مجال:

٦٧٥٢٩٦

### النزهات وحفلات الصيد:

كانت بعض الجاليات الأوروبية تنظم رحلات للصيد والفصص ، كانوا يخرجون إلى الريف المجاور ، ليصطادوا الحيوانات البرية. حيث كان القنص يجري بشكل جماعي ، أو إفرادي الأمر الذي يعرض بعضهم لاعتداء قطاع الطرق.

ومع ذلك كان الإنكابر أكثر الجاليات اهتماماً بحفلات القنص ، لأنهم كانوا لا يتلقون قوافلهم الحربية إلا مرة واحدة في السنة ، فلا عمل لديهم إلا ثلاثة أشهر، أما بقية العام فيقصونه بالتسلية والترويح عن النفس. لذا نظموا أوفاتهم تنظيمًا حسنًا ، فكانوا يخرجون مرتين في الأسبوع إلى ضواحي المدينة ابتداءً من شهر تشرين الثاني إلى نهاية آذار، وكانوا يمتطون الحيل العربية المطهمة التي كانوا يعتنون بها عناية فائقة. وكانوا يأخذون معهم كلابهم وسورهم. وكانت رحلات الصيد والقنص هذه رياضة جسدية ضرورية بالنسبة لهم ، وترقيتها نفسياً لا غنى عنه<sup>(١)</sup>.

وامتلك الإنكليز الحيل الحميلة وقاموا بالنترة على ظهورها مرتين أسبوعياً ، وتناولوا طعام العداء هناك ، بعد تشييد خيمة كبيرة في موقع جميل خارج المدينة وعلى بعد ٤ - ٥ / أميال منها.

وكان طبائهم يصطحب كل ما يحتاجه من أدوات المطبخ ويتجه إلى المكان صاحياً مع الحماليين الذين أعدوا موزن المطبخ ، وحملوا البسط والكراسي والطاولات التي يمكن طيها، وكان بإمكان الطبايح أن يقلعي ويشوي ويطنخ الأطعمة في العراء وبأقل أنية، وتجهيز ٥ - ٦ / أنواع من الأطعمة بكميات كبيرة، ويساعده ٢٠ / شخصاً للخدمة، وهي حالة لا يمكن للطبايح الأوروبي إنجازها لوحده. وكانت تشاد الخيمة عامة على المرح قرب نهر أو يسوع ماء، وكان يسوع رجب باشا من لأمكنة المسرة الذي يسميه السكان المحليون "العين المباركة"، ولكن يتغير موقع الخيمة لتعير المنظر العام أو لتأمين حاجات الجماعة التي خرجت إلى الفصص صاحياً، ويصل الجميع عند الظهر ، وتصفد أرجل الحيل بالحديد، وتترك للرعي في المواقع القريبة،

(١) - الصياغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٠٠ - ٧٠١.



ثم نوصع الصفور وكلاب الصيد قرب الحيمة، وتعلق مختلف أنواع الطرائد على مدخل الحيمة. ويكون الطقس جميلاً في معظم الأحيان، وتلئس الطبيعة حلة حصراء بعد الأمطار الحريفة وتظهر اليراقق الصفراء الفارسية في الأراضي المحروثة، ولا تتعري الحقول من هذا الجمال حتى فصل الشتاء<sup>(١)</sup>

وكانوا يصيدون من الطيور اكم الكثير هي أوائل الحريف وأواخر الربيع وكذلك الطرائد من غرلار وأرانب حاصلة بالكلاب والبراة<sup>(٢)</sup>. وكان الإنكليز في ذلك القصر طريقة طريقة يمكن تلخيصها فيما يلي: إذا يقف عشرون أو ثلاثون فارساً (وفيهم الحدم) صفواً واحداً، وفي حظ مستقيم، يفصل أحدهم عن الآخر سبع أو ثمانية أقدام، وهو ما يعرف عندهم بالبرابر<sup>(٣)</sup>. ويقف عند كل من طرفي الصف حادمان رجلان، يمسك كل منهم برمام كلين (سلوقيين) ويتقدم الجميع البازيار (حامد الباز) وقد امتطى جواداً ووقف على بضع خطوات من وسط الصف

أما مهمة اكتشاف الطرائد فمبوبة بفادة الكلاب، ولهم في ذلك حظ غريب تشجده المكافآت التي ياتونها كلما أحسنوا النسيب، والشعار المنفق عليه بينهم، وعدد العثور على الطريدة، ينادون بحرص وتحفظ "ياتو"<sup>(٤)</sup> ومعاه نائم أو نائمة. فإذا سمعها الصيادون أحد صفعهم يتحرك نائناً إلى الأمام. حتى إذا اعتقوا أن الطريدة أصححت في متناول أيديهم أرسلوا إليها كلباً أو كلبين من الكلاب القريبة منها، وانطلق على أثر الكلبين حامل الناري معيراً ومحرراً نازحاً، ويتبعهم من أحب من جماعة الصيادين. وعمل الباري في الصيد هو أن يحول دور فرار الطريدة، وذلك بأن يصعق بجناحيه أو محالبه على وجهها صفعات متتالية يرتفع أثناءها قليلاً، ليعود إلى الصفع بعزم جديد. وهكذا دواليك، حتى تصطرب الطريدة وتحتفي أمد عينها معالم الهرب، فتأتي الكلاب وتقبض عليها حية<sup>(٥)</sup> وينتهي الصيد قبل الظهر، ويولي الصيادون وجوههم شطر المحيم، حيث يكون طهانهم وخدامهم في انتظارهم، وقد انتهوا من إعداد الطعام، وتهية السرايق لاسراحة ساداتهم بعد الطعام، فيدخل هؤلاء السادة السرايق ويتناولون ما على المائدة المنصوبة في وسطه من شهية المأكول وسائغ المشروب، بينما تمرح حيولهم على بعد خطوات من محيمهم، ولقد قيدت منها الرجال بسلاسل حديد، وتقف الكلاب والبراة حول الحيمة تحرس الصيد<sup>(٦)</sup>

وكانت الفصول التي اجتارها الإنكليز لنزهاتهم هي أجمل فصول السنة في حلب، حيث تكون السماء صافية باهرة الصياء، وأمطار الحريف تحلج على الحقول المحروثة ثوباً أبيضاً من الحصرة النضرة،

(١) سورميان المرجع السابق، ص ٣٧٠ - ٣٧١

(٢) البراة: معرده بار، وهو طير يستعمله الأوروپيون للانصاص على الطرائد لتقبض عليها

(٣) البرابر: نقطة تركية من أصل فارسي يراد بها للتناقص والتماثل والتلازم

(٤) ياتو: لأرجح أنها مقتبسة من لفظة "ياتور" صيغة الحال التركبة من مصدر "ياتوق" الذي يعني النوم أو الاصطجاج

(٥) قسطول: المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١

(٦) قسطول: المرجع نفسه، ص ٥١ - ٥٢

تظورها أرهار السوس العجمي بصورتها الزهية الفاقعة ، ولا تحلو الطبيعة هنا (حلب) حتى في قلب الشتاء من بعض الجبال. ولكن سحرها وفتنتها إنما يتجليان في فصل الربيع ولا سيما منتصف آذار يوم ترتدي الأرض حليتها الحصرية الرائعة البهية من أرهار الحقول ، وأنواع الأشجار متنوعة الصور والألوان ، حيث القطعان تترعى على صفاف نهر قويق ، والقوافل تمر أحياناً على مرأى الجالسين في السرائق ، فتزيد المشهد جمالاً في مختلف فصول السنة.

وكان التجار البريطانيون في شهر نيسان يخرجون إلى البساتين الواقعة قرب باب الله ، وبفنون هناك حتى نهاية شهر أيار ، ويتجه بعضهم إلى المدينة صباحاً ليعودوا ظهراً أو مساءً بعد قضاء بعض الأعمال. وحلال الصيف كان الأوروبيون يتناولون طعامهم في بعض الأحيان في البساتين ، بالقرب من المدينة أو تحت الحيمة ، غير أن هذه الرهات لا تكون ممتعة جداً ، وذلك لاستحالة إيجاد طريقة تفهم من شدة الحرارة وإزعاج الذباب ، بالإضافة إلى عدم توفر مكان لأحد الفيلولة المعتادة<sup>(١)</sup>

وبيوت الإنكليز الريفية مريحة، ويمكن جعلها أكثر راحة بسهولة ، لأن الفرجة يعدون أنفسهم مسافرين في كل لحظة ، ولذلك لا يصرفون كثيراً على هذه البيوت ، وهي ليست ملكاً لهم في الأصل.

ويظهر مما سبق بأن الإنكليز كانوا يتمتعون بالرهات بشكل كاف ، لأن حياتهم التي كانوا يعيشونها قليلة الحركة ، لأنهم يقضون ساعات طويلة في مكائهم ، ويمشون بكسل على الشرفات ، ومن رصاصاتهم أيضاً الدوران حول باحات بيوتهم وركوب الخيل<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن تلك الرهات حرج المدينة مقصورة على الجالية الإنكليزية فحسب ، بل قامت الجاليات الأوروبية في حلب بذلك فنزهة الفرنسيين كانت تقصد بشكل خاص " نكية الدراويش " في منطقة شيخ أبي بكر ، حيث كانوا يطلقون إليها مع صيوفهم ، أما فصلهم فكان يذهب أحياناً للراحة والاستجمام في حديقة المعني<sup>(٣)</sup>. وحسبنا في هذا المجال ما جاء لدى القنصل الفرنسي في حلب آنذاك دارفيو الذي وصف كيف قام برحلة منمنماً حصانه للمرة الأولى رفقة جماعته الفرنسيين والهولنديين حول أسوار المدينة، ودهابهم للاستراحة في دير الدراويش يسمى الشيخ أبو بكر ، وهو صرح جميل جداً ومتين البناء كما وصف استقبال كبير الدير له بحزام في قاعة كبيرة مهيبة ، وتناول أطراف الحديث معه لنصع دقائق ، وشرب القهوة ثم قام بزيارة مدفن الدير وآثاره الأخرى ، ويقول أن رجال الدير كانوا مؤدبين وطيبين جداً ، وبعد رش العطور تم وداعهم ليعود دارفيو ومرافقوه إلى المدينة<sup>(٤)</sup>.

(١) - رسالة المصدر السابق ، ص ٢٥٦

(٢) - سورميان المرجع السابق ، ص ٣٧٠ - ٣٧٢.

(٣) - المصدر: للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٤.

(٤) - سورميان: المرجع السابق ، ص ٣٩٣

أم البنادقة والهولنديون فلم يكن بهم مكان خاص بهم ، وإنما كانوا يشتركون مع الفرنسيين أو الإنكليز في برهاتهم ، وبعض هذه الزهات لم تكن تحلو من بعض المعصات ، من قطاع الطرق والبدو ، وكان يجري أثناءها تبادل لإطلاق النار ، ويسقط جراء ذلك بعض الحرحى ، وتحتج الجاليات وتهدد وتتوعد ، لكن دور جدوى !

ولم يكتب أعضاء الجاليات الأوروبية بالبرهات ورحلات الصيد حول المدينة فقط ، بل كان فضولهم وحب الاستطلاع أو الدراسة يدفعهم للبحث عن المناطق الأثرية وزيارتها للتعرف على معالم البلاد الحضرية ، وأكثر الجاليات اهتماماً بهذا الأمر كان الإنكليز ، الذين شكلوا مجموعات تخرج لزيارة قلعة القديس سمعان العمودي ، وصعاف الفرات ، وإنطاكية وغيرها من المواقع الأثرية التي أثارت فضول السائح ، ومما يجدر ذكره أنه من حار الحاسين أطلقت مجموعة من النجار الإنكليز عام ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م لاكتشاف تدمر ، لكنهم تعرضوا لعنواں البو ، وتم احتطافهم ، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا العدية المطلوبة. وقد عادت المجموعة نفسها إلى تدمر بعد / ١٣ / عاماً بصحبة العس هاليعكس ، الذي قام بسمح أول ثلاث كتابات ، أدت فيما بعد إلى فك رموز الكتابة التدمرية عام ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م من قبل العالمين الأب بارثلمي الفرنسي و سوينر الإنكليزي<sup>(١)</sup>. ومن كل ذلك يتضح أن الجاليات الأوروبية لم تكن لتتمتع بحرية الإقامة في أرجاء الدولة العثمانية فحسب ، وإنما بالنقل والنجوال في جميع جيباتها ، وإن كان عليها أن تنال تصريحاً خاصاً لزيارة القلاع وبعض الأماكن الأثرية ، من حكام المناطق<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال رحلة قام بها الهولندي كورنوليس دوبرويجن إلى حلب ١٠٩٤ - ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٢ م وأقام فيها أحد عشر شهراً شارك خلالها في حياة الأوروبيين في المدينة ، وجمع قطعاً أثرية يونانية - رومانية ، كما قدم وصفاً عن حياة الأوروبيين الاجتماعية ، ويقول : " يوجد في حلب أنواع عديدة من الطرائد ، وهذا ما أتاح للأوروبيين ، مجالاً للتسلية في الصيد ، إما بإطلاق الدار على الأرانب والحجل (تسلية شارك بها أحياناً) ، أو بالقص بواسطة البار ، وهي طريقة في الصيد تعجب العثمانيين كثيراً. وفي يوم كنت أشارك في الصيد بعض العثمانيين والإنكليز ، بعيداً بما فيه الكفاية عن المدينة ، على أطراف النهر ، الذي يمر قرب هذه المدينة (نهر قويق) ، قام أحد العثمانيين بإطلاق الدار على إوزة ، وهذه بمجرد ما أبصرت البار غصت في الماء. وبعد قليل مر سرب من الطيور الضخمة ، يشبه الإوز البري يطير فوقاً على علو شاهق. فأطلق ياز ، عاد بعد قليل بواحدة منها إلى الأرض. وإن مثل هؤلاء الداهيين إلى الصيد لا يظعمون بكثير مماكد بأمله ، من المتعة والحركة ".

(١) للصباح ، الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٥.

(٢) - حجاز إصاءات طبية ، المرجع السابق ، ص ١٠١

(٣) للصباح ، الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٦

ويرتفع قائلاً (وللإنكليز صيدهم الممتع مع كلابهم (السلوقية) ، ويعومون به عادة مرتين أسبوعياً. يداؤون خارج المدينة قليلاً ، ويصلون حتى الجبل الذي يدعونه بالجبل الأخضر ، وحين يبهوس الصيد ، يتناولون طعام العشاء تحت حيمة كبيرة يحملونها معهم. وكل واحد منهم مضطر لأن يحمل معه طعامه الحاصر ويبده ، بصعور الطعام سوية لينتمتعوا بالصيد. وكان يوجد في الجالية دائماً واحد يحمل اسم "كابو" فهو بمثابة رئيس المجموعة ، وبنديه معاونان وحارر. ليس عدوه في إدارة العمل بشكل دوري ، وينتخب دائماً من جديد ، ويتم الانتخاب بأكثرية الأصوات ، والعائز بذلك يرفع فوق أكتافهم ويقبلونه إلى القنصل الذي يشارك عادة في حفلة الصيد هذه ، وكل واحد يعد لاعتزاز به رئيساً عليهم خلال كل العام ، والكابو الذي يعترف بهذا الشرف ، وخلال أول حفلة صيد تجري ، يلتقي على الجبل الأخضر بالجالية وبالقنصل وكل الأفراد الذين يحضرون الصيد والذين يريدون الانضمام إلى هذه الفئة. وبعد أن يتم هذا بمريد من السهولة ، كان بعض الأشخاص ينوجب عليهم أن يذهبوا إلى مكان معين من هذا الجبل قبل يومين من حفلة الصيد ، حيث يتم لصطياد الخنازير البرية وتحضير لحوم هذه الحيوانات الصارية ، لقد تمتعت (كوربوليس) بهذه السعادة خلال إقامتي في حلب ، بمشاركة كثير من الهولنديين في هذا الاحتفال الرائع ، وأن أشرب بحب صحة الكابو وأن أصرح "هوساي" على الطريقة الإنكليزية في مناسبة هذه الاحتفالات<sup>(١)</sup>.

أما عدا النزعات وحفلات الصيد والقنص كانت الجاليات الأوروبية تهتم بالأعياد الدينية ، إذ كان جميع الأفراد يتوجهون إلى الممثل الرسمي بهم ، لمرافقته إلى الكنيسة بموكب حافل ، وقد ارتدوا ملابسهم الجميلة ، والفصل على رأسهم ، يتقدمه نراجمته ، وإلى جانبه النواب والمستشر ، ووراءهم التجار ثم وكلاء التجارة. وكان كبير رجال الدين ، وهو الحادم الأول للكنيسة القنصلية ، يقوم باستقبال الموكب على باب الكنيسة ، ويقدم الماء المبارك للقنصل ، ثم يقوده إلى مكانه الشرفي ، وأثناء الصلاة يقوم العاملون في الكنيسة بتبجيله ، ويقدمون له الصليب والإنجيل ليفلهما. وكانت فرنسا والبنديقية حريصتين على هذه المظاهر ، أما إنكلترا (دات المذهب الأنجليكاني) فإن هذه المظاهر لديها كانت بسيطة نسبياً ، فقد كان يكفي بيوم الأحد والأعياد بتجمع الجالية في الكنيسة والاستماع إلى عظات من رجل الدين.

ولم تكن المناسبات التي تظهر فيها الجالية وحدة واحدة خارج الحان في الأعياد الدينية وأيام الأحاد فقط، وإنما كانت هناك مناسبات وصول باشا جديد ، وزيارات السطات الحكومية ، وتعيين قنصل جديد ، واستقبال السفير ، والاحتفالات القومية والوطنية ، مثل ولادة ولي العهد ، أو وفاة الملك. ففي كل هذه المناسبات كانت الجالية تسير على شكل مواكب برئاسة القنصل أو نائبه<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر المرجع لسابق ، ص ٨٥ ٨٦

(٢) الصباغ للجاليات الأوروبية ، ج ٢ المرجع السابق ، ص ٦٩٠ ٦٩١.

وكانت الاحتفالات القومية ، وبخاصة الانتصارات في الحروب مثلاً أكثرها أبهة وفحامة وتنفق أثناءها الجاليات كثيراً من الأموال ، متفاخرة أمام بعضها البعض ، وقد بلغت تكاليف الاحتفالات في حلب للجالية الفرنسية ألف قرش ، وكان من نتائج هذه النفقات ، أن احتجت عرفة التجارة على هذا الأمر ، وبيت أن حلب أنفقت أكثر من جميع مدن البروفنس مجتمعة. لذلك صدر أمر من حاكم البروفنس عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م ، بالألا تحرى احتفالات في الإسكالات ، إلا تلك التي بأمر به العرفة.

ولم تكن فرنسا لوحدها المصيبة في هذا المجال ، وإنما سبقتها إلى ذلك البسقية نفسها ، التي عرفت بحب البذخ والترف. فقد منعت الهدايا والمادب التي تقدم أثناء الأعياد البدقية أو العثمانية<sup>(١)</sup>

وكما كان القنصل يستقبل ، كان يودع أيضاً باحتفال رسمي تشترك فيه جميع الجاليات الأوروبية في حلب ، وكانوا يرافقه إلى بعد أربعة أو خمسة أميال خارج المدينة ، ومثالب على ذلك استقبال القنصل الفرنسي الجديد درفيو، وفي اليوم الأخير وصل إلى النساتين جمع الأوروبيين (إنكليز - بصادقة - هولنديين) ممنظمين الحيلول لمرافقة دارفيو حتى المدينة ، فقدم طعام العداء للجميع وبعد شرب كأس كل منهم نخب الأحر<sup>(٢)</sup>.

يلاحظ من كل ما سبق أن الاحتفالات الرسمية كانت تسهم في جمع أفراد الجالية الواحدة، ودعماً لمركز القنصل ، كما كان اجتماع الجاليات مع بعضها البعض لفصاء أوقات الفرح والمرح تخرجهم من رتابة حياتهم اليومية ، ومن الاستغراق في العمل الروتيني ، وتبعث التجدد والحركة في حياتهم العادية ، وتحفف من وطأة الحياة عليهم ، كما كانت الجاليات تؤدي واجب الضيافة خير أداء ، وتستمع به. ولم تكن مناسبات الضيافة محدودة أو معدودة، بل إن المائدة القنصلية لمعظم الجاليات نادراً ما كانت تخلو من صيف وفرد ، ولا سيما في حلب التي كانت معبر للعديد من السياح الأجانب والتجار ورجال الأعمال ، ورجال الدين وغيرهم ، حتى أن الإنكليز أسسوا في حلب جمعية الصيوف ، أطلقوا عليها اسم " فرسان وادي الملح " ، وينسب إليها لأجانب سطقوس معينة ، وهدوها لاحتفال بالصيوف وتسليةهم<sup>(٣)</sup>.

وأكبر الأعياد التي كان التجار يحتفلون بها على هواهم ، وبحرية ونون أي قيد من قيود الرسميات ، ويعينون فيها تكري احتفالات الوطن الأم " عيد الكرنفال " فعليه كانوا يلهون ويرقصون ، ويولمون الولائم ، ويمثلون الكوميديا.

وأشد الجاليات انغماساً في اللهو أثناء الحفلات من هذا النوع ، كانت الجالية الإنكليزية ، فقد كان التجار الإنكليز يتعاطون الببذ بكثرة ، وكانوا يشربون حتى يفقدوا الوعي ، فيكسرون ويحطمون الكؤوس وما على

(١) - للصياغ الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٦٩١ - ٦٩٢

(٢) - سورمايل للمرجع السابق ، ص ٣٩٧

المائدة يشرفوا (بحسب رعمهم) صيوقهم ، ومن يشربون على حبهم. وإذا كان الإسراف في اللهو يدل على شيء فإنه يبرهن على مدى الكبت الذي كان يعانيه أفراد الجاليات بعيداً عن مواطنهم. ومن ثم فهي أول فرصة للتحرر ، كانوا يطلقون العنق لغرائرهم وأهوائهم ، محاولين إرضاءه وسبباً الضيق الذي يعانون<sup>(١)</sup>.

أما وسائل الترفيه فقد كان الأوروبيون يمضون قسطاً من وقتهم ببعض الألعاب الرياضية ، التي كان يمارسها الإنكليز في حلب ، في مكان يدعى " المرجة الحصرية " ولعبة البلياردو ، التي تمارسها أغلب الجاليات ، وكان النزاع يأخذ أثنائها مظهراً جدياً ، يصل إلى حد تمزيق الملابس ، وتحطيم الرؤوس<sup>(٢)</sup>.

كما حمل الأوروبيون تلك الألعاب إلى حياتهم لاجتماعية ، ليقتصوا أوقات فراغهم ، فبهم نقلوا إليها من مواطنهم " لعب الورق " وكانت هذه الألعاب منتشرة جداً بين أفراد جميع الجاليات الأوروبية على السواء. علم بأنها لم تكن معروفة أبداً في البلاد العربية الإسلامية وكان الأوروبيون يدعون بعضهم بعضاً إلى ما يمكن أن نسميه " حفلات لعب الورق " وكان يحضر هذه الحفلات بعض سكان البلد من المسيحيين الذين يعملون لدى الأوروبيين ، وقد تشفى هذا اللون من اللهو بين الأهالي أنفسهم ، فأخذوا يمارسونه في منازلهم ، وتعلق بعضهم به إلى حد الإدمان عليه. وكانت تؤدي الحفلات الضخمة التي تصيب التجار الفرجة أو المسيحيين من أهل البلد إلى إفلاسات تباين كبر الجاليات وتقلتها<sup>(٣)</sup>.

**الطعام والشراب:** كان الأجانب يتمتعون بحرية تشبه إلى حد كبير ، الحرية التي كانت لهم في مواطنهم الأم. وكانوا في بحبوحة من العيش داخل بيوتهم ، بالرغم من صيقها المكاني ، وكانت الحياة ميسرة لهم وسهلة وواسعة. فلهم حنهم من أهل البلاد " الأرمن أو الروم " ومن مواطنهم ، ليهيئو لهم الأجواء التي كانوا يعيشونها في بلادهم ، وطبخوهم الذين يعدون لهم أصناف الطعام الملائمة لأمرجتهم في حياتهم العادية، وأثناء المأدب.

وكانت تكاليف الحياة ضئيلة جداً ، وأقل مما يتصور أي أجني واحد ، فالخدم المحليون يكتفون إلى جانب بطعامهم بصعقة قروش ، والمواد الغذائية متنوعة نوعاً وكماً في كل مكان ، وبأسعار رهيبة<sup>(٤)</sup>.

فالقصل الفرنسي في حلب دارفو كتف في مذكراته عام ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م (لحم العجول هنا ببيع جداً على الرغم من أن المسلمين لا يأكلونه أبداً لذلك نتجح من أجل لأوروبيين فقط).

(١) للصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٦٩٩ - ٧٠٠.

(٢) - D. Arvieux. VI p ٤١ - ٤٠

(٣) للصباغ: الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٠٧.

(٤) للصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩.

وكذلك الخبب بجميع أنواعها - التي تجبر معابه كبيرة أثناء الولائم والطعام اليومي وفي النسائين هي من الأطعمة المفصلة ليس عند أهالي حلب فحسب بل لدى الأوروبيين أيضاً<sup>(١)</sup>.

ويعطي الطبيب الإنكليزي راسل في منتصف القرن الثامن عشر صورة واضحة عن موائد الطعام والشراب عند الأوروبيين في حلب، حيث ذكر كيف تقدم جميع أنواع الأطعمة على موائد الأوروبيين عدا الأسماك البحرية التي لا يمكن الحصول عليها طازجة إلا في الشتاء، وكان الطباخون والحم الآخرون من لأرم، قد تعلموا لطبخ الفرنسي أو الإنكليزي، كما كانت تقدم الأطباق المحلية كشيء من التوزيع في الطعام، وتكون الدعوات الرسمية في العائ على المشاء وليس العداء وخاصة في الصيف، وتكون خدمة المائدة في كليهما نفسها تقريباً، إذ يتم تناول طعام حيواني في الليل أكثر مما هم معناد في الموائد الأرستقراطية في إنكلترا<sup>(٢)</sup>.

وقيل إن نهر قويق استمد اسمه من بقيق الصفادع التي تقع على جاسيه ، والتي لا تزال توجد بأعداد كثيرة وأحجام كبيرة ، وتويعتها اللبدة إلى درجة أن بعض الدواقين الأوروبيين يقولون إنه يجدر القيام برحلة إلى سورية لتناولها والتمتع بمذاقها، وكان يتناول هذه الصفادع الفرنسيون والمسيحيون الحلبيون.

إلا أنه نمة نوعاً آخر من الطعام من نهر قويق ، يتمتع بطلب أكبر بكثير من الطلب على الصفادع يتمثل في نوع معين من السرطان ، وهو مختلف تماماً عن أي من الأنواع المعروفة في إنكلترا ، ويعدده الإفرنج من أطيب ما يقدم على موائدهم<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للأسماك فعرف الأوروبيون أولى تلك الأسماك باسم سمك إنكليس حب وتناولوه الإنكليز أكثر من أي نوع آخر من أسماك نهر قويق ، كما تناولوا نوعين فقط من الأسماك من نهر قويق وهم سمك الحياة والقبوضي ، وحصلوا على السمك البحري حيث كان يرسل برعان فقط من سمك القد إلى الإنكليز من الاسكندرية، ويبادل أحدهم في النوعية ، والحجم أفضل من أنواع القد الإنكليزي.

وتم ترؤيد الجالية الفرنسية بكميات كبيرة من السمك بواسطة بحارة سفنهم المروندن بمصايد أسماك أفضل من اليونانيين في الإسكندرية<sup>(٤)</sup>.

أم لحوم الحيوانات التي كانت تقدم للجاليات فحدث عنها ولا حرج ، فلا يقار التي تدبح تقدم بصورة رئيسية على موائد الأوروبيين ، وتوجد أيضاً الخنازير البرية في التلال المجاورة ، وفي الريف حول قرية الجبول وبحيرة الملح ، وعادة ما يطلق الفلاحون النار عليها ، ثم يحملونها إلى المدينة على ظهور الحمير ويبيعونها ، وكانوا يأتون بها إلى إحدى القنصليات الأوروبية.

(١) - مورمان: المرجع السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٢) - راسل: المصدر السابق ، ص ٢٥٣.

(٣) - راسل: المصدر نفسه ، ص ٣٥٠.

(٤) - راسل: المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩.

وأما لحم الغزال في الشتاء أو مواسم الصيد فصيب المذاق ، وشديد الحمرة ، وفي الربيع يصح كثير الدهن ، وتقدم العرلان التي يتم تسميتها في البيوت أحياناً على موائد الإفرنج<sup>(١)</sup>.

وكان المعتاد لدى الفرنسيين ، للهوض عن المائدة حالما يذهبون من أكل النقل ، لتقديم لهم علايين التبغ ، أما الإنكليز فيطوون جلوسهم في غرفة الطعام أكثر من الفرنسيين إذ تقدم لهم الخمر بعد أن يرفع العطاء عن المائدة ، تقدم كذلك العلاليين والقلبيات<sup>(٢)</sup> لمن بهوى منهم التدخين ، وهكذا يستغرق جلوسهم إلى المائدة ساعة ونصف الساعة وقت الطهيرة ثم يصرفون إلى القيلولة. أما في المساء فقد يمتد جلوسهم ربما أطول، غير أنهم كانوا حريصين كل الحرص على ألا يقرطو في الشراب ، ولا يطيروا السهر ، محافة أن يظهر أثر ذلك عليهم في العد ، فبعيتهم عن مراوية أشغالهم ، ويحفص بالتالي من مكائهم عند أبناء البلاد الذين يتعاملون معهم تجارياً<sup>(٣)</sup>.

أما الشراب فقد كان الإفرنج معينين من الصربية على جلب الخمر من بلادهم ، وبظراً أنه لا توجد في بيوتهم الوسائل الخاصة لصنعته ، فإنهم يصنعون نبيدهم عادة في منطقة الجديدة ، والنبيذ الأبيض مستماع ، إلا أنه رقيق جداً أو سيء ، ومن الصعب الحفاظ عليه في حالة جيدة من سنة إلى أخرى ، وندراً ما يظهر النبيذ الأحمر على موائد الأوروبيين ، وهو ذاكن اللون لا طعم له وقوي المفعول وتقل على الرأس ، إذ يسبب هذياناً بدلاً من أن يعش النفس ، ولا يحتسبه الأوروبيون في بعض الأحيان إلا بعد مزج ثلث من النبيذ الأبيض إلى ثلثين من النبيذ الأحمر<sup>(٤)</sup>.

ولم يمل الفرنسيون في معاهدتهم مع السلطنة العثمانية عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م حمورهم ، إذ يلاحظ في المادة / ٥١ / ما يلي. " إذ أتى القصاص والنراجمة وسوهم من تانعي الحكومة الفرنسية بعن لمؤنتهم في بيوتهم التي يسكنوها ليصنعو منه خمرأ ، أو إذ، أتاها خمرأ لمؤنتهم فيمقتضى رادة الباب العالي لا يجوز لليمقجية والاعوات وسوهم من عمال السلطنة أن يطلبوا صربية أو هبة لا حين الورد ولا حين النقل<sup>(٥)</sup>.

(١) راسل: المصدر السابق ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦

(٢) الفيلبيات: مفردا القليان كلمه فارسية ، وهي عبارة عن وعاء زجاجي يصوي الشكل ذي عنق طويل مزخرف من الداخل ، يركب عليها رأس قصي مؤلف من كوب لتلقي التبغ ، متصلاً بالوعاء بأنبوب مستقيم طويل ، حتى يصل إلى ثلثي القاعة ، ويشقى من الرأس على شكل قوس. وعند الاستعمال يملأ الوعاء بالماء حتى يفر لأنبوب المستقيم (لنار جيلاب)

انظر راسل المصدر السابق ، ص ١٠٧

(٣) قسطنطين المرجع السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ - ٤١

(٤) - راسل: المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥) - المعاهدة / ١٧٤٠ م / المرجع السابق ، لبيد / ٥١ - /



أما الشراب المعتاد هو صنف من الخمرة صهباء وبهضاء مرة المذاق من صنع البلاد ، وحمرة كميت حمراء سلسة مصدرها بروفنسا (جنوب فرنسا). أما الإنكليز فقد اعتادوا أن يحتسوا الحمر في الصيف ، قبل العدة والعشاء ، جرعة من البنش<sup>(١)</sup> المحفف جداً ، وهو شراب معش ، مجرد ، استساغه معظم الأوروبيين الباقين ففقدوا الإنكليز في شربه. وقد جارا هم في ذلك الكثير من المواطنين المسيحيين ، بل وبعض المسلمين أيضاً ، وقد يتربونه مجرد بالتلح أحياناً ، مع أنهم قلم يستعملون التلح في غير هذه الحالة ، على الرغم من وفرة في الأسواق ، ذلك لأنهم يجدون في براءة الحمرة حارحة من القبو ومن الماء معروفاً من الصهرج ، ما يعني عن التلح<sup>(٢)</sup> ، وأكثر ما أعجب الأوروبيين في حلب من المأكولات ، الفواكه شتى أنواعها ، وكانوا يندولونها بكثرة ، ولقد أدهشهم استهلاك الأهالي الكثير لها ، حتى أن دارفو قد استهلك مدينة حلب منها باستهلاك ثلاث من بحجمها في أوروبا. وقد أحصر الأوروبيون نبات القير من أوروبا وررعوه على أسطح الحانات<sup>(٣)</sup>.

اللباس: كان الأوروبيون يعيشون أحراراً في منازلهم وحاناتهم ، ويطبقون فيها عاداتهم الاجتماعية الخاصة في معظم الأحوال ، إلا أنهم عند خروجهم ونقلهم في الطرقات ، كانوا حريصين ما أمكن على أن يبدوا كأهالي البلاد أنفسهم ولا سيما في ملابسهم والري الذي يرتدون. وبالفعل فإنهم بصفة عامة كانوا يخرجون وقد ارتدوا قطعاناً وجة معراة في الشتاء، على النمط العربي - العثماني ، ويطيلون شواربهم ولحدهم ، فاحتياار الأوروبيين للباس الوطني كان احتياط لما يمكن أن يصيبهم من أذى ومصايقات الأهالي، لو تميزوا بلباسهم، وطلباً للراحة في عملهم ، ولا سيما أثناء فصل الصيف الحار<sup>(٤)</sup>.

وفي عام ١١٦٤ هـ / ١٧٥١ م أحد الإنكليز في حلب بلبسون لأزياء الأوروبية ، بعد أن كن فريق منهم يترب بالري الشرقي الذي كان معروف في ذلك العصر<sup>(٥)</sup>.

ويذكر الطبيب الإنكليزي راسل بأن القنصل والعديد من الرجال المحترمين كانوا يرتدون ثيابهم الأوروبية ، إلا أن الكثير منهم ، ولا سيما الفرنسيون والإيطاليون ، يرتدون الثياب الشرقية ، ويصنعون القبعة والشعر المستعار فقط خلال وجودهم في المدينة ، ويضعون العمامة حين يسافرون.

وجرت العادة فيما مضى بأن يرتدي جمع الإفرنج، أو معظمهم الثياب العثمانية، ويصنعون القبعة بهدف تمييزهم عن باقي السكان. وفي الآونة الأخيرة، أخذ القسم الأعظم من الإنكليز يرتدي الثياب الإنكليزية، في حين بقي عدد آخر من الأجانب يتبع العادة القديمة، عدا القنصل، والإفرنج الذين يقيمون فترات قصيرة في حلب.

(١) البنش: شراب حلوي يعد من سوائل مختلفة أو من عصير الفاكهة مع شيء من مشروب روحي

(٢) - راسل: المصدر السابق ، ص ٢٥٣

/

(٣) الصباغ: للجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧١١

(٤) - الصباغ: للجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، للمرجع نفسه ، ص ٧١٥ - ٧١٦.

(٥) خلال للمرجع السابق ، ص ١٠٧

وحوالي سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م امتثل القليل المتبقي من الجالية التجارية الإنكليزية للعادات المتبعة، وبالإضافة إلى بعض الفرنسيين ، فلا يطهرون إلا من حين إلى آخر في ثيابهم الخاصة<sup>(١)</sup> ، ولم يكن ذلك قسراً، بل بحرية وميل<sup>(٢)</sup>.

أما الفناصل الفرنسيون كانوا لا يتميزون عن غيرهم إلا باللباس الأوروبي الموع حتى القرن الثامن عشر ، حيث صدر قرار في ١١٩٣ هـ / ١٧٧٩ م يوص على أن الفناصل يجب أن يطهروا أثناء أعمالهم الرسمية وزياراتهم واجتماعاتهم الوطنية لباس على النمط الفرنسي ، من الجوح الأرق الملكي ، المطرر بحسب رتبة الفاصل ، بشريط أو شريطين عريضين ، ومذهبين على النمط البورغوني ، ومزين بأزرار من الحاس المذهب ، التي صنع عليها شعار الملك ومعطف قصير من القماش الصوفي الخفيف الأحمر المزين بحیوط الذهب وسطال من نفس اللون ، وقبعة ذات ريش ، وسيف<sup>(٣)</sup>.

وكان الفاصل البندقي يرتدي فطاناً طويلاً حتى قدميه ، من الساتر الأحمر (صنع في دمشق) وقد طرز بخيوط الذهب ، وأغلق من الأمام بأزرار مذهبه ، ثم يحزم من الجوانب بنطاق من المحمل المطرر بحیوط الذهب. وفوق الفطان كان يرتدي معطفاً واسعاً مع أكمام عريضة يطلق عليه " اللباس الدوقي " ويعطي رأسه بعة دمشقية، تنزل حتى صدغيه، وترتفع وتتسع من الأعلى<sup>(٤)</sup>.

اللغة: تكلم الأوروبيون الذين أقاموا في حلب ، كالإنكليز والفرنسيين والبادقة والهولنديين وبعض رعايا السلطنة لأحرين ، اللغة الإيطالية ، وكذلك العاملون في المحازر ، والكنبة وعدد آخر من السكان المحليين الذين يعملون لدى الإفرنج. وتحدث التجار الفرنسيون فيما بينهم ومع العاملين في المحازر ، بلهجة بروفانس. وفي حال وجود أشخاص حريز ، كانوا يتحدثون الفرنسية أو الإيطالية ، ولم يتعلم اللغة العربية سوى عدد ضئيل من الأوروبيين ، حتى أولئك الذين أمضوا فترة طويلة في البلاد ، فلم يتعلموا أكثر ما يفيدهم في الحديث بالأمور البسيطة وبأدراك من بذل منهم ، عاء تعلم كتابتها أو قراءتها<sup>(٥)</sup>.

وقد اختيرت اللغة الإيطالية دون غيرها لتكون لغة التفاهم، وخاصة في حلب، لأن الأهالي أنفسهم قد اعتادوا عليها منذ القدم، وتكلمها المشركون على المحازر وغيرهم من سكان البلاد، الذين تعاملوا مع الفرنجة.

(١) - رسائل المصدر السابق ، ص ٢٥٠

(٢) - التوبجي المرجع لسابق ، ص ٢٢٤

(٣) - الصباغ: للجاليات لأوروبية ، ج ٢ ، لمرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧

(٤) - Berchet. p. ١٣.

(٥) - رسائل المصدر السابق ، ص ٢٥٠

ولا بد من الإشارة إلى أن المراسلات الرسمية والحاصة بين الجاليات والوطن ، كانت تجري بلغة الدولة الرسمية للوطن الأم. ولقد حاول بعض الأوروبيين الوافدين تعلم اللغة العربية ودراستها في أوقات فراغهم ، إذ أنها اللغة الأساسية لأهل البلاد<sup>(١)</sup>.

وستستح مع سبق بل قلة من الأوروبيين تكبدوا عباء تعلم اللغة العربية ، لأن الوسط المسيحيين واليهود العاملين لديهم كانوا يرشدونهم فيما يخص تعقيدات حياة العمل المحلية<sup>(٢)</sup>.

أما ما يتعلق بالحياة الأسرية: فكان معظم أفراد الجاليات الأوروبية غير متزوج ، ويأتون إلى السلطنة العثمانية شباباً صغاراً ، لا تمكنهم أحوالهم من إعالة أسرة ، وكانت سلطات الوطن لا تشجعهم على الزواج ، لأن الزوجة والولد يشكلان عبئاً في تلك البقاع ، وخطراً في الظروف التي كانوا يعيشون فيها<sup>(٣)</sup>.

وشذ عن تلك القاعدة بعض أفراد الجاليات الذين تزوجوا من أهالي البلاد ، ومن فتيات روميات بالذات، نتيجة احتلاطهم ببعض الأسر المسيحية ، ويذكر راسل بأنه وجد عدد من الرعايا الفرنسيين من مرتبة أدنى، توجهوا إلى الشرق ، ونتيجة رواجهم من المسيحيات المحليات أنجبوا عرقاً أو سلاً فرنسياً خليطاً يسمى " Mezza Razza ". وأسفر ذلك عن حدوث مشكلات عديدة ، نتيجة اضطراب القنصل إلى توفير الحماية لأشخاص كفوا بدخولهم غالباً في أعمال وزراعات مع العثمانيين ، مما أدى إلى صدور فرمان ملكي منذ عدة سنوات ، استدعى بموجبه جميع الرعايا المتزوجين من معظم رعايا جلالته (ملك فرنسا) من الفرنسيين من الشرق وحول القناصل ملطة إعادة الرعايا الذين قد يتزوجون مستقلاً دون الحصول على إذن خاص من السفير في إسطنبول، إلى فرنسا على الفور مهما كانت مرتبتهم ، ونتيجة لذلك انحصص عدد الأشخاص الذين يطلبون الحماية ، وبقيت في حلب عائلات عديدة يقوم الأوروبيون برعاية بعضها<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م دعيت شكاوى غرفة التجارة الملحة ، الوزير دوشار تران إلى الاهتمام بالقضية ، فأرسل إلى حاكم البروفنس ، يطلب منه الأمر التالي: " يمع صاحب الجلالة جميع الشكاوى من لأسر الفرنسية المقيمين في الإسكندرية المتزوج من فتيات سكان البلاد دون موافقة آبائهم وأمهاتهم، وتحت طائلة العقوبات ، وإعادتهم إلى فرنسا. أما الفرنسيون الذين حملوا زوجاتهم وأولادهم إلى الإسكندرية، فيجب أن يرسلوا أولادهم إلى فرنسا وبخاصة من كان عمره بين العشرة والخامسة والعشرين ".

وبقيت المشكلة تثير بحساسيتها ودقتها أذهان المسؤولين في فرنسا. ففي عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م، طلب مجلس البحرية رأي الغرفة بشأن زواج الفرنسيين بروميات، فأجابته الغرفة بضرورة منعه موصحة

(١) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، لمرجع السابق ، ص ٧٣٠

(٢) - ماركوس المصدر السابق ، ص ٥٨

(٣) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، لمرجع السابق ، ص ٦٧١

(٤) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢

لأسباب "بدلاً من ارتباط الفرنسيين في الإسكالات بسكان البلاد ، وانصرافهم عن العودة إلى الوطن، فإنهم في حالة عدم الزواج ، سيعودون حتماً إليه ، بعد حصولهم على ثروات شريفة، ويتزوجون من فتيات من الوطن، ويتمتعون بثرواتهم التي جمعوها، وبذلك يربون من ثروة بلادهم، ويفسحون المجال للعناصر الشابة، التي ابتدأت حياتها مجدداً أن تحل محبتهم، وتحصل على ثروة مماثلة، وبذلك يستفيد أكثر عدد ممكن"<sup>(١)</sup>.

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م كلف الوزير بوششار تيران حاكم البروفنس أن يدرس مع غرفة التجارة وبعمق ما إذا كان من الملائم التصريح للمقيمين في الإسكالات أن تكون معهم نساءهم وأطفالهم ، وقد أُنحت العرفة سلباً. ومع ذلك ففي سنة ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م بحث مجلس البحرية الحالة الشاذة التي يعيشها تجار الإسكالات دون زوجات، ورأى أن الوسيلة الوحيدة لتحسين أحوالهم وصيبت أهوائهم، هو إصدار أمر في ١٧ / دار ١٧١٦ م /، الذي يسمح للنساء والبنات بالانطلاق للعيش مع أزواجهن وأبنائهن<sup>(٢)</sup>. وصدر الأمر الملكي في ١١ اب ١٧١٦ م والذي نص على ما يلي:

١ يحرم من حق التجارة في فرنسا، الفرنسيون الذين تزوجوا في الشرق من أجنبيات، وكذلك أولادهم.  
٢ لا يسمح للمقيمين الفرنسيين في إسكالات لروج من أهالي البلاد، وإن تم هذا فإنهم يحرمون من حقوقهم.

٣ لا يمكن للمقيمين في الإسكالات أن يبقوا فيها بهائناً ، بل يجب أن تتجدد الجالية دون انقطاع.

٤ يسمح لهؤلاء المقيمين بالبقاء المدة التي يجمعون فيها ثروة فقط.

وفي عام ١١٤٤ هـ / ١٧٣١ م وصل إلى السلطات المسؤولة ، أن بعض المقيمين في الإسكالات يرغبون بالإقامة بهائناً حيث هم. فصدر أمر بوجوب إجبارهم على العودة بعد انقضاء السنوات العشر التي سمح لهم بها منذ البدء.

ويبدو أن الترتيبات قد أهملت في القرن الثامن عشر ، فعاد الإنكليز والفرنسيون إلى الزواج بحرية من الروميات اللاتي حافظن على عاداتهن الوطنية وأبنائهن. إلا أن أولادهم من الإنكليز كانوا يرسلون إلى إنكلترا ليتربوا فيها وهو نفس ما كانت فرنسا قد طلبته في أمر بوششار تيران، عام ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م<sup>(٣)</sup>.

فسعت فرنسا من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م إلى حماية الفرنسيين الساكنين في السلطنة سواء كانوا متزوجين أو أعزاًباً لا يجزؤون على دفع الضريبة المعروفة بالحراج<sup>(٤)</sup>.

(١) - للصداع الجاليات الأوروبية ، ج ٢ المرجع السابق ، ص ٦٧٣ - ٦٧٤

(٢) - Masson p ٤٦١ (٣)

(٣) - للصداع الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٧٤.

(٤) - للمعاهدة ١٧٤٠ م المرجع السابق ، المبدأ ٦٧

أما بروس ماسترز فله رأي حر وهو أن الأوروبيين كالإنكليز والهولنديين ، اتبعوا قاعدة ثالثة أملت عليهم عدم الزواج بامرأة محلية ، وقلة كانوا قد استقدموا روجانهم من أوطانهم لأ<sup>(١)</sup>.

إن ما نذكر سابقاً يخص الإنكليز والفرنسيين أكثر من غيرهم ، إذ أن البنداقية سمح لهم بإحصار أسرهم معهم ، ويظهر أن حبة البنداقية في حلب كانت أكثر اسجماً مع حياة أهل البلاد ، فحكم وجودهم القديم في سوريا ، كانوا أكثر تكيفاً من غيرهم من الجاليات ، بل إن بعضهم تزاوج بحرية مع السكان ، واستقر لمدة طويلة ، وأقام في بيوت واسعة ، وعاش فيها حياة تشبه حياة السكان أنفسهم ، أكثر مما تشه حياة الأوروبيين<sup>(٢)</sup>.

الأمراض: يتعرض الأوروبيون حال وصولهم إلى حلب للإصابة بحمى أنفق على تسميتها (أوكا) أو (الإوذة) ويصاب المرء بهذا المرض مرة واحدة ، ولعل لإنكليز أكثر إصابة به من الإيطاليين ، وتصاب المرء عند الإصابة به أعراض أهمها حمى التهابية. كما يتعرض جميع الحلبيين فضلاً عن الأوروبيين ولأجانب الآخرين الذين أقاموا فترة طويلة من الزمن في هذه المدينة ، إلى نوع من الطفح الجلدي يسمى الحلبيون (حبة السنة) ويطلق عليها الأوروبيون والمسلمون (آفة حلب أو حبة حلب)<sup>(٣)</sup>.

كما تعرضت حلب في القرن الثامن عشر لسلسلة من جائحات الطاعون (مرض الطاعون) ، هناك الأوروبيون سلوك وقائي هم وكل المستخدمين الذين لهم صلات حميمة معهم ، وربائر لهم بالتجارة أو إخوانهم بالدين ، إذ كان الأوروبيون بصورة رئيسية وبطريقة مشددة يحجرون على أنفسهم في محباتهم خلال أوقات الطاعون. فاتحد الأوروبيون إجراءات مطمة للتحكم بملامسة بضائع الناس القادمين من مناطق ملوثة ، وقد أوقفوا التعاملات التجارية والشحنات حتى إصدار الأطباء شهادات صحية نظيفة

وكان الأوروبيون يقصدون تشجيع الإجراءات الرسمية للحجر ، ولكن دون نجاح ، ففي عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م عندما تغنى الطاعون في ولاية حلب ، طلبوا من القاضي والحاكم المؤقت مع حلول قافلة إلى المدينة (حلب) وصلت من منطقة ملوثة بالمرض. فصدر أمر بهذا الموضوع ، ولكن غياب أي إلزام حقيقي ، كثير من المسافرين تجاهلوه<sup>(٤)</sup>.

إلا أن الأوروبيين نادراً ما كانوا يصابون بالوباء الذي يجتاح المدينة ، وذلك لأسباب منها ، أنهم كانوا أفضل تغذية من مجموع السكان ، كما أنهم لا يتناولون الحضر الفجة (دور طبخ) ، والفواكه عسيرة الهضم ، هذا بالإضافة إلى معيشتهم في الطابق العلوي إذ كان يجعل بيوتهم أفضل تهوية من البيوت العادية ، حيث

(١) - بروس ماسترز المرجع السابق ، ص ١٤٧

(٢) - لصباح الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩

(٣) - رسائل المصدر السابق ، ص ٣٨٦

(٤) - ماركوس. المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠

الهواء رطب ، نتيجة التبخر الحاصل من البلاط الحجري ، الذي رصفت به تلك البيوت ، والذي كانوا يقومون يومياً غسله بالماء. إلا أن أهم سبب كان يبعد عنهم الوباء ، هو عدم اتصالهم بالأهالي ، وحتكاكهم المباشر معهم<sup>(١)</sup>.

### ج علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها:

عاش الأوروبيون بصورة عامة مع بعضهم البعض في انسجام ، وتبادلوا الزيارات ، وأقاموا حفلات لعب الورق ، وحفلات موسيقية أسبوعية. وفي بعض الأحيان أقاموا حفلات تذكارية في عيد الكريسماس. ولم تؤثر المنافسة التجارية ، أو الاشتباكات الوطنية في أوروبا على العلاقات الاجتماعية بين الجاليات في ولاية حلب.

وهي أوقات السلم ، كان البريد المرسل إلى إسطنبول أو إلى جهات أخرى بواسطة المراسلين ، فضلاً عن بريد السفن المتجهة إلى أوروبا ، يورع على جميع الأوروبيين عن طريق الجاويش المعني.

وكانت قدح للإنكليز فرصة إرسال مراسلين إلى إسطنبول، الأمر الذي كان يتيح الفرصة للفرنسيين الكتابة إلى الوطن الأم. وفي مقابل ذلك ، كانت تتاح لهم فرصة رد الجميل للإنكليز عن طريق النقل بالسفن إلى مرسيليا.

وفي أوقات الحرب ، كان البريد من هذا النوع يتوقف ، بالإضافة إلى الحفلات العامة بين القناصل ، غير أن العلاقة الخاصة التي تكون قد نشأت بالمصادفة بين أشخاص يعيشون في بلد بعيد ، تكون الرغبة الشخصية حافزاً لإنشاء علاقات من الصداقة فيما بينهم ، تبقى مقدسة. إذ يستمر الأفراد في تبادل الزيارات ، ويتجنبون الحوض في الأمور السياسية أثناء أحاديثهم.

يصف أحد المشررين الزيارات الرسمية التي يقوم بها الأوروبيون في الاحتفالات السنوية قائلاً مراسليه " إنه يجب أن لا ننساه الدهشة عند مشاهدة الدمعة المتبادلة بين الأشخاص الوافدين من بلدان مختلفة ، وذلك لأن الفرنسيين والإنكليز والهولنديين والإيطاليين يعودون أنفسهم منتمين إلى بلد واحد ، فقد كان للسكان المحببون يحدوهم كذلك ، وكانوا يطلقون عليهم اسم الإفرنج دون تمييز<sup>(٢)</sup>.

وكانت الجاليات الأوروبية في حلب على اختلاف جنسياتها تعيش مع بعضها في وئام وسلام بالرغم من اختلاف مصالحها التجارية ، وكانوا يجتمعون بين الفترة والأخرى<sup>(٣)</sup>، ويلاحظ أنه في حالة شوب الحروب

(١) الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، لمرجع السابق ، ص ٢٢٢

(٢) - رسائل المصدر السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥

(٣) - حجاز - بصائدات حبيبة ، لمرجع السابق ، ص ٩٤.

بين الدول الأوروبية ، تنقطع تلك الريارات الرسمية بين فاصل الدول المتحاربة ، أما علاقات الصداقة فلا تؤثر عليها حالة الحرب ، لأنها وليده حب وتآخ حاكمت حبالها يد العسر التي ألقت بهم في البلاد النائية ، هتراهم لا يخلوون أي شيء من العادات التي ألفوها . غير أنهم ، برضى متبادل ، دون أن ينسى أي فريق واجبه نحو وطنه ، وفيما هم يحنون إلى اليوم الذي تعود فيه مياه السلم إلى مجاريها ، يتركسون السياسة جانباً في أحاديثهم ، مخافة أن يصدر منهم ما يحل بأداب لاجتماع وحقوق الصداقة ، على أن التآلف بين هؤلاء المغتربين توقف بطبيعته على ما في أفرادهم من استعتراد قصري له ، ومن ثم كان عريضة للتبدل والتحول يتبدل أولئك الأفراد عند تعاقب السنين . ولدينا خير مثال على ذلك ، فنصل فرنسا في حلب الميسير توماس (M. Thomas) الذي تولى القنصلية الفرنسية في حلب رهاء عشرين عاماً ، بعد أن كان سكرتيراً للسفارة الفرنسية في إسطنبول ، ثم قنصلاً في ألجة (عاصمة الجزائر) وسلاطيك . فقد تمكن هذا الرجل بما فطر عليه من لطف ودماثة خلق وحفة روح ، وما حصه الله تعالى به من ذكاء وفهم ، تحريرها تربية حرة وثقافة عالية ، أن تجتمع حوله قلوب جميع الأوروبيين على اختلاف أوطانهم . حتى عدت داره محجاً لهم ، وجامعاً لشملهم ومجالس أسهم ، يحلون فيها على الرحب والسعة ، بين أنس ذلك الرجل الفاضل ، وحنان قرينته الرؤوف ، ولطف استهما جدانة المحاسن ، رشيفة اقوام ، وهي التي عرفها الكثيرون مد كانت طفلة ، قصبة ، فكعباً ، والتي استطاعت بمرحها ولطف معشرها أن تشر بين أولئك المغتربين جواً من العبطة والنشاط ، قلما عرفوا له مثيلاً فيما عيرها من السنين<sup>(١)</sup> .

وكان التجار الأوروبيون يستصيفون بعضهم بعضاً معتمدين على الوصول الدائر من الوطن لشحنات السبد والبيرة ولحم الحنير ، فقد عمد أحد التجار الإنكليز إلى كتابة رسالة بعث بها إلى وطنه عام ١١٣٨ هـ / ١٧٢٥ م ، يقول فيها إنه بالرغم من تقديره العميق لشحنة لحم الحنير المملح ، المفرد والشاي وعصير التفاح والبيرة التي وصلت تحيراً ، إلا أنه يفتقد الريدة والجن .

أما الملح والصبر فكانا يشكلان مشكلة بحد ذاتها ، إذ كان على الأوروبيين الانتظار طويلاً بين وصول قافلة وأخرى ، حصرصاً أن القوافل لم تكن تلتزم بجداول رمزية معينة . فساعد إنتاج المسرحيات وإقامة جلسات القراءة المفتوحة التي شارك فيها الأوروبيون ، من كل الدول ، ليس فقط على عدم الشعور بمرور الوقت ، بل والإفادة من هذا الوقت . ولذلك نجد سجلات للطلبات قدمه تاجر إنكليزي في حلب ، عام ١١٦٦ هـ / ١٧٥٢ م احتوت على عناوين مثل مسرحيات شكسبير ، وتاريخ امرأة راقية ، ومذكرات فتاة هوى ، وحكايات بركاشيو<sup>(٢)</sup> .

(١) قسطنطين . المرجع السابق . ص ٤٥ ٤٦ ٤٧ .

(٢) - يروسن . المرجع السابق . ص ١٤٨ ١٤٩ .

## التنافس التجاري بين الجاليات الأوروبية:

كانت محاولة حلب منطوية جداً ، إلى درجة تعاطم مكانة القنصل ومساواتهم بدرجة السفراء في إسطنبول تقريباً ، وكانوا يعيشون حياة رغد كالمملوك ، وقد ساد التنافس الفردي والقومي والحكومي ، والعبارة في كل مكان وإرمان ، ولم تشكل حلب والقنصل وأفراد الجاليات الأوروبيون استثناءً في عدم الإصانة بهذه الآفات الاجتماعية ، وكانت حلب في القرن السادس عشر والقرون التي تلت مدينة واسعة ونشطة للتجارة ، وتكثر فيها الأرباح بدرجة تنافس أبناء الجاليات الأوروبية فيما بينهم ، وذلك باللجوء إلى طرق مشروعة وغير مشروعة لتحقيق مصالحهم ولضرب بمناصيرهم ، ولكن مع الاحتفاظ بالمظاهر الخارجية المدنية على الاحترام<sup>(١)</sup>

وكان هذا التنافس بين جاليات الدول الأوروبية وقاصنها في مناسبات عدة ، وكان يتجلى في حياة كل جالية بحرص أفرادها على تعقب أخبار الجاليات الأخرى الصغيرة منها والكبيرة على السواء ، وفي مراقبة تجارتها وعلاقاتها مع العثمانيين ، وهي استمالة شتى المناسبات للحدس عليها والإساءة لها لدى الأهالي والسلطات الحاكمة ، وهي تشجيعها وشماعتها بها عندما تنزل بها الحسانر والكوارث. ولم تكن الاحتكاكات بين تجار الجاليات المختلفة بنفس القوة في جميع الإسكالات ، فقد كانت شديدة في حلب مثلاً لوجود مختلف الجاليات بقوة تجارية متقاربة ، بينما كانت ضعيفة في الإسكالات الأخرى ، إلى لم تكن معدومة<sup>(٢)</sup>.

ولكن هذا التنافس في ولاية حلب بين الجاليات يروى وتحتفي الأحقاد ، ولو بشكل مؤقت أثناء المحر التي تتعرض لها ، ففي أثناء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م والتي كان لها عواقب وخيمة على التجار الفرنسيين الذين كانوا يقطنون في السلطنة العثمانية ، ويتمتعون بالحريات والامتيازات الواسعة ، حيث كانت بيوت هؤلاء الفرنسيين محترمة ومحصنة من كل أذى ، ثم الاستيلاء عليها وبيعها أثناء الحملة الفرنسية ، وبما كان أفراد الجالية الفرنسية في حلب يعيشون حياة حرة وكرامة ، فقد تم القبض عليهم وجرهم إلى السجون. فهؤلاء الذين كانوا يتمتعون بجمع نعم الحيدة ، يشعرون الآن بألم الجوع والفقر<sup>(٣)</sup>.

فلم يقف أفراد الجاليات الأوروبية الأخرى مكتوفي الأيدي متفرجين على أبداء خلدتهم ، يعانون من عذابات السجون ألوان شتى ، صارعوا إلى مد العون للفرنسيين من خلال إرسال الطعام وفرش للنوم ، ولولا هذه المساعدات ، لكان الجوع سيقضي على المعتقلين. ولم يكن الأوروبيون بذلك ، بل أعلم جميع قناصل المدينة ومنهم البريطاني سفراءهم عما يجري في حلب للفرنسيين ، لاتحاد ما يلزم ، لأن هذا العيب على جبين

(١) - سورمانيان المرجع السابق ، ص ٣٧٥.

(٢) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٢٨.

(٣) - سورمانيان المرجع السابق ، ص ٦٢٤.



العربيين مبيع على الأوروبيين الآخرين أيضاً ، كما طلب القناصل من سفرائهم الإسراع في معالجة هذه الأوضاع<sup>(١)</sup>.

هذا عن علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها ، أما العلاقات فيما بين أفراد الجالية نفسها ، فالفرنسيون كانوا يعيشون حياة أكثر ألفة وانسجاماً ، يرورون بعضهم بعضاً ويحيون الولائم ، ولا شيء بعكس صفو حياتهم من تجارة أو انقطاع العلاقات بين الدول لأوروبية. وفي أوقات السلم كان الجويش يعلم الفرنسيين عن بحار السفن إلى أوروبا أو وصول بعض الأوراق الرسمية إلى إسطنبول<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة لأفراد الجاليات البنقية والإنكليزية، فإن الرابطة بينهم أقوى ، وذلك لارتباطهم بفصل رئيسي ، وهو القنصل في حلب ، ولحسوعهم لهيئة واضحة السلطات في الوطن ، إلا أن تلك العلاقة هي علاقة تجارية أكثر منها علاقة صداقة وود. وكانت تقوم بينهم مراسلات ، يستوضحون فيها أحوال التجارة وأوضاع البلاد<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة للقنصلية الهولندية فكانت هناك علاقات بين أعضاء الجالية ، ومرزها إلى الجسد الذي تنسبه الأعمال فكان الدراع بين القنصل والتجار الذين يرمسون دفع رسوم القنصلية ، فلم تكن بادرة. كما يذكر القنصل الهولندي كورنوليس بلو وحلفاؤه.

وفي حالات أخرى كان أعضاء الجالية الهولندية ، ينتهزون الفرصة للذهاب في الريف بجوار حلب ، أو الذهاب إلى الصيد ، أو حضور المآب مع المقيمين الأوروبيين الآخرين<sup>(٤)</sup>.

#### د - علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية العثمانية في ولاية حلب:

كان يشغل قمة هرم السلطة في ولاية حلب موظفان عثمانيان هما الباشا والقاضي. وفيما بينهما كانا يقدان الوظائف الرئيسة في الولاية ، وكانا كلاهما غرباء ليسا حليين ، ولم بحق للسكان التعليق على تعيينهما ، فهم يشتركان منصبيهما مقابل مبالغ كبيرة. وغالباً ما يشغلان منصبيهما لمدة سنة واحدة فقط ، بعد ذلك يكلفان بمنطقة أخرى ، وكانت منطقتاهما الإقليمية تمتد إلى خارج حلب ، حيث يرأسان الإدارة الإقليمية التي تشغل نفسها بالمدينة ، وكذلك بالمستوطنات العديدة والتجمعات القبلية حولها.

(١) - سورمايس المرجع السابق ، ص ٦١٩

(٢) - سورمايس المرجع نفسه ، ص ٣٧٠

(٣) - الصبرغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٦٨٧ - ٦٨٩

(٤) - للمدرس ، المرجع السابق ، ص ٥٧.

كان الحكام الذين يترأسون الإدارة في ولاية حلب ، يشرفون على المحافظة على النظم ، وجمع الضرائب ، وكانوا يتبعون أعينهم على المناخ السياسي والاقتصادي، ويتدخلون في الأزمات التي كانت تهدد النظم العام ، كما يحافظون على اتصالاتهم بمن هم أعلى منهم في إسطنبول<sup>(١)</sup>.

كانت ولاية حلب قريبة من مركز السلطنة ، ومهمة من الناحية الاستراتيجية لأنها تسيطر على الطريق إلى جميع الولايات العثمانية الآسيوية والإفريقية ، وقد جرت العادة على أن تحكم ، حتى القرن التاسع عشر ، من جانب ولاية مرسلين من إسطنبول، كما أن المتسلم هو المسؤول الذي يمثل الوالي في حال غيابه ، وهو صرب متكرر الحدوث في القرن الثامن عشر ، عندما يجرح الوالي إلى الحرب ، أو عندما يحدث تغيير لشاغل المصصب<sup>(٢)</sup>.

وبالنسبة للامتيازات الممنوحة من الباب العالي لجميع الجاليات الأوروبية في ولاية حلب (التي كانت متشابهة تقريباً) من حيث المضمون. إذ نصت هذه الامتيازات ، بأن تقوم الحكومة بسط حمايتها على جميع شعوب الإقليم بشكل متساو ، وتتمتع بعدد كبير من المزايا ، إذ تعد القنصليات بمثابة أماكن محرمة ، بل لا يمكن لأي مسؤول عن العدالة دخول بيوت التجار دون إذن ، وتفرص الرسوم على السلع باعتدال. وبحق لهم رفض أهلية المحكمة في جميع الدعاوى المرفوعة إليها ، إذا كانت الجريمة كبيرة ، ويرفعون الأمر إلى إسطنبول<sup>(٣)</sup>.

زيارة القنصل للباشا: كان الباشا والفاصي والمحصل يمحور مقابلة رسمية مفصلة لكل قنصل ، ولا يرد هذه الزيارة إلا المحصل. وفي هذه المناسبات يجرح القنصل ورفقته التجار الموجودون تحت حمايته ، فضلاً عن جميع التراجمة الفحريين. ويجري استقباله في السراي بحفاوة كبيرة وبعد تحول القنصل بقليل إلى غرفة المقابلة ، يدخل الباشا وإلى جانبه صديطان ، ويتجه مباشرة إلى مكانه على الأريكة ، دون أن يطر إلى الآخرين، ولا يجلس القنصل إلا بعد أن يجلس الباشا ، ويكون قد أحضر له كرسيّاً رسمياً من بيته. ويقف اثنان من الصباط الرئيسيين بالقرب من الباشا ، ويقف رجال الجالية وراء كرسي القنصل ، ويدعون في بعض الأحيان ويس دائماً ، للجلوس على الأريكة. وما أن يجلس الباشا حتى يبدأ الترحيب بالقنصل ، بعبارات مهذبة ورفيعة للغاية ، ثم يطرح أسئلة روتينية ويرد عليه القنصل بتقديم الإطراءات ، ويمتدح شعبه بسبب تقديم جلالة الحماية لهم. كما تقدم للقنصل الحلويات والقهوة والتبغ والشراب والعطر على نحو متعاقب ، وفي الوقت نفسه يقوم خدم آخرون بتقديمها جميعها إلى الباشا ، وتنتهي الزرع ساعة المخصصة عادة لهذا اللقاء ، ليأمر الباشا بوضع فرو واقوم على القنصل. وتقدم للأشخاص المرافقين له نفس الممرطبات

(١) - ماركوس: المصدر السابق ، ص ٩٠.

(٢) - ماندرين المرجع السابق ، ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٣) - راسل: المصدر السابق ، ص ٢٥٧.

عدا التبع وعند وضع الفرو على القنصل ، يتلقى كل منهم مديلاً من الشاش ، يقدمه الحادم بطريقة تثير دهشة الصيف ، لأنه حسب العادات الشرقية ، يتم حمل المنديل في الصدر وليس في الجيب ، لذلك عندما يقدم الحدم المنديل ، يرمونه بطريقة فظة نوعاً ما داخل صدر المعطف ، دون اعتبار للاختلاف في اللباس الشرقي عن الغربي. وهنا يقدم جميع الترجمة فروص الطاعة للباشا ، بالجنو أمامه وتقبل كم ثوبه. ويقب المترجمان الوكيلان بالقرب من كرسي القنصل ، والأول منهما يقوم بعملية الترجمة.

وعندما يستجيب الباشا لأي طلب ، أو عندما يكرر أي طراء فيه ومعالجة للقنصل ، يحنو الترجمان ، ويقبل حاشية ثوب الباشا ، وكثوع من الاستحسان تقدم للترجمان الأول عبدة ، وللآخرين منديل فقط<sup>(١)</sup>.

زيارة القنصل للقاضي: في أثناء لقاء القاضي الذي يجلس فوق عرش مرتفع ، مكون من وسائل الوحدة فوق الأخرى كي تكون أعلى من كرسي القنصل ، وهو تحبير متعالٍ خاص بهذه المناسبة ، لأنه في الأوقات الأخرى ، يجلس القاضي على الأريكة كما يفعل الأعيان الآخرون. ومن خلال اللقاء بأكمله ، يتسم سلوكه برسمية أكثر من سلوكية الباشا ، وتقدم القهوة والمرطبات الأخرى للقنصل فقط.

زيارة القنصل للمحصل: أما المقابلة مع المحصل (المتسلم) تكون أطول هذه المقابلات ، وأكثرها بساطة ، ودور أي تكليف يجلس الجميع إلى الأريكة ، وتقدم لهم المرطبات بأدب ، وعند انتهاء اللقاء يتلقى القنصل هدية تكون عبارة عن حصان ، وتقدم لحاشيته المنديل.

وبعد كل مفادلة ترسل صرة (بقجة) إلى القنصل تحوي على قرطاق<sup>(٢)</sup> صيفي ، وشحاشير<sup>(٣)</sup> ، وقميص وسروال من الشاش الحرير ، ومنديل ورباط للسروال مطرز بشكل جميل ، وتوضع هذه الهبات بشكل أبيق في قطعة مربعة الشكل من الحرير لأحضر بشكل بقجة.

ورداً على هذه الزيارة يقوم المحصل بزيارة القنصل ، ويتم استقباله بعمامة رائدة في دار القنصلية. وعند انتهاء الزيارة تقدم له من بين أشياء كثيرة عدة أثواب من القماش ، وساعة حائط إنكليزية ، ترسلها الشركة الشرقية سوياً.

زيارة السردار للقنصل: يقوم السردار<sup>(٤)</sup> بزيارة القنصل مرة في السنة ، وفي بعض الأحيان يقوم بزيارته أعيان آخرون. ويوب عنه تراجمه يرد ريزتهم جميعهم. ويرسل في العيدين (الفطر والأضحى)

(١) قسطنطين المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠.

(٢) قرطاق كلمة هارسية تعني الثوب الذي يلصق فوق الثياب ، يعرف بالقمبار ، وهو قماش غير مبطن ، يصنع من سيج قماشي. فنظر ، راسل المصدر السابق ، ص ٩٥.

(٣) - شحاشير - نوع من السراويل ، يصنع من قماش أحمر ، ويصق عليه أهل حلب أحياناً اسم الجنين سطر ، راسل المصدر السابق ، ص ٩٥.

(٤) السردار السر من لغازمية بمعنى الرأس ، ودار بمعنى صندوب ، والسردار الفند وأحياناً أمون سر ، وهو منصب كبير في نظام الحكم العثماني.

رسائل يقدم فيها التهنئة إلى أفراد ديوان المدينة وكبار الأغوات الآخرين ، وتصلحها هدايا من الشروبات والحلويات. وترسل هدايا أكثر قيمة لعدد محدود من المسؤولين<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من أن هذه المقابلات الرسمية والحاصة تكلف الجاليات الأوروبية مالا كثيرا ، حيث كانت الحكومات الأوروبية وسفراءها وقناصلها وتجارهم يقدمون الهدايا والرشاوى إلى كبار رجال الدولة سواء كانوا في إسطنبول أو في الولايات العربية ، لتعيد بصوص المعاهدات<sup>(٢)</sup>. عد عن أنها كانت مجال دعاية للجاليات بين أهل البلاد ، الذين كانت تدهشهم أبهة تلك المواقب وفخامتها. وفي القرن الثامن عشر ، عدا الباشوات أكثر ترفاً ، وأشد طمعاً ، فلم يعودوا يكتفون بالهدايا المعتادة ، وإنما شرعوا ولأقل أمر بطلب ساعات ذهبية وطاقص من (العوبلان) وأقمشة حريرية مذهبة. فمثلاً فنصل فرنسا في حلب قدم تقريراً عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ م عنده هبة الهدايا المقدمة إلى السلطات الحاكمة في حلب على مدى عام ، وقيمة تلك الهدايا. وهذه صورة عنها: هدايا لموظفي الولاية في رمصان ولأعيد بقيمة / ١٠٥ قرش / ، أقمشة وساتان وحلويات عند وصول الباشا (وهذا يمكن أن يتكرر عدة مرات في السنة) / ٣٥٠ قرش / ، هدايا مقابل معطف الغرو الذي يهديه الباشا للفصل / ٣٥٠ قرش / ، هدايا مقابل مختلف الملابس التي أهداه الباشا للفصل / ١٢٠ قرش / ، هدايا عند وصول القاضي / ١٠٠ قرش / ، هدايا عند تعيين المحصل / ١٣٠ قرش / ، ساعة للمحصل عند ريارته للفصل / ٥٠ قرش / ، أقمشة مقابل الحصان المقدم من المحصل / ٢٠٠ قرش / ، هدايا للسردار والكitchen وغيره الأشراف عند تعيينهم / ٥٠٠ قرش / ، حلويات وسكاكر لمختلف الموظفين في رمصان والأعياد / ٨٠ قرش / ، مشروبات وحلويات وسكاكر في الاسكندرونة / ٥٠٠ قرش / وبالتالي يكون مجموع ثمن الهدايا / ٢٩٣٥ قرش /.

وكان القناصل الأوروبيون يرون في الهدايا وسيلة لتدليل الصعوبات ، وتبسيط المفاوضات ومن ثم استمرت لتؤدي دورها في تعديده الصداقة وحسن التفاهم بين المقيمين الأوروبيين وحكم ولاية حلب<sup>(٣)</sup>.

رغم أن وضع الإفرنج كان مريحاً عندما تسير الأمور بصورة طبيعية. لكن في أحيان أخرى كانت تسبب برودة أحد الباشوات مشكلات كثيرة ، سواء بالتهرب من تطبيق أحد بصوص الامتيازات ، أو بانتهاك الامتيازات نفسها التي ترسخت نتيجة العادات في حلب لمدة طويلة. إلا أنه يمكن الملاحظة أن محاولات من هذا القبيل نكمت في أغلب الأحيان على التراجمة المنصويين تحت الحماية ، أو التراجمة الفخريين ، أكثر من الإفرنج أنفسهم. وبصطر الفصل عندها للدفاع عنهم. وعندما لا يمكن تسوية الأمر بشكل ودي ، فلا يبقى أمامه سوى اللجوء إلى إسطنبول. وإذا كان الأمر يتعلق بأمر عام ، عندها تصبح القضية عامة ، فيرفع

(١) رهن المصدر السابق ، ص ٢٥٨.

(٢) - الشاوي: المرجع السابق ، ص ٧٢٨.

(٣) - الصباغ الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩.

فواصل عديدون طلبات إلى سفرائهم في وقت واحد. وعندما تستمر العلاقات من هذا النوع ، فلا تكون مرعجة للإفراج بقدر ما تكون (وفي معظم الحالات) للوالي ، لأنه رغم عدم تمكن السفير من الحصول على تعويض فوري بعد بذله جهود كبيرة ، فإن موضوع شكواه يبقى ماثلاً في ذاكرة الباب العالي. إن عاجلاً أم آجلاً ، وحلّال التغيرات السياسية التي ستحدث مستقبلاً ، يجد الوالي أن مناصبه يستعملون هذا الأمر لإثارة المشكلات ضده. ولهد السبب يقصر معظم الولاة العيش بصورة ودية مع الفواصل الذين يتجنبون بدورهم الاهتمام بالشؤون العامة التي لا تعنيهم أبداً<sup>(١)</sup>.

وكانت تقع بعض المشكلات والعلاقات بين بعض المحصلين في حلب وبين بعض التجار الإفراج حول أمور تجارية ، مما يدل على وجود علاقات واسعة بين أصحاب السلطة في ولاية حلب مع تجار الجاليات الأوروبية. ففي طلب قدم من المقيم العام للملة المسيحية الفرنسية (فوتيه دي شورل غوفيه) بإسطنبول ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م عرّض على الباب العالي جاء فيه أن ابن أخ محصل حلب السابق عبد الرحيم سيف رادة ، والسكن في إسطنبول المدعو مصطفى آغا كان قد اقترض عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م عشرة آلاف قرش من الفرنسي (مارتيل) المقيم في إسطنبول، الذي أحد وعداً قاطعاً بتسديد هذا الدين بدلاً من ابن أخيه خلال ٢١ / يوم في حلب ، إلى وكيله المقيم في حلب المدعو (بلاستي). لا أنه لم يتم تسديد المبلغ بالكامل إذ سد / ١٢٠٠ قرش / من الدين وبقي / ٨٨٠٠ قرش / ، أحد يمتل في دفعها. لذلك صدر فرمان سلطاني بأمر بتحويل المبلغ المتبقي وتسديده لصاحبه بالكامل<sup>(٢)</sup>.

وفي وثيقة أخرى ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م يرفع قاضي حلب كتاباً إلى الباب العالي بخصوص الدين الذي يطالب به القاجر الفرنسي (بيصر) من محصل حلب السابق المتوفى الحاج يوسف آغا ، (٥٠٠ قرش) لذلك يرجو التجار المذكور تأديته الدين من محلفات المحصل المتوفى المستدين<sup>(٣)</sup>.

### هـ العلاقات بين الجاليات الأوروبية والقوى الاجتماعية المحلية في حلب:

إذا كانت العلاقات بين السلطات العثمانية الحاكمة في ولاية حلب ، والجاليات الأوروبية ، قد رسمت خطوطها الكبرى الامتيازات ، وهي عقود رسمية مكتوبة. فإن العلاقة بين الشعب وتلك الجاليات كانت علاقة تلقائية عفوية ، لم تؤثر بها معاهدات وعقود ، ولم تتمكن بنود الامتيازات من تجميدها في قوالبها أو التحكم

(١) - راسل المصدر السابق ، ص ٢٥٩

(٢) - فرمان رقم / ٢٣ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٤ هـ) من السجل / ٢٠ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ١٨ - ١٩. راجع الوثائق التاريخية بدمشق .

(٣) - فرمان رقم / ١٠١ / ، تاريخ فرمان (١٢٠٤ هـ) من السجل / ٢ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٧. راجع الوثائق التاريخية بدمشق

بها. فهي احتكاك ومعاملة وشعور ، لا بدود تعدت أو لم تعد. وكان يسير هذه العلاقة ويؤثر بها الاتفاق أو الاختلاف بالدين بين الأوروبيين وعناصر السكان المختلفة ، فبالنسبة للأوروبيين الوافدين كان المكان في سورية يصم جماعة قليلة العدد تدين بالمسيحية مثلهم ، وجماعة كثيرة العدد تدين بالإسلام ، وفئة صغيرة اتحدت اليهودية بينها<sup>(١)</sup>.

- **العلاقة بين الجاليات الأوروبية والمسلمين:** كان الرأي العام الإسلامي في الولايات العربية ومنها ولاية حلب بشكل مجتمعات دينية إسلامية مغلقة ، وكان المسلمون لا يعرفون أذاك من أوروبا إلا وجهها القبيح المتمثل بحروب الفرنجة التي تعرضت لها أقاليم الشرق الإسلامي ، وما تحل هذه الحملات المتعاقبة من حملة قام بها لويس التاسع ملك فرنسا إلى تونس عام ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م ابتغاء الاستيلاء عليها وتحويل أهلها إلى المسيحية ، ليعطي فشل الذريع في دميوط والمنصورة ، حيث وقع في دل الأسر. وكانت رواسب تلك الحروب لا تزال ماثلة في أذهان سكان العالم العربي ، ويتناقلون ألباءها جيلاً بعد جيل ، ثم سمعوا بأنباء انتقال حركة حروب الفرنجة إلى أوروبا ، حيث واجهت السلطة العثمانية تكتلات دولية صليبية دعت إليها البابوية في روما ، كل تلك أعاق نمو العلاقات الاجتماعية بين سكان الولايات العربية والأوروبيين ، ووقفت في وجهها عدة عوامل ، وأهمها أزمة عدم الثقة بين الجانبين إذ كان العرب يبطرون إلى الأوروبيين نظرة ملوّه الشك والحدّر معاً<sup>(٢)</sup>.

وبالمقابل كان شعور الأوروبيين تجاه المسلمين جميعاً شعوراً عدائياً تسيطر عليه بعضاء قديمة حقبة ، وحقد دفين حملوه معهم من أوروبا قبل أن تحط أقدامهم أرض بلاد الشام ، وهذا الشعور المتعصب لم تحف من حدته النهضة الفكرية التي رأتها أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ولا التحرر الديني ، ولا الأفاق الجديدة المفتوحة ، بل بقي الشعور نفسه الذي تأجج في العصور الوسطى ، ودفع أوروبا إلى الحروب الصليبية. ولقد امتزج هذا الشعور الديني العدائي ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلانيين ، برغبة استعمارية شرهة ، للسيطرة على منابع الثروة التجارية التي كن يقبض عليها هؤلاء المسلمون.

وراد الشقة بعداً بين الأوروبيين والمسلمين الدور الذي لعبه الوسطاء. فقد اعتمد الأوروبيون في سورية في أحد معلوماتهم عن أحوالها لا على الاحتكاك المباشر ، وإنما على اليهود والمسيحيين ، الذين كانوا هم الوسطاء ، وكان بعض أولئك يكونون بغصاً وحقداً لمواطنيهم المسلمين ، ومن ثم كانوا يرسمون لهم في أذهان الأوروبيين صورة نسجها خيالهم من تلك البغضاء وذاك الحقد ، وبذلك كانوا يؤججون الشعور العدائي الذين لدى الأجانب ، فيردّدون انكماشاً وعزلة<sup>(٣)</sup>.

(١) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٥١ - ٧٥٢.

(٢) - الشامي. المرجع السابق ، ص ٧٢٢ - ٧٢٣.

(٣) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣.

ولكن الانسداد بين الطرفين لم يكن عاماً ، فهو أقوى ما يكون بين المسلمين والإنكليز ، وأقله بينهم وبين السنادقة الذين احتكوا بالمسلمين منذ القديم ، وحاولوا أن يأخذوا كثيراً من عاداتهم ، ويتربوا بآدابهم ، حتى عدوا وكثيرهم من سكان البلاد. أما الفرنسيون ، فقد حاولوا جهدهم أن يقيموا صداقات مع المسلمين ، حيث نجح بعض الأفراد في هذا المجال ، وإن كانوا قلة. وحير مثال علي ذلك دارفيو القنصل الفرنسي الذي يصفه الرحالة الهولندي كورنوليس دوبرويش " إنه إنسان مهذب يحب عدة لغات ، ومحدث لسوق ، مراجع رائع ، كما أنه يهتم بالرسم والموسيقى. و هو أيضاً على عادة أهل البلد إذ له لحينه الطويلة ، كما حار على تقدير وصداقة العثمانيين والعرب مسلمين ومسيحيين" (١).

ووصف دارفيو استطاعه عن أهالي حلب بالقول " امتزأ أهالي حلب عن جميع البلاد العثمانية بحسن المعاملة والمعاملة واللطف ، وذلك لأخلاق السجية فيهم لا كلفة فيهم سواء كانوا عرباً أم أتراك ، ومنعهم تلك الأخلاق من يقدح الصرر بعيرهم. وهم يودون العرباء وخصوصاً الفرنسيين الذين لهم مودة فاقت على سواهم. ومعاملتهم في التجارة حسنة ومستقيمون فيها. وهم أهل غير دينية ، يحافظون على الشريعة الإسلامية أشد الحفاظ" (٢).

وكذلك الطبيب الإنكليزي راسل الذي كان يقيم في حلب في منتصف القرن الثامن عشر تحدث عن العلاقة بين الضيف والمضيف ، ووصفها بأنها علاقة مقدسة ، وتذكر دائماً بحترام بالغ ، ويتوقف قيام الصداقة على معرفة سابقة ، والعيش معاً في بيت واحد ، حيث تعتبر الضيافة إحدى الخصال الشرقية الفصيحة ، وهي لا تزال منتشرة في سورية ، لكنها أكثر شيوعاً في القرى والمدن الصغيرة ، وبين الأعراب والبدو ، إن حسن الضيافة التي يتلقاها الرحالة الأوروبيون على الطريق ، والسكان يسمون لهم بيوتهم ، دون أن يطلب منهم ذلك" (٣).

اشتهر مسلمو حلب ببعدهم عن التعصب الدميم وبحسن معاملتهم للعريب والعرب ، مما جعل مدينتهم مركزاً لنشاط الأجانب من الأوروبيين المسيحيين طوال العهد العثماني بشهادة الرحالة الفرنسيين أنفسهم (٤).

وكذلك الرحالة الفرنسي فولني (M. Voiney) الذي زار حلب عام ١١٩٩ - ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٤ - ١٧٨٥ م وألف كتابه (رحلة إلى الشرق في سورية ومصر) تحدث فيه عن أهل حلب قائلاً " إن الحلبيين مسلمين ومسيحيين يُعندون بحق أكثر سكان السلطنة العثمانية ثقافة ، ولا يتسع التجار الأوروبيون بالحرية كالتي يتمتعون بها في حلب ".

(١) المدارس المرجع لسبق ، ص ٨٥

(٢) - الطباخ ، محمد راعب ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٣ ، دار القلم العربي بحلب ، ١٩٢٦ م ، ص ٢٣٨.

(٣) راسل: المصدر السابق ، ص ١٦٨

(٤) - حميد: محافظة حلب ، المرجع السابق ، ص ٥٤

كما وصف فولني حلب قديماً "حلب قد تكون أنظف مدينة في السلطنة العثمانية وأجملها ساءً وأظلمها عشرة ، وأصعبها مباحاً ، والخلبيون هم أكثر أهل السلطنة تمدناً " أيضاً يذكر فولني " في مدينة حلب كان وجود الجاليات الأوروبية ومبادلاتهم معها تدور عليها أرباحاً طائلة، وهائدة مادية ضخمة ، وبالطبع فإن احتلاط سكانها بهذه الجاليات كان على نطاق أوسع مما هو عليه الأمر في دمشق.

وهذا ما جعل حلب مدينة أكثر انفتاحاً على الوسط الخارجي وأكثر تأثراً بتطور العرب ، وأشد تحرراً من الساحة الفكرية وبخاصة أوساطها المسيحية<sup>(١)</sup>.

وهناك أثر عميق أحدثته في نفوس العامة من الشعب ، تلك العناية العلية التي تستغل ولاية حلب بها قبائل الجاليات الأوروبية أثناء زيارتهم الرسمية لهم. ولقد كان من نتائج ذلك أن أصبح يحترم أولئك العرباء ويكرّمهم من لا تربطه بهم رابطة مصلحة أو تجارة. بل أن أهل السوق أنفسهم أخذوا يطورون إليهم بعين الاعتبار والهيبة ، ولا يجسرون على انتهاك كرامتهم ، إلا إذا استفزهم الإفرج ، إما بسوء سلوكهم ، أو استهانتهم بمادات أهل البلاد وتقاليدهم<sup>(٢)</sup>.

إن معظم الأطباء الأوروبيين الذين كانوا يزورون الطب في حلب ، هم من الفرنسيين والإيطاليين والإنكليز ، ومارسوا الطب كم هو سائد في بلدانهم وكان الحلبيون ومن مختلف الطبقات يستدعون أولئك الأطباء ممن أمضوا فترة من الزمن في حلب ، واكتسبوا معرفة جيدة باللغة ، وهم يحطون بترحيب خاص من قبل الأعيان ويسود الاعتقاد بأن الأطباء الإنكليز خاصة يصغون علاجات شديدة ، ولعل الطبيب راسل كان أول من عمل مع المسلمين على نطاق واسع ، إذ لم يبدل من سعوه، منذ زمن طويل، جهداً في تعلم اللغة أو لم يبدوا اهتماماً في اكتساب شعبية، والتعرف على عادات وتقاليد البلد<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن أطباء القنصليتين البريطانية والفرنسية في حلب يقدمون المعالجة الضرورية لمواطنيهم المرصين والجرحى بحسب ، بل كان هؤلاء الأطباء يدعون إلى بيوت لأغنياء المسلمين والمسيحيين واليهود وحتى بيوت حريم المسلمين، حيث كانوا يستقبلون باحترام ومحبة كبيرين. وكانت هذه الزيارات ترفع من شأن أهالي حلب واحترامهم تجاه الشعوب الأوروبية ومكانة حكوماتهم<sup>(٤)</sup>.

ويمكن للأطباء والمرضين ، سواء كانوا أوروبيين أو حلبيين ، الدخول إلى الحرمات في جميع الأوقات عندما يقتضي حضورهم ، وعادة ما كان يقدم للطبيب النعنع والقهوة ، ولا يمكن رفضها لأنها تعبر عن الاحترام وحسن الصيافة أما في الأمر التي اعتاد على زيارتها طبيب أوروبي ، وعندما كانت مريضته

(١) - أنطوني المرجع السابق ، ص ٢٨٢

(٢) - فسطون المرجع السابق ، ص ٦٥

(٣) - راسل المصدر السابق ، ص ٣١٨

(٤) - سوزمايان، للمرجع السابق ، ص ٤٠٩.



تتمثل للشعاء ، فإن تلك الريارة تطول ليشبع فضول المبدعات اللواتي يقصن بطرح أسئلة لا حصر لها حول بلده ، كما يتناهبن فصول خاص للتعرف على أحوال النساء الأوروبيات ، وطريقة ليسهن وعملهن وروجهن ، ومعلمتهن لأطفالهن ، وكيف يفصين أوقتهن<sup>(١)</sup> . مما يدل على وجود علاقات جيدة بين سكان ولاية حلب والأطباء الأوروبيين ، حيث فتح أهالي حلب بيوتهم أمام الأطباء الأوروبيين على الرغم من أن مجتمع حلب محافظ ، مما دل على وجود الثقة بين الطرفين .

ومن خلال الأوامر السلطانية يمكن التعرف أكثر إلى العلاقات بين الجاليات الأوروبية والمسلمين في حلب . فهي أمر سلطاني ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م يأمر بملاحقة الأشخاص الذين حاولوا الاعتداء على القنصل الإنكليزي المقيم في حلب ، حيث وقع خلاف بين القنصل المذكور وبعض الأهالي ، أدى إلى تجمع الأهالي بقصد الهجوم على القنصل والإصرار به بدافع وتحريض من الأعداء الروس الذين كانوا في حالة حرب مع السلطنة العثمانية . ولما كانت العهود والمواثيق المبرمة بين السلطنة وإكثرا تقضي حماية رعايا هذه الدولة لذلك طلب الباب العالي الصرب ببد من حديد على هؤلاء المعتدين ومعاقبتهم ، وعدم التسهل في المستقل مع أي كان في مثل هذه القضايا<sup>(٢)</sup> . مما يفسر حرص السلطنة على سلامة وحماية أفراد الجاليات من أي اعتداء يمكن أن يتعرضوا له .

كذلك صدر فرمان سلطاني آخر يلزم تسديد الدين من قبل السيد عباس طه رادة للتجار الفرنسي (يصل) والمبلغ (٤٣٩٥ قرشاً) لعام ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م ، وهي مستحقة الدفع وادعى المستدين أنه أرسل حوالة بالمبلغ إلى صاحب الدين ، لكنها وصلت عن طريق الخطأ إلى جهة أخرى ، مما سبب التأخير في تسديد هذه الدفعة ، وبناءً على الاسترحام الذي قدمه المقيم العام الفرنسي وشيخ الإسلام أقر بدفع هذه الدفعة<sup>(٣)</sup> . يلاحظ أن الحوالات كانت تستخدم في المعاملات التجارية مما ساهم بتطور التجارة في ولاية حلب .

كذلك صدر فرمان سلطاني بلرزم ملاحقة المدرس علي أفندي طه الذي استدان مبلغ / ٢٤١٠٠ قرش / من شركة فرنسية تدعى (اولاق - داليان) حلب بموجب سند مؤرخ عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م بلتزم به المذكور بتسديد المبلغ ، وعندما حان موعد السداد أخذ يقدم حجج وأذكار واهية . وطلب من قاضي حلب

(١) راجع المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٢) - الفرمان رقم / ٢٨٢ / ، تاريخ الفرمان (١١٨٣ هـ) ، من السجل / ٨ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ١١ / ، تاريخ الفرمان (١٢٠٦ هـ) ، من السجل / ٢٣ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٥٧ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

ومحصلها تحصيل المبلغ المذكور وعاشته لأصحابه<sup>(١)</sup>. يدل ذلك على أنه كانت توجد علاقات تجارية واسعة بين أهالي حلب من جميع الطبقات مع تجار الجاليات لأوروبية.

**العلاقة بين الجاليات الأوروبية والمسيحيين:** شجع وجود القنصليات والجاليات الأوروبية على أرض حلب واحتلالها لمراكز مؤثرة للمسيحيين المحليين على الشعور بالأمان في مسائلهم العقائدية والتجارية، وخاصة أن العقيدة السائدة في البلاد كانت تؤكد بأن الأجانب يعملون للدفاع عن المسيحيين<sup>(٢)</sup>.

إن العلاقة بين الأوروبيين والمسيحيين العرب من شتى المذاهب، كانت علاقة مفتوحة في المبداء التجاري والاجتماعي. إذ كان المسيحيون يتراوون مع الأوروبيين، إلا أن المجتمع الدسائي بقي محدوداً جداً، لأن السبائك المسيحية الحلبات لا يعرف سوى اللغة العربية، ولا يتكلم سوى عدد محدود جداً من ذوي العرق المحتلط اللغة الفرنسية (Mezza Ressa). ولا يقوم بعض الإنكليز بزيارة السكان المحليين من معارفهم إلا في السنة الجديدة. وحتى أولئك الذين يستطيعون التكلم بالعربية، هادراً ما يتبادلون الريارات. بينما المتداخلة والفرنسيون والهولنديون أكثر اتصالاً بالمسيحيين من الإنكليز.

أقام الموارنة علاقات مع الإفرنج أكثر من أي طائفة أخرى. إذ كانوا يرسلون أطفالهم إلى مدارس الأديرة ليتعلموا اللغة الإيطالية، بالإضافة إلى أشياء أخرى تؤهلهم للعمل في المحارر الأوروبية<sup>(٣)</sup>.

وقد حصلت بعض الريحات بين شبان من الجاليات الأوروبية وشابات من مسيحيي البلاد، بالرغم من عدم ترحيب الأوروبيين بهذا الأمر. وقد ارتاح بعض المسيحيين إلى العمل في كنف الجاليات الأوروبية، حتى أنه طلب إلى قناصلهم حمايتهم وصمهم إليها، وهذا الأمر انتشر على نطاق واسع في القرن الثامن عشر، حيث ظهرت صم الأمم الأوروبية فئة المحميين. وكان يتم هذا موافقة السفير والسلطان، وتصدر براءة حاصلة بذلك، وكان بعض المسيحيين يحرصون للحصول عليها، لينتموا بواسطتها من سلطة الدولة العثمانية، ويستفيدوا من الامتيازات، وبخاصة الإعفاءات من الضرائب، وصها ضريبة الجريبة، وكان الفناصل بدورهم يشجعون هذا الاتجاه ليدعمو مراكز دولهم الأوروبية، وينتجوا عودها عن طريق هذه الفئة<sup>(٤)</sup>.

(١) العرمن رقم / ١١٣ / ، تاريخ العرمن (١٢١٠ هـ) من المجلد / ٢٥ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٥٩ ، دار للوثائق التاريخية بدمشق

(٢) - سورميان المرجع السابق ، ص ٢٨٨

(٣) - رسله المصدر السابق ، ص ٢٥٤ - ٢٦٦

(٤) - Sauvaget p ٢٠٥

وعندما كان عدد المترجمين العبريين قليلاً في السابق كان المصعب يقدم للمسيحيين فوائد كثيرة ويلقى المترجم احتراماً كبيراً ، وعندما توسعت دائرة هذه المنحة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي، قلت قيمة المنصب وأدت إلى بعض المشكلات في حلب<sup>(١)</sup>.

كما كان هناك علاقات تجارية بين أفراد الجاليات الأوروبية والمسيحيين في حلب ، فالسفير الإنكليزي المقيم في إسطنبول جيمس بورتر رفع عريضة للباب العالي مفاده أن / ١٢٠ / شخصاً أرمينياً مقيماً في حلب كانوا قد استدانوا من التاجر البريطاني سرمان عام ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م مبلغ (١٢٨٥٠ قرشاً) بالتكفل والتضامن المالي. وعند حلول موعد السداد تمنعوا عن الأداء بشئ الحيل والأعداء ، بسبب وفاة التاجر (سرمان) فإن التاجر البريطاني دريون يطالب بهذا الحق ، وطالب بسوق ستة من المدينين الكاهن إلى مجلس الشريعة لضمان سداد الدين<sup>(٢)</sup>.

وكذلك صدر فرمان سلطاني آخر ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م لتحصيل دين للتاجر الإنكليزي بولجر من التاجر الحلبي السيد حنا وتسليمها عن طريق القائم بالأعمال التجاري الإنكليزي في حلب<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من العلاقات المفتوحة بين الأوروبيين والمسيحيين الوطنيين، والحماية التي تمتعوا بها، فإن نظرة الأوروبيين إليهم لم تكن نظرة حب وود. وربما تكون الكلمة التي قالها دارفيو عن مسيحيي حلب تعبر عن مكروبات نفوس عدد لا يستهان به من الأوروبيين إذ قال " لقد أثبتت التجربة لي أنهم قاهور وحسادور وكادور وسكارى" ويمكن أن يستنتج من ذلك، أنه على الرغم من التوافق الديني بين الأوروبيين والمسيحيين الوطنيين فإن الأوروبيين كانوا يشعرون بالاختلاف القومي، وبعدم المساواة في الحصار والمدينة والتهذيب بحسب ادعائهم. ومثل هذه الشعور المتأخر قومياً كان متجسداً كثيراً من المسيحيين الوطنيين<sup>(٤)</sup>.

- **العلاقة بين الجاليات الأوروبية واليهود في حلب:** يأتي اليهود في حلب بالمرتبة الثالثة من حيث العدد والأهمية ، وهم في كل مكان تنوا يهود حلب مكانة جيدة في الساحات التجارية والمالية<sup>(٥)</sup>.

بلغ عدد اليهود في حلب (٢٠٠٠) شخص ، وكانوا يسكنون أحياء خاصة بهم ، يصفها الأوروبيون بأنها قدرة وقد لعبوا دوراً مهماً وحظيراً في التجارة مع الأوروبيين ، فقد عملوا وسطاء بينهم وبين العثمانيين ، وأظهروا البهارة في التعاملات التجارية ، كما كانوا مترجمين ، ومشرفين على العمليات المصرفية ، وإليهم

(١) - سورماليان. المرجع السابق ، ص ٢٩٨

(٢) - الفرمان رقم / ١٧٧ / ، تاريخ الفرمان (١١٦٣ هـ) من سجل / ١ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٢٦٢ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - الفرمان رقم / ١٠٧ / ، تاريخ الفرمان (١١٥٢ هـ) من السجل / ٤ / للأوامر العثمانية لولاية حلب ، ص ٤٨ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق .

(٤) - الصباغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢.

(٥) - سورماليان. المرجع السابق ، ص ٣٢١

بلجاً الأوروبيون عندما يريدون الافتراض لدفع العرامات المفروضة عليهم ، التي كان اليهود عنصرًا فعالاً في إثارتها صدهم. ولكل هذه الأسباب كان الأوروبيون على احتكاك مستمر معهم ، إلا أن صلات العمل بينهم لم تنتج تفاعلاً ووداً بل على العكس من ذلك ، رادت الأوروبيين بغصاً وحقدًا على اليهود<sup>(١)</sup>.

وحيث من وصف اليهود في حلب الفصل الفرنسي دارفيو إذ يقول " اليهود أسوأ شعوب العالم ، يعضون المسيحيين كالموت ، وهم دائمو التحضر لإيذائهم ، ويوجدون الفرص المناسبة لتحقيق مآربهم ، ويعدرون - دون أدنى حياء - بالأشخاص الذين يحسون معاملتهم ، ويستغفرون منهم ، لذلك فإنهم كاذبون ومنافقون ، ويثربون موطفي الدولة ، وعلى الرغم من عدم استفادتهم من كل ذلك ، إلا أنهم يستشون ويرتاحون بفعل الشر وصرر الآخرين واليهود بشكل عام وسطاء تجاريين وصرافون معروفون " من أين تؤكل الكتف". وليست هناك مهنة لا يعلمون بأسرارها. وكل شخص لديه خادم أو شريك يهودي عليه مراقبته ، وألا يفشي أسرارها إليه. ويرى اليهود أغنياء عديدين ، وهم مرابون ، وليس بمعدور أحد منافستهم في ذلك<sup>(٢)</sup>.

أما الرحالة الهولندي كورنوليس دوبرويجين الذي أقدم في حلب أحد عشر شهراً ١٠٩٤ - ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٢ - ١٦٨٣ م شارك خلالها في حياة الأوروبيين في المدينة فيذكر " حينما كنت في حلب ، ذهبت مع بعض التجار لزيارة يهودي ، أكثر اعتباراً من كل أفراد جاليتة ، وهو يسكن مع جميع أفراد عائلته منزلاً جميلاً ، عمره حوالي ثمانين عاماً ، يسعى يعقوب سينور ، وقد استقبلنا بكثير من الحفاوة ، وقدم لنا وجبة حفيفة وجيدة<sup>(٣)</sup>.

ولم تكن علاقات الأوروبيين مع اليهود علاقات عمل فقط ، وإنما يزورون أحياءهم أحياناً لأغراض شخصية غير شريفة ، فمعظمهم يملكون بيوت دعارة سرية ، وأكثرية المعنيات والراقصات منهم. فالصلات الاجتماعية المتينة لم تكن قائمة بين اليهود والأوروبيين ، إذ أن الأخيرين حملو صدهم النزمت والحق من أوروبا ، ورائتهم صلاتهم العملية معهم بعضاً على بعض<sup>(٤)</sup>.

لقد استفاد المسيحيون واليهود من علاقاتهم التجارية مع الأوروبيين لأنها أكسبتهم خبرة وعلماً تجارياً واسعاً ، لذلك عندما غادر الأوروبيون بلادنا ، قام المسيحيون واليهود بالحلول محلهم ، وممارسة النشاط التجاري بشكل واسع جد ، وهذا ما رفع من مركزهم في المجتمع الذي يعيشون فيه ، فأصبحوا عنصراً فعالاً ، ولهم دورهم الكبير في الحياة الاقتصادية.

(١) - الصبغ: الجاليات الأوروبية ، للمرجع السابق ، ص ٧٦٣.

(٢) - سورمايل المرجع السابق ، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٣) - المدرس المرجع السابق ، ص ٨٨.

(٤) - الصبغ: الجاليات الأوروبية ، ج ٢ ، للمرجع السابق ، ص ٧٦٣.

ومما تقدم نرى أن الجاليات الأوروبية تمتعت بحماية ورعاية السلطة العثمانية ، ومحتهم الحربة في الحركة والتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن المتعة ونضاء أوقات الفراغ في سهول وبياتين حلب. والتمتع بكل مظاهر حياتهم اللاهية إلى حيث يفيمون، وأحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الراحة والترف ، وخصوصاً الإنكليز ، الذين عرفوا كيف يستعملوا كل العصور لفضاء أوقات سعيدة تنسيهم الحنين والشوق إلى الوطن. وعلى الرغم من بعض الحوادث العارضة التي تعرضوا لها في ولاية حلب من قبل السلطات الحاكمة وطبقات الشعب ، والتي لا بد منها في أي مكان ، فبهم سعدوا بحياتهم إذ سحرتهم حلب بحمالها وحضارتها العريقة.

وأيضاً كان انطباع الرحالة الأوروبيين الذين زاروا حلب وتعبوا بأحلاق أهلها ، ولطسف معشرهم ، وحسن استقبالهم للصيوف.

وقدموا لنا نماذج جميلة عن أهالي حلب الذين عاشوا بينهم لسنوات عديدة في القرن الثامن عشر الميلادي. وتكمن بعضهم بما لهم من علم وأدب وأحلاق دحول بيوت الحلبيين ، الذين اطمأنوا لهم ففتحوا بيوتهم بكل ترحاب ، على الرغم من كون المجتمع الحلبي مجتمعاً محافظاً.

## الفصل الرابع

الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية في ولاية حلب

الإرساليات التبشيرية.

وسائل الإرساليات التبشيرية.

موقف الدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية.

موقف السلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية.

كان في حلب في مطلع العصر العثماني أربع طوائف مسيحية هي: الروم (الأرثوذكس) والأرمن والموارنة والسريان (اليغاقبة) ، كما كان هناك بعض العائلات الكلدانية أوكل الاهتمام بها إلى الفرنسيين ثم إلى المطران جرمانوس فرحات مطران الموارنة. وكان على رأس كل طائفة مطران مقيم في حلب ، ويرتبط برئيس أعلى هو البطريرك. وبطريرك الروم مقيم في دمشق ، وبطريرك الأرمن مقيم في سبسي في كيليكيا ، وبطريرك السريان في ديار بكر أو ماردين ، وبطريرك الموارنة في قنوبين شمال لبنان.

ونظراً لأهمية حلب جعل الكثير من البطارقة مقرهم فيها. واعترف العثمانيون للبطريرك البويسي المقيم في إسطنبول بسلطة عليا على جميع المسيحيين من الطقوس البيزنطية ، كما عترفوا للبطريرك لأرميني الذي أقاموه في إسطنبول بسلطة عليا على جميع المسيحيين الآخرين<sup>(١)</sup>.

وكانت الطوائف المسيحية في حلب قد انفعت على أنه مهم وقع على نصارى حلب بطوائفهم لأربع، أو على طائفة منهم بمفردها من الحسائر والجبايات والتجريم بعم ويحق الجميع<sup>(٢)</sup>. لذلك شعر المسيحيون الحلبيون بالتضامن ، وأنهم يشكلون وحدة جماعية رغم تعدد طوائفهم ، وتميزو بذلك عن مناطق أخرى. حيث الحلاف الطائفي كان أكثر حدة.

وكان تجاور الكنائس والعبث في الأحياء نفسها ، والتزاوج بين الطوائف المختلفة قد خلق جواً من الألفة والوحدة<sup>(٣)</sup>.

كما كان لكل طائفة كنيسة خاصة بها للعبادة ، وطقوس وتقاليد ورجال دين ، ثم انقسم الروم والأرمن والسريان بعد - الإرساليات التبشيرية الأوروبية - فعلياً على مدار القرن الثامن عشر الميلادي وما قبله ، وذلك ببرور طوائف كاثوليكية جديدة مع الكنائس الأم حيث شكل الروم الأرثوذكس أكبر الطوائف المسيحية في سورية ، فكتبوا حوالي نصف مسيحيي حلب<sup>(٤)</sup>. وكانت هذه الطائفة لا تزال على المذهب الأرثوذكسي ، إلى أن قام البطريرك نيقفيطوس السافزي سنة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢ م الذي صاحب رهبان صوبيين من بلدة (سافزا في قبرص) وجعلهم أساتذة معلمين في مدارس دمشق ، ثم انتشروا في حلب وصيدها من البلاد الشامية ، وشروعاً يدعون إلى الكتلة في هذه البلاد سرّاً علناً ، حتى كثرت أتباعهم واستغل أمرهم ، وجم عن ذلك النزاع والشفق بين أتباعهم وبين أبناء الطائفة الأرثوذكسية ، وكان يسعدهم فصل فرنسا في حلب

(١) ديك ، غياطيوس الحصور المسيحي في حلب خلال الألفين المنصرمين ، مطبعة الإحسان للروم الكاثوليك ، حلب ، ٢٠٠٣ ، ص

٣٢ - ٣٠

(٢) توتل ، المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤

(٣) ديك ، الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٣٤

(٤) - ماركوس : المنصر العبايق ، ص ٥٢ - ٥٨

والصغير الفرنسي في إستنبول، ويعدمون لهم أنواع المعونات، ودعمت السلطة العثمانية الرهبان الروم الأرثوذكس، واستمر ذلك زمناً طويلاً، حتى آل الأمر إلى حوادث ١٢٣٤ هـ / ١٨١٥ م<sup>(١)</sup>.

**أما طائفة الأرمن الكاثوليك:** فإن وجود هذه الطائفة في حلب قديم بذليل وجود بعض أسر أرمنية كاثوليكية، مصل على عليها في حلب نحو أربع مائة سنة منذ عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م، وتلك الأسر أحدث الكتكئة<sup>(٢)</sup> عن الموارد أو عن الصليبيين حينما كانوا في سورية، أو أنها كانت كاثوليكية قبل أن تتوطن في حلب.

**أما الموارد على الرغم من قلة عددهم** يشكلون طائفة خاصة في حلب، والكنيسة المارونية هي الوحيدة بين الكنائس الشرقية التي انفصلت عن الكنيسة السريانية، وتبعث للسلطة البابوية، واحتفظت بلحنها المارونية وعاداتها القديمة في حطوطها العريضة. وتجري الطقوس والعبادات الدينية باللغة السريانية على الرغم من عدم معرفة اللغة بها. وحافظ جميع كهنة الكنيسة المارونية على آرائهم الحرجية القديمة بينما يرنون القمصان اللاتينية أثناء القداس والبراسيم الدينية المختلفة<sup>(٣)</sup>.

**أما الكلدانيون:** شكلوا طائفة صغيرة وصل عدد أبنائها إلى ١٥٠٠ شخص، إلا أنها نشيطة ومردهرة مادياً، فقد تكتكتهم كالموارد. وقد نرح معظم الكلدانيين إلى حلب من ديار بكر. وتعيش هذه الطائفة حياة داخلية هادئة وبحوطة مادية، لأن معظم الرجال والنسب يعملون في المهن والتجارة. والكنيسة الوحيدة للكلدانيين تقع في حي العريرية وإلى جنبها المطرانية<sup>(٤)</sup>.

وكانت السلطنة العثمانية تشرف على أمور المسيحيين الدينية في معظم أنحاء السلطنة من خلال بعض العرمانات السلطانية الخاصة بتعيين رجال الدين، حيث رفع ممثلين من الطائفة الأرمنية في حلب، وعددهم ٩٨٢ يسترحمون فيه عزل الراهبين ميكايل وأوديك بسبب خروجهم عن الأعراف الدينية، ومحاولتهم إدخال مذهب الإفرنج الكاثوليكي مما أفسد صمائر طائفتهم، ويطلبون تعيين الرهبان آكوب بدل الراهبين المذكورين<sup>(٥)</sup>.

(١) - العزوي للمصدر السابق، ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) - الكتكئة: أو الدين الكاثوليكي المسيحي أو المذهب الكاثوليكي المسيحي اسم واحد، وهو مذهب مسيحي معروف ينتسب به اليوم ثلاثمائة مليون نسمة، ويعلم أصحابه أنه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح عليه السلام قبل عشرين قرناً وأخذ عنه رسله الحواريون لبشروه بمره في كل العالم، تحت رئاسة الأساقفة الخاصين بالخبر الأعظم باب روما، أما اسمها فهو مشتق من لفظة يونانية معناها الجسم والمشتقة في كل الأرض. انظر محمد كرد علي: ج ٦، ص ٢٣٠.

(٣) - مورطيس للمرجع السابق، ص ٣١٤.

(٤) - مورطيس للمرجع نفسه، ص ٣١٩.

(٥) - العرمان رقم / ٢٩٦ / تاريخ العرمان (١١٥٥ هـ) . من السجل / ٤ / للأوامر السلطانية بولاية حلب، ص ١٩١، دكر الوثائق التاريخية بدمشق.



كم صدر فرمان سلطاني بتعيين البطريرك كوركيس بن موسى على الطائفتين السريانية واليعقوبية ، للإشراف على أمورهم بدل من البطريرك المتوفى كوركيس بن شمعون ، وعلى المطارنة والقساوسة والرهبان في الأديرة والكنائس التابعة للطائفتين أن يتبعون تعليماته بكل ما يتعلق في حل أمر الطائفتين ، كما حوله الباب العالي الإشراف على الأوقاف والمتروكات لتلك الطوائف ، كما فوض بتعيين وعزل ونقل المطارنة والرهبان والقساوسة وكل من يعمل في الأديرة والكنائس<sup>(١)</sup>

وفي فرمان سلطاني آخر مرسل إلى والي حلب وقاصيها ، يمح برءة شريفه تفصي ببقاء المطران ميخائيل في منصبه لطائفتين السريانية واليعقوبية بدلاً من الراهب كوركيس ، وذلك بناءً على طلب رجال الدين من الطائفتين المذكورتين ، لحسن سلوكه<sup>(٢)</sup>.

## ١ الإرساليات التبشيرية:

إن رجال الدين الذين غادروا أوطانهم في أوروبا ، وأتوا ليستقروا في ولاية حلب هم فئتان: أولاً رجال الدين المرافقين للجاليات التجارية الأوروبية ، وعددهم لا يتجاوز الاثنین لكل جالية ، وقد أرسلتهم الهيئات المشرفة على التجارة في أوروبا ، ليرصوا الحجاج الدينية والروحية لمواطنيهم. وكانوا يعملون في كنائس العائلات ، ويعيرون الطقوس الدينية ، ويلقون العظات على أفراد جالياتهم أيام الأعياد ، وفي المناسبات المختلفة والأعياد. كما كانوا يؤدون دور الحكم في الكثير من الخلافات بين أفراد الجالية ، أو بين انفصل ومجموع أفراد الجالية.

ثانياً: رجال الإرساليات التبشيرية ، المنتمون إلى فرق وإرساليات دينية مختلفة ، وهدوا إلى حلب بهدف التبشير<sup>(٣)</sup>. فلم تكن حلب هدفاً لتجار الجاليات الأوروبية وحسب ، حيث كان لزاماً على الإرساليات التبشيرية أن تتبع التجار. الذين وجدوا فيهم مسعداً تبشيراً مهماً لهم بعد أن فشلت محاولات الحروب الصليبية. فعزروا غزو البلاد العربية مسلمة وإقناعاً عن طريق بشر المذهب المسيحي الكاثوليكي. كما كانت الفواهل التجارية تشجع طلاب العلم والراهبان المبشرين كاليسوعيين والكبوشينيين والعاراريين بالنزوح معهم إلى حلب. ولم يفتح حلب في استقطاب هذه الفئات الدينية سوى لبس، فأسسوا فيها الأديرة والمدارس ، كدير الأرض المقدسة

(١) - فرمان رقم / ٢٣٤ / تاريخ فرمان (١١٨٣ هـ) ، من السجل / ٨ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، دار الوثائق التاريخية بمشق

(٢) - فرمان رقم / ١٧٨ / تاريخ فرمان (١١٩٦ هـ) ، من السجل / ١٦ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ١٣٤ ، دار الوثائق التاريخية بمشق

(٣) - المصباح الجاليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٧٦٧ - ٧٦٨

الذي كان يقع في حال القسائية ، وفيه أكبر كنيسة يؤمها الأجانب الكاثوليك ، ودير الآباء الكبوشيين ، والآباء اليسوعيين في حال البنادقة ، ودير الكرملين في حال الجمرك<sup>(١)</sup>

بذلك كانت حلب مسكناً لرجال الدين الأوروبيين والفرسان الصليبيين والقواد والعملاء التجاريين والقسائيات ، وللوجود الأوروسي في حلب غابت رئيسة منذ القرن السادس عشر. الهدف الأول دينسي و لأحر تجاري.

لقد حاولت البابوية منذ القرن العاشر الميلادي وحتى يومنا هذا تشكيل شبكة لائتبية في جميع الطرق التي مرت عبرها جحافل الصليبيين من أبواب صربيا وحتى القدس الشريف ، ولإنجاح مخططها أرسلت روم مبشرين شيا ومنعلمين وحاذقين يحضون المساعدة ، وعلى طريقهم نحو الشرق جعلوا مدينتين رئيسيتين وتحديداً حلب وإستانبول مركزي اجمع وانطلاق لهم بعد ساء الكائنات والأديرة فيهما

ومن أجل نشر الإيمان كانت لحلب ميزات أكبر بكثير من إستانبول ، حيث تقع بصريكية كنيسة اليونان الأرثوذكس التي تعارض بشدة الكاثوليكية، بل نعاديا ، بينما كان لحلب ميرات سياسية وجغرافية مميزة لتوسع النابوية هيمنتها داخل المدينة وفي محيطها.

وبعد تراجع البابوية في كبايكيا كان على لاجتياحات الدبية الاتجاه جنوباً إلى حلب المدينة التي تعد من أقدم المدن في سورية ، التي كانت مدينة تجارية مزموقة. وكانت همرة الوصول بين أوروبا وآسيا ، وبإستطاعتها أن تحوز على دعم قناصل الدول الأوروبية اللاتينية.

وعدا ذلك كانت حلب تقع على مفترق الطرق لشبيطة التي تتجه إلى بلاد ما بين النهرين وفارس ، وتأسيس بعض المراكز التبشيرية يمكن أن يسهم في نشر العقيدة الكاثوليكية اللاتينية في بعض مدينها. وكان المشرون من رجال الدين الأوروبيين يتجهون إلى حلب في بادئ الأمر ، ويبقون فيها بعض الوقت، ويتسلحون ببعض المعلومات الضرورية ثم يعادرون المدينة لمتابعة مهمة التبشير.

وقد كبرت أهمية حلب لدى الفاتيكا إلى درجة بدء مندوبية في نهاية القرن السابع عشر ، ووضعها تحت رعاية وحماية القنصلية الفرنسية في حلب ، وعين فرانسوا بيكه الذي كان القنصل الفرنسي السابق في حلب مندوباً وأسقفاً لنبابوية ، وبشر بالكاثوليكية بين أرمن وسريان وكلدان دير بكر والموصل<sup>(٢)</sup>.

وقبل الحديث عن الإرساليات التبشيرية بشكل مفصل ، يجب لتوقف للتعرف على كيفية تربية المبشرين وماهية أهدافهم الحقيقية

(١) - القونامي المرجع السابق ، ص ٢٢٣

(٢) سورمايان المرجع السابق ، ص ٣٦٥ ٣٦٦

كيف يرعى المبشر المسيحي: ربي المبشرون في مدارس دينية خاصة في البلاد الأوروبية في كنائس أو أديرة ، منذ صغرهم ، فإذا أتموا هذه المدارس ذهبوا إلى كليات أو معهد دينية ليكملوا دراساتهم الدينية ، وعلى هذا فهم يشعرون بشأه دينية بحتة.

فبينما يتعلم المبشر أمور دينه ، يأخذ في تعلم بعض العلوم الأخرى ، كاللغة العربية واللهجة العامية ، ليستطيع أن يفهم بالأولى ويحاطب الناس بالثانية.

ولا شك في أن أغلب المبشرين من الفسوسة والرهاس الذين تربوا في الكنائس و لأديرة منذ طفولتهم ، يصبحون مخلصين للنصرانية<sup>(١)</sup>.

**بواعث التبشير الحقيقية:** يطر بعض الناس أن المبشرين بأنور إلى المشرق العربي لتبشر الدين على أنه الهدف الأسمى ، والحق أن بشر الدين أمر ثانوي في جميع الإرساليات التبشيرية ، وقد يجد أشخاصاً قليلين يمولون إرساليات تبشيرية في الشرق. ثم أفراداً قليلين أيضاً يتون في هذه إرساليات لبشروا الدين حباً بشر الدين ، على أن الكثرة المطلقة من الذين يمولون تلك الإرساليات ، ومن الذين بأنور فيها ، لا صلة بين أهدافهم الحقيقية وبين الذين أو المذهب المسيحي الذي برعمور أنهم قد جاؤوا لبشره أو لتحويل طائفة مسيحية من مذهب إلى مذهب آخر<sup>(٢)</sup>.

**أما بداية التبشير:** فهناك مجموعة آراء حول بداية التبشير في المشرق العربي. وإحدى هذه الآراء بعيد البداية إلى القرن السابع عشر ، وذلك لأن القس الفرنسي اليسوعي ميلوز كتب كتاباً بالفرنسية عن الحروب الصليبية في الشرق ، حيث قال فيه (إن الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرون في القرن السابع عشر ، لا تزال مستمرة إلى أيامنا. إن الرهبان والراهبات الفرنسيات لا يزلون كثيرين في الشرق. وبعد احتطت فرنسا طويلاً بروح للحروب الصليبية وبالحنين إلى تلك الحروب التي لا زالت حية في نفسها.

وكانت من غايت الامتيازات الأجنبية ، أن تحتط فرنسا دائماً بالدور الذي يلعبه رهبانها ، وأن توسع ذلك الدور ، وقد اعترفت لسعرائها وقناصلها بالحماية للمسيحيين ، تلك المهمة الصعبة التي لم تحطع عليهم إلا شرف حضور الصلاة في الكنائس. ويحمو أعمال المبشرين في أنحاء السلطة العثمانية ، وقد كان ممثلو فرنسا يساندون أعمال المبشرين ، وكثيراً ما كان لفرنسا في أكثر الأحيان ، فسوسة في أشخاص قناصلها ، وخصوصاً في القرن السابع عشر. وقد كانت تختار سعراء وقناصلها من رجال الدين

فإن الرجل الذي عهد إليه الحصول على الامتيازات عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م لفرنسا من الباب العالي ، كان يدعى ده لافورست وهو رهب من فرسان القديس يوحنا الصليبيين.

(١) - فروخ ، عمر خالدي مصطفى التبشير الاستعماري في البلاد العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٥٧ م ، ص ٣٤

(٢) - فروخ المرجع نفسه ، ص ١١٨ - ١١٩

ومن أجل ذلك عبر الراهب الصليبي ده لافورست مبعثراً في إستانبول، فكان أول سفير لفرنسا في السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

مما أدى إلى قوة التبشير ، الذي وجد أنصاره لطريق أمامهم مفتوحاً وميسراً مع العوامل التي أعدها لهم النفود للاستعماري ، وأهمها الامتيازات الأجنبية ونفوذ القناصل وسيطرة الدول الأوروبية على بعض لأمر ، وقد كانت البعثات التبشيرية قاصرة على الدول الأوروبية التالية: فرنسا - انكلترا - إيطاليا - ألمانيا - بولندا حيث كان لها نفودها الاستعماري في البلاد العربية قبل القرن التاسع عشر<sup>(٢)</sup>.

رافقت الجاليات الأوروبية في حلب إرسالاتها الدينية التي كانت تتبع الكنيسة العربية الكاثوليكية في روم لتقوم بالخدمات الدينية لها ، وكان في مدخل كل حارة جامع وكنيسة وكنيس لممارسة العبادات التوحيدية المختلفة<sup>(٣)</sup>.

وقد وجدت في حلب الإرساليات التبشيرية التالية.

الفرنسيون: سبق الفرنسيون جميع المبشرين ، حيث جاؤوا إلى حلب في العهد الأيوبي لرعاية السجدة الأفرنج في قلعة حلب مؤقتاً ثم عادوا عام ٩٧٩ هـ / ١٥٧١ م ، حيث استقروا في حلب بصحبة الجالية البندقية ، وأخذوا يهتمون بشؤون الأفرنج المقيمين في حلب.

كما دخل الآباء اليسوعيون في عام ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٥ م حلب ، واتخذوا مقامهم في خان البنادق، ولم يرحلوا إلا بعد إلقاء رهائيتهم سنة ١٧٧٣ م بأمر من الحبر الأعظم اكليمينوس الثالث عشر، فتنقلص وجود الآباء اليسوعيين في حلب ، وتركوا ديرهم فيها للآباء اللعازاريين<sup>(٤)</sup>.

وم بين عامي ١٠٣٣ - ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٣ - ١٦٢٧ م وصل إلى حلب بتوصية من ملك فرنسا مشترون ينتهون إلى ثلاث رهنات: الكوشيون والكرمليون واليسوعيون، وكان الكوشيون واليسوعيون قادمين من فرنسا ، والكرمليون من المناطق الإسبانية والإيطالية وبيهم بعض الألمان. وبما أنهم قدموا مبدئياً لرعاية شؤون الإفرنج، فحددت إقامتهم بجانبهم في الحانات في منطقة الأسواق. كان الفرنسيون الرهنات الوحيدون بين الدين يشعلون حاراً بأكمله (حارة الشيباني).

وتمكن الكرمليون والكوشيون من استملاك مقر لهم مجاورين بذلك بقية التجار ، حيث استقر الكرمليون في حارة الجمرك ، والكوشيون في حارة القصادية. اعلمت مؤقتاً كنيسة الكرمليين بدءاً على شكوى بعض الجوار الذين انزعجوا من أصوات النرايم. ولاقى اليسوعيون صعوبات أكبر لإيجاد مقر مناسب لهم

(١) - فروع المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٣.

(٢) - البساطي المرجع السابق ، ص ٢٠.

(٣) - هلال: المرجع السابق ، ص ٣٥٢.

(٤) - الجاسر ، نعيمه مدارس حلب الأثرية ، دار الرصون بحلب ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٥٠٨ - ٥٢٥.

ويعمونة التجار الأوروبيين تمكنوا من استئجار غرفة في حان العرسيين وغرفة أخرى جهزت ككنيسة وفي عام ١٠٣٨ هـ / ١٦٢٨ م استبدلو أمكنهم بعية النوسع ، ولأقوا هناك صعوبات ، فاشترى شعة في خان الحبل ، حيث يقع القنصل العرسي ، وسكنوا فيه عام ١٠٤٣ هـ / ١٦٣٣ م ، وبدأوا تجهيز الكنيسة .

وفي عام ١١٢٢ هـ / ١٧١٠ م قام اليسوعيون بمحاولة لبحر جوا من الحان ويسكنوا في دار في حي الجلوم ، وهو حي اسلامي راق مما أثار فتنة ، وسب مشكلات انعكست على سائر المسيحيين .

و يمتد العصر الذهبي للرسائل التبشيرية في حلب بين عامي ١٠٧١ - ١١٤٣ هـ / ١٦٦٠ - ١٧٣٠ م ، ويشير تقرير صادر في آذار عام ١١٠٨ هـ / ١٦٩٦ م إلى عدد ٢٧ كهداً لاتبياً في حلب ، ثلاثة منهم أمضوا أكثر من ثلاثين عاماً ، وأربعة منهم أكثر من عشرين عاماً وهناك تقرير عام ١٧٦٠ م يفيد بأن عدد من المبشرين في حلب ١٢ كاهن نجف أكثروس كاثوليك لا يستهان به .

وكان المبشرون على اتصال دائم مع مراكزهم الرئيسة في فرنسا أو روما من خلال المراسلات . واهتم المبشرون بشؤون الجاليات الأوروبية لأن ذلك كان مرر مكوّنهم في حلب لدى السلطات العثمانية . أما العمل الأساسي للمبشرين فكان الاهتمام بالمسيحيين المحليين بعية إعادة اتحادهم بالكروسي الرسولي الروماني وتوطيد الإصلاح التريديتي لديهم<sup>(١)</sup> .

وبذلك تم الاتصال بالفكر المسيحي العربي من خلال المبشرين الأوروبيين الكاثوليك ، الذين قدموا إلى حلب بكثافة ، ومن خلال الطلاب الإنكليزيين الذين درسوا في مدارس روما ، أو في مدارس فرنسا في عهد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر . وعادوا إلى الشرق صالعين باللغات الأوروبية ، وأسهموا مع المبشرين في نقل الفكر العربي ، وتطلى نشاطهم في تدريس اللغات لأوروبية ، كما قاموا بترجمة العديد من الكتب الحديثة ولا سيما الدينية .

وأنقل بعض المبشرين اللغة العربية ، وأحدوا بترجمون الكتب الدينية ، منهم الأب اليسوعي بطرس فروماح الذي خدم في حلب في مطلع القرن الثامن عشر ، وتوفي عام ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م فيها . وكان يحمى إلى التماس عيادته الزاخر ليصح له النص ويهدبه .

وكان من نتائج الانفتاح الثقافي والروحي على العرب ، أن نشأت الكنائس الشرقية الكاثوليكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، حول أيضاً أنصار التقارب مع روما الجمع بين شراكتهم مع الكروسي الروماني ، الكروسي الأول والشراكة مع سائر الطائفة الشرقية ، إلا أن الهدية التي كانت سائدة آنذاك كانت ترفض هذا التقارب ، وتحاول المحافظة على الشخصية المسيحية الشرقية لأرثوذكسية ، وتؤمن بصحة معتقد الدين على المذهب الأرثوذكسي .

(١) - ديك الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ - ٢٨

وتأرمت العلاقات بين الشرق والغرب ، حيث كان كل فريق يحظى الآخر الأمر الذي حال دون الجمع بين الطرفين. وبطراً للمدورات المختلفة تمرقت الوحدة التي كانت قائمة داخل كل طائفة<sup>(١)</sup>.

ولم يكن الأمر سهلاً ، ولا سبباً أن الرأي العام العربي والإسلامي كان ينظر إلى الدين الكاثوليكي نظرة على أنه دين غريب وعدو ، لأنه دين الصليبيين الذين حاربوا المسلمين في بلاد الشام ومصر والمعرب العربي من خلال الحملات الصليبية ٤٩٠ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م.

ولذلك أوصى المبشرون حتى لا يثيروا السلطنة العثمانية ، بعدم نشر أفكارهم التبشيرية بين المسلمين ، وأن يبشروا بين المسيحيين كأفراد لا كجماعات ، وأن يكون هدفهم رؤساء الطوائف بالذات ولقد نجح المبشرون إلى حد ما بين بعض الطوائف المسيحية الشرقية ، فردد عدد معتنقي مذهبهم ، الذين كانوا يهدبونهم إلى كنيستهم اللاتينية. وتشكلت مع الزمن كنائس متحدة مع روم. ومنشقة عن كنائسها الشرقية مثل كنيسة الروم الكاثوليك ، والسريان الكاثوليك والكلدان الكاثوليك.

وكانت الطريقة التي اتبعها المبشرون ، تشجع تشكيل حرب موبد للإتحاد مع روما بين رجال دين الطائفة ، ثم صمم انتخاب واحد من هؤلاء لكرسي البطريركية حين شعوره ، وأخيراً العمل على تدعيم الجماعة الجديدة المتحدة حول البطريركية غير المعترف بها بعد. وكان نتيجة ذلك أن قام نزاع بين رؤساء الكنائس الشرقية المحلية والمبشرين الكاثوليك اكتسب صابعاً قومياً فقد أحد رجال الدين الشرقيين يعملون بكل قوتهم لتخليص طوائفهم من المبشرين الأوروبيين الأغراب مذهباً ووطناً ولغة وكان لهذا أثره في النمو التدريجي للشعور القومي العربي في القرن التاسع عشر<sup>(٢)</sup>.

وبذلك اعتنق المذهب الكاثوليكي عدد من الكهنة بكثر الموالون لروما ، واعترف بعض الأساقفة المنحبين شرعاً من قبل البطاركة بالإيمان الكاثوليكي ، ولاحق هؤلاء صعوبات للبقاء في مراكزهم ، وانحسب بعض الكهنة الكاثوليك على رأس أبرشيات كان المؤمنون فيها مورعين بين كاثوليك وأرثوذكس. وتوصل بعضهم إلى الكرسي البطريركي. وظل التياران الكاثوليكي والأرثوذكسي يتعاضدان ضمن الكنيسة الواحدة ، وقام الصراع بينهما فيما بعد. إذ كان يحاول كل فريق تسلم قبدة الطائفة والحصول على الاعتراف الممنوع من السلطات العثمانية<sup>(٣)</sup>.

وتأرمت لأوصاع في القرن الثامن عشر، إذ لجأت السلطات العليا الأرثوذكسية إلى السلطات العثمانية ، من أجل نفي الأحبار الكاثوليك، وقامت السلطة بالتشديد على المبشرين اللاتين ، كي لا يزوروا العائلات الشرقية، وكي لا يتردد الشرقيون إلى كنائسهم. وشدد المجمع الروماني على الكاثوليك كي لا يشتركوا

(١) - نيك الحضور المسيحي . المرجع السابق، ص ٥٣ - ٥٤ - ١٠٦

(٢) الصباغ للمجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، للمرجع السابق ، ص ١٩٨ - ١٩٩

(٣) نيك الحضور المسيحي . المرجع السابق ، ص ١٠٦

بالقداست مع الأرثوذكس ، فقامت سلطات كنسية متوارية بين الكاثوليك و الأرثوذكس . ولما ينس الأساقفة الكاثوليك من إمكانية الحصول على الاعتراف بهم من قبل السلطات العثمانية ، وكانو ملاحقين ، لجؤوا إلى لبنان الذي كان ينعم باستقلال شبه ذاتي<sup>(١)</sup>

وهي عام ١١٢٩ هـ / ١٧١٦ م حصلت للمسيحيين ملاحقة في حلب ، بسبب حضورهم الصلاة المقامة لراحة جس الملك لويس الرابع عشر في كنيسة القصلية الفرنسية.

وفي عام ١١٨٣ هـ / ١٧٦٨ م أصدر رؤساء الطوائف الأرثوذكسية المسيحية بحلب يداً جماعياً ، لمنع تردد النساء المسيحيات إلى كنائس المبشرين الإفرنج الواقعة في الأسواق القديمة ، وداحل الحانات ، وبذلك درءاً للأخطار التي تتعرض لها النساء في ازدحام الأسواق والمرور أمام المقاهي . واعترض المشرور الكاثوليك على هذا منع ، وكتبوا إلى مجمع انتشار الإيمان المقدس ، مدعين أن رؤساء الطوائف الشرقية بحلب قد اتحدوا موقفهم المنزمت هذا لا حرصاً على لأخلاق ، بل عيرة من إعراس المؤامرات عن كنائسهم والتعاقب حول المبشرين ، فجاء الجواب من روما لصالح المبشرين<sup>(٢)</sup>.

ولذلك نشطت لإرساليات التبشيرية الكاثوليكية بحمس في تقريب المسيحيين الشرقيين ، وإقامة الصلات الحميمة مع روما . وقدم قناصل الدول الأوروبية كل أشكال الرعاية والحماية والامتياز والذي كان جذاباً للسكان المحليين . كما وفرت الإرساليات التعليم والنظبيب والمساعدات المادية والأخلاقية في أرملة الطاعور والمجاعات ، وحصلت على إعانات مالية من روما دعماً للقضايا المحلية ، وكذلك قدم السفير والقنصل الفرنسي الدعم من أجل شراء النفوس المحبة المسيحية . ومقابل تقديمهم للسلطة البابوية.

ولم يستلزم التحول إلى الكثكعة تغييراً ملحوظاً في الطقوس الدينية والعادات والمعتقدات الخاصة بالمتكثكين ، إلا أنه عدلت بطرنتهم وهويتهم بأساليب مهمة ، فقد أصبحت روما المركز الروحي ، وأصبح الكاثوليك الأوروبيون أحوه لهم بالدين ، وكان حاميتهم ومحسبيهم قد اسحبوا من كنائسهم بانكمار مزير مما أفلق العالم المسيحي الشرقي.

والموارنة هم الذين قبلوا السلطة البابوية كتصريف تعاوني ، أما هرمية الكنائس الثلاث لأخرى فقد حاربت بصراوة صد الجهود التبشيرية للإرساليات ، لا أنها أحفقت في التغلب عليها<sup>(٣)</sup>.

(١) - ديك : الحصور المسيحي . المرجع السابق . ص ٢٠٧

(٢) - ديك : الحصور المسيحي . المرجع نفسه . ص ١٣٧ - ١٩٠

(٣) - ماركوس : المصدر السابق . ص ٥٨ - ٥٩ - ٦٠

ورحلت سجلات المبشرين بتغديرات عديدة فاقت بكثير تلك التي أوردتها اليسوعيون عام ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م ، عندما ادعوا أن عدد الذين بدأوا بالتناول<sup>(١)</sup> لديهم يومياً تراوح بين خمسمئة وستمئة مؤمن. وإذا ما كانت هذه الأرقام صحيحة فإن ذلك يعني أن نسبة كبيرة من مسيحي حلب كانوا من الكاثوليك.

ودفع التحول المسيحي نحو الكاثوليكية بالهرمية الكنسية الأرثوذكسية إلى التقدم للسلطات عريضة بطانين بالعمل على تقويم الوضع ، ونتيجة لذلك أرسل الباب العالي أمراً إلى والي حلب ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م ، يعلمه فيه بوجود منع المسيحيين المحليين من حضور القداس اللاتيني الذي كان يحتفل به بانتظام في حائل الشيباني، وعلى نحو مرعوم للتجار الكاثوليك الفرنسيين. فكانت النتيجة إيقاف كل من كان يرتاد الحان المذكور لهذه العاية ، وإبداعه السجن.

وهي تقرير رفع إلى السلطان العثماني عام ١١٤٦ هـ / ١٧٣٣ م اعترف بطاركة الأرثوذكس في كل من إسطنبول والقدس وأنطاكية ، باعتناق معظم من كان ملكياً ديانة الفرنجة (الكثلكة)

أما فيما يتعلق بم تبقى من الرعية ، فلقد أصر البطاركة على ولائهم ووفائهم للأرثوذكسية وللسلطان العثماني على حد سواء<sup>(٢)</sup>.

وهي عام ١١٩٦ هـ / ١٧٨١ م صدر من الباب العالي أمر إلى حلب ، أدس بطريرك هذه المدينة في إرام الإكليروس التابع له بممارسة الشعائر الدينية وفق الأعراف والطقوس الأرثوذكسية طالماً فيه إصلاح لأمر<sup>(٣)</sup>

وهي إطار جماعة الروم ، وهي الأكثر عدداً ، انتهت عملية التحول إلى روما إلى أرمه عام ١١٣٥ هـ / ١٧٢٤ م وإلى انفصال تام بين الأرثوذكس واللاتين. وبفسر قوة التحول هذه بمقدرة هذه الإرماليات وقوتها من ناحية ، بالإضافة إلى أسباب محلية أبرزها المصالح التجارية للمسيحيين ، وعدم ارتياح الروم أنفسهم إلى لرهبان الباطنيين باليوضية ، وإلى دعم قناصل فرنسا. وفي نهاية القرن الثامن عشر ، أصبح اللاتين يمثلون الطائفة الأكثر عدداً.

واضطرت السلطات العثمانية للتدخل مرات عديدة ، وبناء على طلب من الأرثوذكس الذين تأثروا بالنزيف الذي كان يصربهم ويضعفهم ، ١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م ، ١٠٧٩ هـ / ١٦٦٨ م ، ١١٢١ هـ /

(١) التناول وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة ، ويقوم به الكاهن ، حيث يتناول به المؤمن جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه الكريمين لمعرة الحطاب ، ولحية لأبنة ، والمتمثلين بالحبر والبيد فنظر سيم مزج الحصادرة الأوروبية في العصور الوسطى ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م ، ص ١٧٢.

(٢) - برومى المرجع السابق ، ص ١٦٦

(٣) - برومى المرجع نفسه ، ص ١٧٥.



١٧٠٩ م ، ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩ م ، ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ ، ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م ، ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م. ولكن تدخلها كان يتوقف على العموم لدى توقف المهارات التي تصع بدورها حداً للعنف<sup>(١)</sup>.

وتم تسجيل انتصار لحركة المتحدين مع روم في طائفة الروم في حلب ، كما نجحوا في الاستحصال على أمر من والي حلب وقاصيها، بحبر تعيين ماكسيموس الحكيم وهو حنلي. مطراناً على شؤون أبرشيته عام ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م.

وقد صدر فرمان سلطاني موجه إلى والي حلب وقاصيها ، لمعاينة الراهب ماكسيموس بالسجن أو النفي لقيامه بالفساد والتصليل ومحاولته تحويل الطائفة الرومية إلى طائفة إفرنجية كاثوليكية ، حيث قام بإجراء الطقوس الدينية حسب أوامر باب روما ، مما يسبب حدوث فتنة بين الطوائف<sup>(٢)</sup>. وتمكن الكاثوليك في طائفة الروم من تولي هذا المنصب معظم لقرن الثامن عشر الميلادي<sup>(٣)</sup>.

وكان لوجود تجار الجاليات الأوروبية الذين فتحوا الطريق إلى حلب ، أمام إرساليات المبشرين الواهدين إليها من العرب ، قم كان من هؤلاء إلا أن وجدوا في مريج المهاجرين الذين صاقت بهم أوطانهم ، وبنوا هائمين على وجوههم في المدينة ، أرضاً صالحة لاحتواء وتنمير بذور عقيدتهم ، فجاءت تقاريرهم التي دفعوا بها إلى رؤسائهم حافلة بالحركة الدائمة لرجال وساء قاموا بحيار عفاندي حولوا بموجبه ولأنهم في الشؤون الدينية من البطريرك إلى البابا. وشكل الكاثوليك في نهاية القرن السابع عشر ، ثلاثة أرباع السريان<sup>(٤)</sup>.

ولوحظ أن شأن الإرساليات التبشيرية كان محصوراً بين المسيحيين المحليين فقط ، لأن ارتداد المسمين أو اليهود يعتبر أمراً خطيراً ومن سوء تصرفات وسلوك للمبشرين أنهم سبوا جدالات لاهوتية عميقة، وظهر جيل من الكاثوليك المتعصبين وصيفي الأفق يحذون الجدل العقيم عوضاً عن توحيد المسيحيين تحت سقف العقيدة الواحدة بالتفهم المتبادل<sup>(٥)</sup>.

حيث بدأت تنتشر العقيدة الكاثوليكية والآداب اللاتينية بالتغلغل في المدن كأنطاكية وحلب واللاذقية وغيرها بسبب اجتياحات الصليبيين إلى بلاد الشام. وكانت النتيجة جدالات حادة وصراعات مسنمة بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية على أرضية المصافح المادية والعيرة ، وأفسحت المعارك الدينية السياسية مجالاً واسعاً لتدخل واسع للسلطنة العثمانية. وكانت روما وبحجة نشر الإيمان بدأت بالتدخل أكثر فأكثر بين

(١) - ريمون المرجع السابق ، ص ٤١٠

(٢) - فرمان رقم / ٦٣٢ / تاريخ فرمان (١١٦٣ هـ) ، من السجل / ١ / للأوامر السلطانية لولاية حلب ، ص ٣٤٥ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق

(٣) - بروم المرجع السابق ، ص ١٦٩

(٤) - بروم المرجع نفسه ، ص ١٦٤

(٥) - سورمابل: المرجع السابق ، ص ٢٩٥

المسيحيين السوريين ، وحاكت الفتن بينهم ، ولجأت إلى الوسائل السمية للسيطرة على أرواح الهراطقة وبالتالي حرت في مدينة حلب الإسلامية أحداثاً أساسية وإراقة دماء غريزة عام ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م ، حيث انفجرت الأحداث الداخلية بين اليونانيين أنفسهم (الروم) في حلب ، وأدى ذلك إلى سقوط ضحايا عديدة وقد أعلم جريجوريوس الخامس البطريرك الممكوني للروم الأرثوذكس في إسطنبول الباب العالي ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م حول وجود بعض الأفراد الذين لا يطيعونه ولا يدفعون الصريبة المخصصة عليهم ، ويرفضون الصلاة في كنائسهم ، ويتبعون الكهنة الكاثوليك الأجانب أو يصلون في بيوتهم ، ورداً على ذلك أصدر السلطان العثماني محمود الثاني فرمان في ٢٤ شباط عام ١٨١٨ م وأمر الوالي في حلب أحمد حورثيب باشا بما يلي:

١ - في الكهنة المياليين لللاتين ٢ - منع رجال الدين اللاتين من زيارة بيوت اليونانيين<sup>(١)</sup>.

تتألف المبشرين: لو كان التبشير دعوة خير لما تنازعَت الإرساليات التبشيرية فيما بينها ، ولما دافست فرقهم ومذاهبهم ، والدليل القائم على ذلك يمشيرها أنه كان لأهل كل مذهب ديني ، وهم يشررون به. هوئ سياسي معند ، ولقد كانت الدول تهتم بيمشيريها لا اعتقادها أنهم طلائع بعودهم ومقدمات لتبسطها في الأرض<sup>(٢)</sup>.

و كان المبشرون يعملون بطرق مختلفة ، كالتعليم مثلاً على تهئة شخصيات شرقية لا تقاوم التسلط الأوروبي فكان التبشير الديني نفسه سترأ للتبشير التجاري والسياسي وأساساً متبناً للاستعمار. وإن أكثر الفتن الداخلية في الشرق ، من دينية وسياسية واجتمعية ، إما قم بها المبشرون ومن تبعهم<sup>(٣)</sup>. وأكبر مثال على ذلك اليسوعيون الذين كان لهم صولة في السلطنة العثمانية ، لأن الدول العربية عموماً وفرنسا وإيطاليا والبابوية خصوصاً كانت تحميهم وتؤيدهم ، علماً أن فرنسا قد طردت اليسوعيين من بلادها ، في حين كانت تتفق عليهم في الحارح الكثير من الأموال. وذلك لأن فرنسا كانت ترمي هؤلاء إلى الحارح عمالاً سياسيين لها ودعم اجتماعية لأرائها وخالفها مشاكل في سبب مصالحها. وكانت لهم في الحارح الصمم الذي يعيدونه. وكان اليسوعيون بعدون كل تعرض لفرنسا تعرضاً للنايا نفسه<sup>(٤)</sup>.

وإن المداخلة الشديدة التي خصها اليسوعيون والفرنسيون ، للتبشير بالإنجيل ، أورتت بسرعة صداماً حاداً ، كانت له حبة أمل كبيرة لدى القناصل والتجار الفرنسيين ، وقد أدت بالفرنسيين ، وكذلك البطريرك الماروني ، إلى طرد اليسوعيين. ففي بداية القرن الثامن عشر ، ازداد عدد المسيحيين المرتنطين

(١) سورمايوس: المرجع السابق ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٢) - فروج: المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٣) - فروج: المرجع نفسه ، ص ٥٧.

(٤) - فروج: المرجع السابق ، ص ١٢١.

بروما كثيراً ، ويذكر أحد المؤرخين لتلك الفترة الحادثة التالية " لم يفتأ الفاصل عن الاحتجاج على تهوّر المتديبين. ففي عام ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م اضطر القنصل إلى معادرة كنيسة الفرنسيين في عيد القربان المقدس بسبب تقدم عدد ضخم من النساء الحليات للقربان ، على الرغم من أوامر والي حلب " وبذلك ازداد عدد الطائفة الكاثوليكية في حلب ، بفصل الإرساليات التبشيرية والدعانة العقائدية ، وكذلك التطاهرات ، العنيفة أحياناً ، لمعارضتهم من الطوائف القديمة الممثلة برؤسائهم لدى الإدارة العثمانية.

كل ذلك كان عاملاً في إضعاف تركيبة مدينة حلب ، وخاصة فيما يتعلق بوضع التابعين لها ، وحماية المسيحيين ، وأدى بالتالي إلى ترسيخ الطبيعة الإسلامية الرئيسية لولاية حلب<sup>(١)</sup>.

ويجب أن نعلم أن الهدف الأساس لأعضاء الإرساليات التبشيرية لم يكن تنصير السكان ، بل كان لها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوروبية التي بعثت بهم إلى حلب وغيرها من بلاد الشام. حيث كان المبشرون يصمرون العداوة والبغضاء للعرب المسلمين ، وللمسيحيين المختلفين عنهم مذهباً. كما كانت للمبشرين أهداف شخصية شوهت اسم المسيحية هي الشرق

وأوجس المسلمون والمسيحيون المختلفون عنهم والسلطات العثمانية حيفة من نشاطهم إذ بطروا إليهم نظرة الريبة ، ورأوا فيهم بؤاءر تسهل استعمار غربي ، وأنهم يتسترون وراء وطنيتهم التبشيرية كما رأى فيهم الأرثوذكس تهديداً خطيراً لكيانهم الديني<sup>(٢)</sup>.

## ب - وسائل الإرساليات التبشيرية:

سلكت الإرساليات التبشيرية لتحقيق ما تصبو إليه من غايات وأهداف طرقاً شتى ، لذلك لم تترك باباً إلا وطريقته ولا وسيلة إلا واستعملتها. ومن أبرز تلك الوسائل كانت المدارس والتطبيب وزيارة البيوت والوعظ والأحزاب والجمعيات الدينية.

١ المدارس التبشيرية: حرص المبشرون على إفساد السبل الإنساني وجعل العلم ، الذي هو نعمة في سبيل تحرر الإنسانية ورقبها ، وسيلة إلى استعباد الأفراد والأمم ثم سوقهم بسيف الاستعمار إلى الاستكانة أمام سلطان السياسة المادي.

لقد سحر المبشرون اسم الله تعالى في سبيل ترويح بصائع أممهم وبشر الفساد الاجتماعي في العالم. وكانت من أولويات تلك المدارس أن تنقل الطلاب من مذهب مختلف إلى مذهبها هي<sup>(٣)</sup>.

(١) دافيد ، جان كلود ، جورج ، جيرار دو ، حلب في الدراسات العلمية ، ت محمود حريزاني ، دار فلاح بيروت ، باريس ٢٠٠٢ م ، ص ٩٤-٩٥.

(٢) - للشماي. للمرجع السابق ، ص ٧٤٥

ويذكر الدكتور عبد الفتاح أحمد في كتابه، التبشير الصليبي والعزو الاستعماري أنه قد (وصل عدد من المبشرين اليسوعيين والعاراريين وغيرهم إلى سورية عام ١٦٢٥ م ، وأسسوا بعض المدارس في دمشق وحلب ، وقد أصبح واضحاً أنه من شأن المدارس التي يقومون بإنشائها في المناطق التي يصلون بنفوذهم إليها ، أن تعتبر بالدرجة الأولى مؤسسات للدعوة ، وطرح الفكرة العلمانية التي تحمل معها الآراء النصرانية، وتنتهي إلى تذيب شخصية الفرد)<sup>(١)</sup>

وأدى افتتاح تلك المدارس ، إلى انتشار الثقافة الأوروبية ، فتمثلها المسيحيون في حلب، وأظهروا شعفاً وعشفاً للحضارة الفرنسية ولعنتها ، فبنى كثيرون منهم هذه اللغة ، ونحدثوا بها كما لو كانت لغتهم الأم<sup>(٢)</sup>.

أما المدارس التي عمل الرهبان الأوروبيون على تأسيسها في حلب ، فقد عبت بتلقي المعارف المتقدمة من أوروبا كالعلوم والرياضيات بالإضافة إلى اللغات الأجنبية والحديث بالذكر أن هذه المدارس وصفت في عهدة اكليروس المتحدين ، النطق باللغة العربية ، التراماً بم فرصة الباب العالي عليه على الأوروبيين في ممارسة نشاطهم الديني ، ولكن مباح الدراسة بقي في معظمه على ما هو عليه ، فلم يطرأ عليه أي تغيير. وما لبث أثناسيوس الثالث دباس ، وهو أحد المطرنة المؤيدين للكاتوليكية والذي كان قد درس في أصول الطبعة في روما ، أن أسس في حلب أولى المطابع في السلطة العثمانية عام ١٧٠٦ م. وبقيت المطبعة قيد الاستعمال لم يفارب عقد من الزمن ، قبل أن تلقى معارضة من الطائفة الأرثوذكسية.

واستطاع اكليروس المتحدين الإفادة من النصوص المطبوعة المشتملة على الخلاصة الجديدة للعقيدة المسيحية ، وعلى الكتب المقدسة وغيره من اللوازم الدينية باللغة العربية. ففي عام ١٧٢٥ م ، تلقى والي حلب وقاصيها أمراً من الباب العالي ، يجبر فيه المالكين استعمال وتوزيع المواد التربوية التعليمية والكتب المقدسة المطبوعة باللغتين اليونانية والعربية في مدارسهم بكل حرية<sup>(٣)</sup>.

كان الطلاب في المدارس التبشيرية يدرسون السريانية ، ويتدربون على القراءة والكتابة الإيطالية ، وعلى الرياضيات ، ويدرس الطلاب اللغات اليونانية والعربية واللاتينية والفرنسية ، وكان المبشرون يرغبون ابتقاء بعض الدعوات الكهنوتية لإرسالها إلى المدارس الرومانية.

وكان كتاب القراءة المفصل كتاب المرامير ، وكتب لإقتداء بالمسيح. وكان التريسي يعتمد على الحفظ. وكان المبشرون يحرصون على أن يقل الطلاب إلى أهاليهم كل ما يتعلمونه في المدرسة<sup>(٤)</sup>. ثم أصبح كتاب

(١) - فروخ ، المرجع السابق ، ص ٦٦ - ٦٧

(٢) - أحمد ، عبد الفتاح التبشير الصليبي والعزو الاستعماري ، دار الجهاد ، ط ١ ، ١٩٨٨ م ، ص ٨٠.

(٣) - السباع ، المرجع السابق ، ص ٣٦.

(٤) - بروس ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣

(٥) - كان الطلاب يحضرون قداس كل يوم ويثلون طبخة المعزاة ، الصلاة الربيه والسلام الملائكي وقانون الإيمان صباحاً ومساءً.

التعليم المسيحي من صلب تدريس اللغة العربية ، وبهمة الفصل العرسي بيكيه قامت محاورات دبية للكار والصغار في كنيسة السريين برشاد الآباء اليسوعيين<sup>(١)</sup>.

هذه المدارس التبشيرية لم تكن تقبل إلا الصغار، ولم تنشأ المدارس للنساء إلا في القرن التاسع عشر. واهتم المبشرون بتقريبهم الديني وكانوا يجمعونهم في الكنيسة يوم الأحد للتعليم الديني ، ويدربون بعضهم على تنقيف الفتات في سيوتهن<sup>(٢)</sup>.

وكان المدرسون في المدارس التبشيرية يتعرضون لمحك عملي بعد ، بمثابة احتار صدق المدرسين الذين يعملون في المدارس المذكورة. بحيث يتم التأكد أنهم يعملون حثاً على تطبيق المبادئ التي يتفق عليها. ولهذا يكون كل المدرسين مبشرين للتعليم الأجبي<sup>(٣)</sup>.

وهكذا بذل المبشرون كل جهد لاستخدام العلم والتعليم في سبيل التبشير . غير أن لتبشيرهم طاهر وبطاً أما طاهره فدعوة إلى سلوكهم لا يسلوكه ، وذلك دعوة على كل حال لم تتم. وأما باطن التبشير فهو تفكير أوامر القوي الروحية بين المسيحيين في السلطنة العثمانية ، حتى يستطيع العرب أن يحكم الشعوب ويستغل بلادها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً<sup>(٤)</sup>.

٢ التطبيب: لقد أدركت الإرساليات التبشيرية هذا الميل في البشر، فخرجوا عن كل نيل في الطبيعة الانسانية ، وسحروا الطب في سبيل غاياتهم يسعون إليها ، فكانوا يقولون حيث نجد بشراً نجد آلاماً ، وحيثما تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب ، وحيثما تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً للتقرب من المرضى.

ولا ريب في أن الطبيب يستطيع أن يصل إلى جميع طبقات المجتمع حتى أولئك الذين لا يحالطون غيرهم. ولذلك رأى المبشرون أنه بإمكان الطبيب المبشر أن يصل تبشيره إلى جميع طبقات المجتمع بواسطة الممرضى الذين يعالجهم ، لذلك عنى المبشرون بالتطبيب على أنه وسيلة للوصول إلى غاية. فمثلاً اليسوعيون قد أسسوا أكثر أعمالهم التبشيرية في سوريا عامة وحلب خاصة إلى جاب مركز التطبيب. وفي هذه المراكز وجهو عنايتهم الأولى إلى كبار الموظفين وإلى الأعيان ، وكانوا يستعملون ذلك لأهداف تبشيرية<sup>(٥)</sup>.

(١) - تيك. المصور المسيحي ، للمرجع السابق ، ص ٤٠

(٢) - تيك المصور المسيحي ، للمرجع نفسه ، ص ٤١

(٣) - أحمد - المرجع السابق ، ص ٨١

(٤) - فروخ : المرجع السابق ، ص ٤٠

(٥) - فروخ : المرجع نفسه ، ص ٥٩ - ٦١

### ٣- النشاط الرعوي: زيارة البيوت والإرشاد وسماع الاعترافات: إن نشاط المبشرين لدى المسيحيين

الشرقيين لم يكن مخصصاً به رسمياً من السلطنة العثمانية، ولدى لأرمن كان يحظر على الشرقيين التردد على كنائس المبشرين.

فكانت زيارة العائلات في البيوت تشغل الجانب الأكبر من نشاط المبشرين. فعندما يدخل المبشر أحد البيوت، حيث يعيش ثلاثة أو أربع أسر يلتف حوله النساء والأولاد، ويخرج صليبه من ثوبه ويبيهم أنه لا يقبل منهم إلا زهاب ولا قصة، ويرفض أي مأكل. ويبدأ بالسؤال عن أحوالهم، وإذا كان الأولاد يمارسون الصلاة ويجعلهم يرسمون إشارة الصليب، ويعلمهم تلاوة الصلاة الربية ويحرصهم على طاعة لأهل وتحاشي السرقة والشتائم ورفقة السوء. وعندما يعرضون عليه مشكلاتهم يعدق عليهم النصائح والتشجيع، ويعدهم بالمساعدة، ويورع بسحاء الصور التقوية والميداليات، ويترك لهم كتيبات مخطوطة تشرح أسرار الإيمان الكاثوليكي.

ولا تقتصر زيارة المبشرين على البيوت فحسب، بل تشمل أيضاً أماكن العمل، فهناك الرجال يعملون في القيصريات حيث أنوال المسيح البدوي يرورهم المبشرون. ويطلبون إليهم أن لا يتوقفوا عن العمل، بل أن يعبروهم فقط بإصعاعهم ويفتحوا لهم قلوبهم. فيتطرق المبشر إلى نقاط الخلاف بين العريبيين والشرقيين فيكررون على ضرورة الرئاسة العليا الواحدة في الكنيسة. وكانت الكنائس الشرقية أكثر تساهلاً في هذا الموضوع وإصعاع الكثيرين للمبشرين وأقروا لهم بحطايهم

وكان المبشرون يعيرون أهمية كبرى لسماع الاعترافات ولاشترتك المؤمنين بالقداس يوم الأحد وتناول القربان المقدس<sup>(١)</sup>.

وكان الوعظ التوجيهي يجري في الكنائس الصغيرة التي أقامها المبشرون في أنيرتهم، أو في محل إقامتهم. ويلاحظ أن كنيسة الموارنة في حلب، قد وصفت نظاماً خاصاً لوعظ المبشرين، بحيث يكون أسوعاً فأسوعاً، أولاً لليموعيين، ثم للكوشيين، ثم للفرنسيين، وأخيراً للكرملين.

وكان الوعظ التبشيري يدوم أكثر من ساعة في كل مرة، ولم تكن السلطنة العثمانية مهتمة بتلك الزيارات والتوجيهات طالما أنها تجري في إطار رعاياها المسيحيين لا المسلمين لكن تنبه الرؤساء الروحيون الدييون للطوائف الشرقية اللذين أخذوا يشعرون بعبود المبشرين الأوروبيين بتدخل بين رعاياهم، واحتطاف واحد تلو الآخر، وقد بينوا لسلطنة العثمانية أن هدف المبشرين هو إخضاع مسيحي حلب لسلطة البابا عدو السلطان، وأمام هذا، أصرت السلطنة بالاتفاق مع الأساقفة الشرقيين أمراً بمنع المبشرين من

(١) ذلك للحصول المسيحي، المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢

دحول مارل الروم والسريان وكنائسهم ، كما تحظر على المسيحيين الشرقيين الذهاب إلى الكنائس اللاتينية<sup>(١)</sup>.

٤ : ترجمة الكتب الدينية: شطت حركة الترجمة مع دخول المبشرين مدينة حلب ، خاصة من اللعنين لإبصالية والفرنسية ، إلى اللغة العربية.

ومع نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر الميلادي بدأت حركة التأليف تنشط ، ويعود أهم أسبابها إلى الانفتاح الفكري نحو العرب الأوروبي ، وخاصة فرنسا ، التي كان لها دور كبير في نشر المعرفة - لحداب نشر المذهب الكاثوليكي - بواسطة قناصلها المقيمين في حلب ، ورهبانها المبشرين ومن أجل خلق جيل جديد من الكليروس المسيحي ليخضع الكتلثة حسب تعاليم روما . لذلك تم تأليف وترجمة عدد كبير من الكتب إلى اللغة العربية أهمها.

كتاب ميزان الرمان تأليف الأب يونس عيسى ، تعريب الأب هروماح والشماس عبد الله الزاهر ، طبع في حلب عام ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م.

كتاب تأملات روحية ، تأليف أحد الرهبان الكرملين طبع عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م.

كتاب مرشد المسيحي ، تأليف الأب دونرمان ، تعريب الأب هروماح والشماس عبد الله الزاهر ، طبع عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م.

كتاب أساطيل العالم ، للراهب الفرنسيكاني ديداكس ستيل ، صبع عام ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م.

كما ألفت أحد المبشرين الكبوشييين كتاب الفلسفة الرياضية في اللاهوت الأدبي، طبع عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م<sup>(٢)</sup>.

٥ - الأخويات والجمعيات التقوية: عمد المبشرون إلى إنشاء أخويات تدرب المنتسبين إليها على التعمق في مفاهيم الإيمان والالتزام بالصلاة وأعمال البر. وشارت حلب ينزع أخوياتها وكثرة المنتسبين إليها ، وقد تنافس المبشرون من مختلف الجمعيات الرهبانية في تأسيسها وتنشيطها. وانحدرت فيها العديد من الشرقيين، وكانت الأخويات مفتوحة لجميع الطوائف ، وجميع الأعمار ، ومنها محتصة جهات معينة.

وبعد أن أسسها المبشرون أصبحت معظمها فيما بعد بإدارة الكليروس الشرقي الكاثوليكي. وأهم الأخويات:

١ - الرهبنة الفرنسيةكانية الثالثة: أدخلها الفرنسيكان مند القرن السابع عشر، وكانت تصم ببوع خاص المتأثرين بممارسات الطقوس اللاتيني ، وانتشرت بشكل واسع في مطلع القرن الثامن عشر.

(١) - الصباغ الجليليات الأوروبية ، المرجع السابق ، ص ٨٢٢ ٨٢٥ ٨٢٦.

(٢) - كحالة ، جوريث ، عبد الله الزاهر الحلبي ، المطبعة الرقمية جسةة حلب ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ م ، ص ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨.

٢ - كان اليسوعيين عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م حلقة من المتعبدات يهتمون بإرشادهم، وقد ترجم لهم الأب فروماج قانور رهنة الريارة.

٣- وفي عام ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م أسس أحد المبشرين اللعاريين الذين حلفوا اليسوعيين في حلب بعد حل رهبنتهم ، أخوية تقوية للأخوات المتعبدات العائشات في العالم<sup>(١)</sup>.

### ج - موقف الدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية:

كان رجال الدين الأوروبيين هم المسؤولون عن نكبات الشرق السياسي والحلقة ، وعن العنن التي كانت تحدث بين أهل الأديس والمذاهب ، وأن أهل الوطن الواحد على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، كانوا دائماً صحايا بريئة.

ولم رأى المبشرون أن الجهود الفردية في نشر المذاهب المسيحية العربية في الشرق ، ذات مردود محدد ، لجأوا إلى سبيل أحسن تمهيداً وأشد تأثيراً ، وهي حكوماتهم الأوروبية طلباً لمزيد من العون.

وبعد أن رضى المبشرون أن يجعلو أنفسهم والدين آلة طيعة في يد دولهم ، انهرت تلك الدول هذه الفرصة، وأجنت تساعد الإرساليات التبشيرية. ساعية من وراء ذلك تحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية الخاصة باستئلال المبشرين والدين<sup>(٢)</sup>.

وساعد الدول الأوروبية الكثرة العددية في عدد الطوائف الدينية المسيحية ، فعممت مع البابوية على توثيق صلاتها بالطوائف الدينية غير الإسلامية وبرعاتها ومؤسساتها الدينية والتعليمية وغيرها. وأحدث تمدهم بالأموال ورجال الدين والتعليم<sup>(٣)</sup>.

وحاولت البابوية والدول الأوروبية اللاتينية شق صفوف الطوائف المسيحية النشطة في حلب ، لتحويلها إلى فرق متصارعة ومتضادة غير دبلوماسية ومبشريها كي تتعلل بينها وتسيطر عليها. فاشتد الصراع بين الطوائف ، حتى وصلت الأحوال إلى درجة احتلال أحد الطرفين لكنايس وأديرة ومؤسسات الطرف الآخر بمساعدة السلطات السياسية والعسكرية والفضائية ، وذلك برشوة تلك الجهات بمبالغ كبيرة ، وكان الحاسر الأكبر هو المواطن النقي المبسط في الطوائف المسيحية.

(١) - ديك الحصور المسيحي ، المرجع السابق ، ص ٢٧ - ٤٣

(٢) فروخ - المرجع السابق ، ص ١١٣

(٣) الشاوي - المرجع السابق ، ص ٧٤٧



وفي كل مرة ، عندما يعين دبلوماسي أوروبي ، كان رعاء جميع الطوائف المسيحية تبارك له منصبه الجديد ، وكان هذا السياسي الأوروبي وبسبب حسه لسياسي والمهمات الدبلوماسية السرية التي حملها معه لصالح دولته يجذب أفراد الطوائف المسيحية<sup>(١)</sup>.

ولذلك كان لقناصل الجاليات الأوروبية علاقات طيبة ليس مع ولاية حلب وقصبتها ، بل مع رجال الدين أيضاً. وكان بين هؤلاء القناصل بعض الشخصيات كالقنصل الفرنسي دارهيو الذي حصر فدائيس الكنيسة السريانية والأرمنية في حلب عام ١٦٨٠ م. ووصف طقوسهما الدينية في مذكراته بشيء من التفصيل ، واشترك في التولائم التي أقيمت على شرفه<sup>(٢)</sup>.

ومع القرن السادس عشر الميلادي انبعثت في سياسة فرنسا ذلك الهدف الذي كان يصبو اليه الملك لويس التاسع إلى تحقيقه ، وهو إنشاء سورية إفرنجية في الشرق ، بل تلك الأمنية التي كانت أحب ما يداعب خيال الملك ، والتي وضعها في مذكراته بأنها لو تحققت سوف لا تعتبر أن تكون فرنسا المشرق ، دولة باسمها الطابع الفرنسي ، وتعد في فرنسا الأم الروحية لها والدولة التي انبعثت عنها ، والوصي الطبيعي عليها ومن أجل هذه العناية توالى الإرساليات التبشيرية ، وتولى مبعوثوا فرنسا وقناصلها إعداد العناصر التي تؤلف منها الدولة المرجوة سوريا الإفرنجية ، وتوجيهها للعمل في ظل سياسة معينة<sup>(٣)</sup>.

وعندما تسلم الملك لويس الرابع عشر الحكم في فرنسا ، رشح في ذهنه تحقيق هدف حصول فرنسا على اعتراف رسمي من الباب العالي بحقها في حماية المسيحيين الكاثوليك في أرض السلطنة العثمانية ، وكان المرمى البعيد له تحقيق السيطرة الروحية لفرنسا على السلطنة العثمانية عن طريق نشر المذهب الكاثوليكي مبتدئاً وفي حذر شديد ، بالطوائف المشبعة عن كنيسة روم ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بالتوسع في الإرساليات التبشيرية ولاسيما الفرنسية منها<sup>(٤)</sup>.

وتمكن السفير الفرنسي في إسطنبول من عقد معاهدة مع السلطان العثماني أحمد الأول في شهر أيار عام ١٦٠٤ م ، وبموجبها تجددت الامتيازات السابقة الموقعة عام ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ، وأضافت إليها امتيازات جديدة أهمها الاعتراف لملك فرنسا بحق حماية المسيحيين الكاثوليك من رعايا ممالك أوروبا في الشرق ، والسماح لرعايا ملك فرنسا ورعايا أصدقائه وحلفائه بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين بكل حرية ودون أي عثر أو خطر.

(١) - سورميان - المرجع السابق ، ص ٣٠٧.

(٢) - سورميان - المرجع نفسه ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) - للمعينة: المرجع السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) - للمعينة: المرجع نفسه ، ص ٩٩.

والمرّة الأولى ورد ذكر رجال الدين الأوروبيين، هي معاهدة سياسية مع الدولة العثمانية، حيث سمح لهم إذا شاؤوا أن يعيشوا في الأماكن المقدسة أو في أماكن أخرى من أراضي السلطنة، وأن يعمموا بالطمأنينة وبحرية التنقل<sup>(١)</sup>.

وحصل نتيجة سياسة فرنسا ارتباط وثيق بين الكنائس الشرقية بأوصاف أوروبا، ففي عام ١١٢٦ هـ / ١٧١٤ م احتفل في كنيسة الابداء الفرنسيين وفي سائر الكنائس بطب الجنار من أجل راحة نفس الملك الفرنسي لويس الرابع عشر الذي يعي إليهم، وأبنة الأب اليسوعي هريودي بخطاب بليغ<sup>(٢)</sup>.

وكذلك كان هناك أيضاً ارتباط وثيق بين القنصل والسفراء الأوروبيين في ولاية حلب مع وزراء الخارجية في دولهم، فكانوا يقومون بإطلاعهم على كل ما يجري، وحيز مثال على ذلك ما قام به القنصل الفرنسي في حلب غساردي بيليرار ١١٣٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٢٢ - ١٧٣٠ م الذي كتب رسالته إلى وزارة الخارجية الفرنسية قال فيها "إن مطران الروم وافق الرعية على الحرية بمعتقداتها الكاثوليكية على شرط أن تترم السكينة وتدفع له ما يترتب عليها من مال ولكن ترجمان القنصل الفرنسي الياس حمر الطرابلسي الملكي حرك الفتنة على المطران وتهدده، بأنه سيكتب إلى البطريرك في إسطنبول يشكوه بأنه غير الطقوس اليهودي، وتبذل مع الرعية التي صارت إفرنجية. وكان موقف الترجمان المذكور مؤلماً، لأنه كان سابقاً من أقرب الكاثوليك صداقة للمبشرين في طرابلس فكانوا قد بالوا له من البابا اكليموس الحادي عشر أوسمة وامتيازات<sup>(٣)</sup>.

كما جدد الباب العالي من خلال معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م على الفرنسيين عتاقه بالحماية الفرنسية على نصارى المشرق، وذلك جراء تأييد فرنسا الدبلوماسية للسلطنة العثمانية في الحرب الروسية العثمانية ١١٥٠ - ١١٥٢ هـ / ١٧٣٧ - ١٧٣٩ م<sup>(٤)</sup>.

وأهم بنود معاهدة ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م ما يلي: (إن الأساقفة التابعين للحكومة الفرنسية والقسيسين والرهبان الآخرين (من غير جنسية فرنسا) الذين يديرون دين فرنسا من أية أمة، وأي نوع كانوا، إذا لم يتخطوا حدود مهنتهم، لا يعرضون بتكدير عند إقامة شعائرهم ووظائفهم في نواحي السلطنة بحيث هم موجودون منذ القديم)<sup>(٥)</sup>.

(١) اسماعيل السياسة الأوروبية، المرجع السابق ص ١٥

(٢) قول: المرجع السابق، ص ٤٨

(٣) قول: المرجع نفسه، ص ٥٩

(٤) - ج. و. كلين، كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٩ م، ص ١٥٩

(٥) معاهدة ١٧٤٠ م للمرجع السابق، العدد ٣٢

إن الأساقفة والرهبان التابعون بحكومة فرنسا والمقيمون في أنحاء السلطنة تصير المحافظة عليهم ، ما دمو في حدود وطائعهم ولا يفدر أحد على منعهم عن إقامة شعائر دينهم حسب عاداتهم في الكنائس التي يتمكنونهم ، وكذلك الأمكنة التي يسكنونها.

وعندما يتجاوز رعايا السلطنة العثمانية دافعوا الحرية (المسيحيون) والفريسيون لأجل البيع والشراء أو لأشغال أخرى فلا يفدر أحد على تكديرهم حلقاً للشريعة الإسلامية محتجاً بكثرة هذا التزاور .

وكذلك يسمح للفرنسيين بتلاوة الإنجيل في كل مكان يصير لهم فيه على وجه شرعي ضمن حدود واجباتهم بدون أن يعارضهم أحد<sup>(١)</sup>. يلاحظ منح السلطنة العثمانية ممارسة الشعائر الدينية للجاليات لأوروبية.

إن سفير فرنسا وقناصلها وثر جملتها وتجارها وأرباب الصنائع ورياني السفن ورجال الحرية ، فالرهبان والأساقفة الفرنسيين ما زالوا في حدود وطائعهم ومنعبرين عن كل ما يحل بالصدقة وصدق الولاء، يتمتعون من الآن فصاعداً بنود المعاهدات القديمة والحديثة التي يصير تنفيذها لصالح الأربع فئات المذكورة<sup>(٢)</sup>.

وحير مثال على التدخل الأوروبي من أجل تحقيق مصالحهم عن طريق الإرساليات التبشيرية ، ما حصل في طائفة السريان وغلبة التيار الكاثوليكي فيها عن طريق رجال السياسة الفرنسيين. وحتى منتصف القرن السابع عشر ، كانت الكتلة حيثة النشوء في حلب ، وبعد توافد الإرساليات التبشيرية بدأ ساعد الكتلة يشتد في طائفة السريان التي كانت تتبع المذهب اليعقوبي. وبدأت الطائفة تشهد صراعاً ظاهراً بين المعتقد الجديد (الكتلة) واليعقوبية.

ولم يكن السبب في اشتداد ساعد الكتلة هو الهم الروح القدس الذي حل في قلوب الهرائفة فأقروا بالإيمان الكاثوليكي ، بل كان هذا لإقرار نتيجة لا سبباً أما السبب فيمكن وصعه في بدين: أولهما مذهبي ، يتمثل بنشاط الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية. وثانيهما سياسي. ويتمثل في تدخل الدول الأوروبية. وبخاصة فرنسا.

وشطت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية محاولة اجتذاب المسيحيين وخاصة اليعاقبة إلى الكتلة ، وسجت مساعيها ، هم تنصيب أول بطريرك كاثوليكي على طائفة السريان ، كان قد تكتك على يد المبشرين اللاتين وهو البطريرك أندراوس اخيجان، والذي كان له أثر كبير في نشر الإيمان الكاثوليكي بين أفراد الطائفة الميريانية.

(١) معاهدة ١٧٤٠ م لمرجع السابق ، البند ٨٢

(٢) - معاهدة ١٧٤٠ م لمرجع نفسه ، البند ٨٤

وقد وضع أندراوس يده بيد المبشرين الكاثوليكين لشراءه في بلاد ما بين النهرين ، بعد أن عاد من جولة هناك تعقد خلالها من انصم إليه في تلك الأصفاع، وقال: " إنه لو وجد في ماردين من المبشرين اللاتين لصربوا على أيدي المقاومين (اليحافية) وكهوفهم عن إزعاج الراغبين في الكتلكة ، فدبت الرغبة في قلوب المبشرين الكبوشيين واليسوعيين في قصد تلك النواحي لشراء المذهب الكاثوليكي <sup>(١)</sup> .

إلا أن نشاط هذه الإرساليات لم يكن يمضي ديمر وسهولة ، وذلك أن المبشرين الكاثوليكين لم يكونوا يحاولون جذب الشرقيين إلى الكتلكة فحسب ، بل كانوا يحاولون جاهدين حملهم على اعتناق الطقس اللاتيني أيضاً معقدين أنهم ما لم يعتنقوه فإنهم لن يتعنتروا هاشم الكتلكة ، وسيظلون عرصاً للردة ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن صمم توجهات الكرسي الرسولي الرسمي ، وبالمقابل فقد كان الشرقيون يعدون الطقس الشرقي أمراً واقعاً يصرح له السنوات لأنهم مرغمون على ذلك <sup>(٢)</sup> .

وهكذا شلب الصراع الذي ما لبث أن اكتسب بعداً جديداً هو الصراع السياسي ، تتدخل السلطات المدنية الحاكمة في السلطة العثمانية ، والسفير والفصل الفرنسي في إسطنبول وحلب ، ذلك أن الكنيسة السريانية اليعقوبية كانت تتمتع بوضع متميز وبدعم من الحكام في البلاد التي دخلت تحت الحكم العربي ، وطلبت تتمتع بالدعم نفسه في ظل الحكم العثماني الذي كان يهيمه بشكل عام أن يظل مسيحيو الشرق بمعزل عن مسيحيي العرب <sup>(٣)</sup> .

وأي نشاط للإرساليات الكاثوليكية في البلاد الحاصصة للحكم العثماني يمكن أن يصور من قبل معارضيه كنشاط يحمل معار سياسية خطيرة ، وأنه تدخل يستجر نتائج تلحق الأذى بسياسة الدولة العثمانية ومصالحها . وذلك ما كان يسعى للتأكيد عليه النظرية اليعاقبة في نراهم مع الكاثوليكين ، فعنواهم بالفرج <sup>(٤)</sup> .

وفي ظل الظروف العامة التي سادت القرن الثامن عشر - والرابع الأخير منه شكل خاص - وتعرض السلطة العثمانية للصعوبات السياسية والعسكرية المتزايدة ، من قبل الدول الأوروبية ، ومع اشتداد النزاع في طائفة السريان بين المطران جروة الكاثوليكي والبطريرك اليعقوبي ، كانت كلمة إفرنج هي معناه موقف السلطة العثمانية . حيث كان اليعاقبة يصورون هذه الكلمة على أنها تسلاح رعيا السلطان عن رعيهم وتعاملهم مع أعدائه ، الأمر الذي استطاعوا معه أن يستميلوا السلطة العثمانية إلى جانبهم . كما جاء في عرض قدمه البطريرك اليعقوبي إلى الصدر الأعظم يقول فيه: " إن المطران ميخائيل جروة اتفق مع

(١) - الفوار ، هوس . المرتاد في تاريخ حلب وبعاد (مخطوط دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، جامعة دمشق ، إشراف د . أحمد طربين ، ١٩٧٧ م ) ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) - بريك ، اغناطيوس . الشرق للمسيحي ، للطبعة البولونية ، بيسان ، ١٩٧٥ م ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .

(٣) - بريك ، الشرق المسيحي ، المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(٤) - الفوار ، المرتاد في تاريخ حلب وبعاد ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

الإفراج، وهذا محل الإنجيل الشريف وحقوق الدولة العلية وبالطبريركية معاً ، وهو ما يحصل التبعية العثمانية على التمرد على السطان لاتفاقهم مع الباب وملك الإفراج على ملكنا العظيم<sup>(١)</sup>.

واستطاعوا بهذه الدعاوي أن يستصдروا الفرمانات المتلاحقة بحس وبقي وتعرير رؤوس أتباع المذهب الكاثوليكي في طائفتهم وعلى رأسهم المطران جروة نفسه<sup>(٢)</sup>.

وكل ذلك لم يدفع الكاثوليكين إلى الحد من علاقاتهم مع فرنسا ، بل إلى الحماية المؤثرة والمشاط الفعال الذي كان يبدله السفير والقنصل الفرنسي في كل من إسطنبول وحلب ، لإبطال مفعول فرمانات النفي والحس والتعريم التي كان يستصدرها اليعاقبة واستبدالها بفرمانات تمنح الحرية الدينية للكاثوليك<sup>(٣)</sup>.

كنت تدفع أتباع المذهب الكاثوليكي في الطائفة السريانية إلى الاعتماد عليهم ، وتوثيق الصلات والروابط بهم والالتجاء إلى حمايتهم. وقد أوضح المطران جروة في رسالة إلى الملك لويس السادس عشر في ١٧٨٣ " كان القنصل الفرنسي في حلب هو الذي سعى برسالة الفس أندراوس مطراناً ثم بطريركاً على السريان وأحرج له أمراً من الباب العالي في صيطة الكنيسة وطرده منها المطران اليعقوبي " .

وأوضح المطران جروة في رسالته إلى الملك لويس السادس عشر أنه (وبعد اشتداد النزاع بين الكاثوليك واليعاقبة ، ولم يبق لنا واسطة سوى أن نتجى إلى جلالكم لكي ترفعوا البطريرك اليعقوبي عن هذه الكنيسة، وتصعوا تحت حمايتكم السعيدة وحرروا إلى الصدر الأعظم ، لكي يحرج أمراً من الباب العالي في هراز مطرانيه حلب من برقة البطريرك المذكور ، وأن تكون مطرانيه مستقلة بذاتها)<sup>(٤)</sup>. وبهذا يبدو ما كان لفرنسا من بد طولى في نمو وترعرع الكاثوليكية في الطائفة السريانية.

ولم تمر سنوات قليلة على كتابة هذه الرسالة حتى رسم المطران جروة بطريركاً ، وانقسمت الكنيسة السريانية في عام ١١٩٨ هـ / ١٧٨٣ م إلى شطرين (كاثوليكي وأرثوذكسي) لكل منهما بطريرك وكهنة وأساقفة<sup>(٥)</sup>.

وحرصت بريطانيا على أن تحمي الإرساليات التبشيرية البروتستانتية حصية ، وكان نفوذ إنكلترا في ذلك الحين قد أصبح فعلاً في السلطة العثمانية ، فمن ذلك أن السلطة العثمانية أرادت أن تسمع دعة لأنجيل الدواريين من التجول في المدن والقرى ، فما زال القناصل يتدخلون حتى حملوا السلطة على العودة إلى السماح لهم بذلك. وليس ذلك فحسب بل كان قناصل بريطانيا يعملون أحياناً للتبشير. فها هو المستر سكين

(١) نقاشه ، ديوبسيسوس أفرام: عبادة الرحمن في هداية السريان ، مطبعة صبرا ، بيروت ، ١٩١٠ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٢) - العولز المرتاد في تاريخ حلب وبعداد. المصدر السابق ، ص ٥٠

(٣) نقاشه المرجع السابق ، ص ٥٤١

(٤) العولز المرتاد في تاريخ حلب وبعداد. المصدر السابق ، ص ٥١

(٥) ديك: الشرق المسيحي ، للمرجع السابق ، ص ٩١.

فقتصل بريطانيا في حلب. سعى إلى تحصيل الدور في ياديه الشام ليتوصل من هذا السبيل إلى اجتذاب أبائهم إلى النصرانية<sup>(١)</sup>

#### د - موقف السلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية:

كانت الدولة العثمانية بالنسبة إلى روح ذلك العصر ، متسامحة معهم ، فقد سمحت لهم بالانشار في أنحاء سوريا ، ثم بإقامة الأديرة ، وكان لا تتدخل في شؤونهم ، طالما لا يقتربون من المسلمين ، وطالما لا يقيمون كنائس جديدة ، ولا يقرعون الأجراس لاستدعاء المصلين ، ولا يقيمون الصلاة جماعية في بيوتهم الخاصة ، بل أنهم سمحت لهم بارتداء ملابس رهبنتهم الخاصة. وقد بدأت معاملة السلطنة العثمانية طامعاً أشد بعد أن كشفت لها أهدافهم ، ورأت لانقسام الذي وسعته الإرساليات في صفوف رعاياها المسيحيين ، وأحدثت تشكك بنواياهم الصليبية العدوانية البعيدة المدى<sup>(٢)</sup>.

وقد كانت السلطنة العثمانية في مرات متعددة تعطل عمل الإرساليات في تحول مسيحيي حلب إلى الكتلثة. ومع ذلك فقد بلغ عدد الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية في مدينة حلب في بداية القرن التاسع عشر رقماً كبيراً ، مما أدى إلى وجود خلافات في الكنيسة الشرقية ما بين المؤيدين للكنيسة الرومانية والمعارض لها<sup>(٣)</sup>.

إن السلطنة العثمانية عصت النظر عن النشاط التبشيري للإرساليات لعدة أسباب ، ومنها أنه بدأ في أول الأمر في الرابع الأول من القرن السابع عشر الميلادي ، عندما كانت الدولة لا تزال قوية مهابة الجنب ، لم يكن هناك خطر يهدد أمنها الداخلي أو الخارجي وكان نشاط المنششرين محدوداً في نطاق صيق ، ولكن تغير الموقف بعد ذلك ، إذ لم يعد النشاط التبشيري يقتصر على النشاط الديني وهو تحويل الأهالي إلى المسيحية وإلى مذهب ديني معين ، بل أصبحت هذه الإرساليات أداة طبعة لينة في يد الدول الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على البلاد التي سيطرت عليها أو تتطلع إلى امتلاكها ، وغدا النشاط التبشيري من أقوى الركائز الاستعمارية والتي هدفت إلى السيطرة السياسية والاقتصادية<sup>(٤)</sup>. لقد كانت السلطنة

(١) فروخ. المرجع السابق ، ص ١١٨ - ١١٩

(٢) الصباح: الجاليات الأوروبية ، ص ٨٣٣ - ٨٣٥ - ٨٣٦

(٣) J sauvaget ، p ٢٢٦

(٤) الشلوي المرجع السابق ، ص ١٠٢

العثمانية على حق حينما بدأت ، منذ أمد ، ترتب من حركات التبشير في السلطنة ، وذلك لأن المبشر يسبق الجيش إلى كل مكان.

واندك أحدث السلطنة نراقب المبشرين مراقبة دقيقة حتى نصيق عليهم. وكان العثمانيون يرتادون خاصة بالمبشرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتوارون خلف العلم البريطاني في الأكثر والمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً. ولما تشعبت مطاعم الدول الأوروبية في بلاد الشام جعلت السلطنة تقف من المبشرين موقفاً حارماً ألقت في سبيلهم العقاب ، وعزمت أن لا يحققوا نجاحاً في مخططاتهم المريبة على أن السلطنة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علبية تجاه المبشرين ، لأن هؤلاء كانوا يأتون في الطاهر رعيا الكليل أو فرنسيين. فإذا استقروا في البلاد وأحدوا يقومون بالتبشير سرّاً ما أمكنهم. ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهراً من السلطنة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعيا أجنب في الطاهر أيضاً.

ولما أدركت الدول الأوروبية أن المبشرين آلة فعالة لتأييد العوذ الأجنبي في السلطنة العثمانية أحدث تلك الدول الأوروبية تريد من تظاهرها بدعم المبشرين. و كان المبشرون بنورهم يطلبون تأييد دولهم<sup>(١)</sup>.

وكانت السلطنة العثمانية قد أصدرت فرماناً سلطانياً موحهاً إلى وإلى حلب وقاضيتها ، يشير إلى ظهور الكثير من رهبان الطائفة الإفرنجية في بعض أنحاء السلطنة ، وهم يوزعون نواب سبينة ومقاصدهم فاسدة ويجوبون البلاد ويدعون الطوائف المسيحية (روم أرمن موارنة سريان) إلى الانتماء إلى الطائفة الإفرنجية الكاثوليكية ، مما أدى بالطوائف المسيحية الشرقية إلى الشكوى والتظلم من تصرفات رهبان الطائفة الإفرنجية ، وبسبب انتشار رهبان الطائفة الإفرنجية في الأماكن والبلدان التي يوجد بها لهم قنصليات ، فإنه من الضروري جداً عدم تجاوزهم لغيرهم ، ومع نجلهم حيث لا توجد مؤسسات قنصلية أوروبية<sup>(٢)</sup>. يلاحظ كيفية استغلال الإرساليات التبشيرية لفصليات الأوروبية في ولاية حلب لممارسة نشاطاتها.

وكانت السلطنة العثمانية على حق من خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرون الفتن في السلطنة بل كانوا أيضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً ، وكذلك كانوا يهرقون السكان إلى معسكرات ، فقد كان الدور مثلاً يعتمدون على حماية الكلتر. أما الموارنة فكانوا يرون حليفهم الطبيعي فرنسا<sup>(٣)</sup>.

ولكن السلطنة العثمانية لم تكن تملك حرية الإرادة ولا حرية التصرف حيال نشاط الإرساليات التبشيرية، والذي كان له أوجع العواقب في ريادة الاضطراب الطائفي والسياسي في ولايت الشام ، و يظهر

(١) - فروخ: المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) - الفرمان رقم / ٤٣٠ / تاريخ الفرمان (١١٣٨ هـ) ، من السجل / ٣ / للأولمر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٦١ ، دار الوثائق التاريخية بدمشق.

(٣) - فروخ: المرجع السابق. ص ١٢٣.

عجز الدولة عن إرضاء حشد لا يستهان به من مذاهب دينية وطوائف مسيحية أرادت أن تتحد من التبشير  
دريعة لإنشاء مراكز قوى لها داخل ولايات السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>.

وكانت معظم الطوائف المسيحية في حلب ترفع شكواها إلى السلطنة العثمانية ضد تصرفات رجال الدين  
المنحازين إلى الإرساليات التبشيرية والدعين إلى الكتكعة ، ففي عريضة رفعها بطريرك الروم الأرثوذكس  
سلومستروس في أنطاكية وحلب إلى الباب العالي وهي عبارة عن شكوى من الرهبان (هوريا غوب - قسيس  
حايبا - ابن مظلوم - قسيس جرجس - قسيس نصر الله) من سكان حلب قد ارتدوا إلى الكنيسة الكاثوليكية ،  
وندؤرا يعيشون الفساد بين جميع السكان المسيحيين من رعايا السلطنة. كي يرددوا إلى الكنيسة الكاثوليكية،  
حيث أن عددهم أحد يزداد يوماً بعد يوم لذلك صدر أمر سلطاني بوجوب إجراء محاكمة لهؤلاء الرهبان  
وبعدهم إلى مطلق أخرى دون تأخير أو تدخل من أحد<sup>(٢)</sup>.

ومن خلال كل ما تقدم يلاحظ كيف سعت الدول الأوروبية إلى إيجاد ركيزة سياسية لها على أرض  
الشام ومنها ولاية حلب عن طريق جالياتها ، وإرسالياتها التبشيرية التي جاهدت للتبشير بالكتكعة ، عن طريق  
استمالة المسيحيين الوطنيين المتكاثرين ، إلى جانب الدول الأوروبية.

وقد شعرت الدول الأوروبية بقيمة السياسة الفرنسية في تثبيت نفوذها في الشرق ، فسارعت إنكلترا إلى  
إرسال إرساليات بروتستنتية ، تقوم بالتعليم ، وبتأثير أفكارها ، للترويج للسياسة البريطانية ، ولخدمة مصالحها  
لاستعمارية.

وبذلك عملت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية ، وبدعم من الجاليات الأوروبية في ولاية حلب ، إلى  
جذب المسيحيين الأرثوذكس إلى الكتكعة ، مما أدى إلى خلق كيان كاثوليكي لهم ، وحولهم في صراع مع  
الأرثوذكس المحليين ، مما أدى إلى انحياز السلطنة العثمانية إلى الأرثوذكس ضد الكاثوليك ، وكان الصراع  
ضعيفاً نوضح في عدة نقاط أبرزها:

عدم حضور الكاثوليك قداميس لأرثوذكس ، وحاولت السلطنة تقسيم مسيحيي الكنيسة الواحدة إلى  
كاثوليك وأرثوذكس ، من خلال إجراء قداميس مختلفين.

دافع السفراء وانقباض في ولاية حلب عن الكاثوليك الجدد ، وأحد الصراخ شكلاً دولياً ، وإرداد عدد  
الكاثوليك شيئاً فشيئاً ، ولجأوا إلى الجاليات الأوروبية وكنائسهم وحاناتهم ، إلى أن جاء إبراهيم باشا  
المصري عام ١٨٣١ م ، فحل المشكلة عن طريق إعلان الحرية الدينية ، وبناء كنائس. وهذا يطهر نور  
فرسا الحقي في دعم محمد علي باشا وابنه إبراهيم.

(١) - الشاوي: المرجع السابق ، ص ١٠٦

(٢) - العرمان رقم / ٢٧٥ / تاريخ القوم ( ١١٣٧ هـ ) ، من السج / ٢ / لأوامر السلطانية بولاية حلب ، ص ٢٣ ، در الوثائق  
التاريخية بمحقيق



### أهم النتائج العلمية التي توصل إليها البحث:

يلاحظ من خلال فصول البحث السابقة ، تشجيع السلطنة العثمانية على توافد الجاليات الأوروبية (البندقية ، الفرنسية ، الإنكليزية ، الهولندية) إلى أراضي السلطنة ، وولاية حلب بصورة خاصة ، لأهميتها.

فقدت السلطنة العثمانية كل التسهيلات والامتيازات للجاليات الوافدة ، فوفرت لهم أماكن السكن والحماية والرعاية ، وخففت الرسم الجمركي على معظم صادراتهم ووارداتهم ، رغبة من السلطنة في تنشيط العمل التجاري. ولكن إقامة تلك الجاليات في ربوع ولاية حلب كان له نتائج أهمها:

**النتائج السياسية:** كانت الجاليات الأوروبية الطلائع الأولى للاستعمار الأوروبي الحديث على بلاد الشام ، فقامت تلك الجاليات بالتمهيد للاحتلال العسكري ، الذي بدأ في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين عن طريق معرفة جغرافية البلاد وسكانها ، ومعرفة مواقع القوى ونقاط الضعف. وقلت الجاليات كل ما لاحظته إلى دولها ، عبر تقارير سفرائها وقناصلها المرفوعة إلى رجال السياسة في دولهم ، التي عملت وشكلت جاد للسيطرة على بلاد الشام ، فقامت باستغلال خيراتها ونهب ثرواتها. مما دفع الدول الأوروبية للطغالية وشكل مستمر بامتيازات تزيد من نفوذ وتحرك الجاليات في البلاد التي تقيم فيها. كما قامت الجاليات بتوصيح الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية للتباعد التي سكتها ، فجعلتها أسواق مهمة لخدمات (زراعية ، صناعية ، حيوانية) اللازمة للصناعة الأوروبية الناهضة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وليس ذلك فحسب، بل سارعت الدول الأوروبية عن طريق جالياتها ، لجعل ولاية حلب أسواقاً

لتصريف البضائع المصنعة الجاهزة للاستهلاك ، كون ولاية حلب تتميز بتعدد سكانها كبير كما استعادت الجاليات من ولاية حلب كمصدر اضطرابي تجاري مهم إلى الشرق الأدنى.

- **النتائج الاقتصادية:** ارتفع شأن البحر المتوسط كونه صلة الوصل بين أوروبا وبلاد المشرق، حيث كان يتم التبادل التجاري وحركة البشر (حجاج - تجار - رحالة - علماء - ميسرين) إلى بلاد المشرق بواسطة.

وراد في أهميته إشراف الدول لأوروبية التي لديها جاليات في بلاد الشام مثل فرنسا وإيطاليا ، وسهولة وصول هولندا وإنجلترا إلى البحر المتوسط عبر مصيقي جبل طارق. ومما زاد في أهمية الموقع الجغرافي لبلاد الشام وكثرة موانئه على البحر المتوسط ، لذلك سرعت الدول الأوروبية للتدخل في بلاد الشام عن طريق إرسال رعاياها لربوعه.

مما انعكس على نشاط ميناء الإسكندرية ، على الرغم من مدحه السيئ ، اعتمدت عليه الجاليات الأوروبية أكثر من سواه من الموانئ في عملياتها التجارية.

ومثلما تألق البحر الأبيض المتوسط أيضاً تألقت حلب ، على الرغم من كونها مدينة داخلية ، حيث لعبت دور المستقبل والمورع الرئيس لما أمامها وحلفها من بلاد واسعة ، حيث فرض عبء موقعها ذلك . حيث كانت تستقبل بضائع العرب الأوروبي المصنعة الجاهزة بواسطة البحر المتوسط ، ثم توزعها نحو المشرق الأدنى كما كانت بضائع الشرق الأدنى تصل إلى حلب ، عبر قوافل طويلة من الجمال المحملة القادمة من العراق والهند وآسيا الصغرى، لتوزيعها إلى العرب الأوروبي بواسطة الجاليات الأوروبية. كما كان تجار الجاليات يشاركون في شراء السلع المحلية الداخلية ، ويتحكمون بالأسعار ويحتكرون البضائع ، مما يؤثر سلباً على نشاط التجار المحليين في ممارسة عملهم التجاري.

كما ارتفع شأن الأقليات في ولاية حلب ، حيث لعبوا دور الوسيط بين أهالي البلاد المسلمين والجاليات الأوروبية ، وأهمهم المسيحيين (الروم والأرمن والسريان) ، وساعدتهم في ذلك الرابطة الدينية.

وكذلك اليهود نتيجة خبرتهم التجارية وقوتهم المالية. لذلك مارس الوسيط دورهم وبشكل كبير الأعمال التجارية من خلال استيراد وتصدير البضائع ، ومارسوا العمليات المصرفية ، وعقد الصفقات التجارية. مما أكسبهم خبرة لا يستهان بها في التجارة ، لذلك عندما خرجت الجاليات الأوروبية من ولاية حلب ، كان هؤلاء الوسيط هم المسيطرون على التجارة الخارجية فيها. مما ساعد في ارتفاع شأنهم في البلاد .

وكذلك نشطت بعض الرعايات والصناعات في حلب ، نتيجة ازدياد الطلب الأوروبي عليها بواسطة جالياتها ، مثل زراعة الفطر والعب والنخ. أما الصناعات فقد نشطت وبشكل كبير كالصناعات السجيرية وصناعة الصابون ، والدليل على ذلك ازدياد عدد الأتوال والمصانين في حلب.

- **النتائج الاجتماعية:** كانت العلاقات الاجتماعية بين الجاليات الأوروبية والمسلمين في ولاية حلب ، علاقات عادية على الرغم من الاحترام المتبادل بينهما ، بينما كانت العلاقات بين الجاليات ومسيحيي ولاية حلب محدودة ، حيث كانت العلاقات تجارية بالدرجة الأولى ، وذلك بمقتضى عملهم كوسطاء أو مترجمين ، فارتفع شأنهم . مما دفعهم للحصول على البراءات من الباب العالي عن طريق الخانات الأوروبية ، نتيجة شعورهم بمدى الاستفادة من القرب منهم .

كما ظهرت فئة اجتماعية صغيرة في حلب ، نتيجة التزاوج بين أفراد الجالية الأوروبية وفتيات من مسيحيي حلب ، وسميت هذه الفئة EZZA MEZZA (نصف سل) مما سبب أحياناً مشاكل بين الجاليات والسلطات المحلية العثمانية الحاكمة في الولاية لذلك سارعت الدول الأوروبية إلى منع أفراد جالياتها من التزاوج

ونتيجة الاحتكاك بين أفراد الجاليات الأوروبية ومسيحيي البلاد ، تسربت بعض العادات الاجتماعية السيئة إلى المجتمع العربي بكافة فئاته . ومن هذه العادات (لعب الورق - التدخين - شرب الخمر) .

- **النتائج الدينية:** جاءت البعثات التبشيرية بعد البعثات الدبلوماسية بجهود كبيرة من الدول الاستعمارية للسيطرة على البلاد ، فعملت الإرساليات التبشيرية وبدعم من الجاليات لأوروبية ودولهم وخاصة فرنسا على تقسيم الطوائف المسيحية الشرقية الأرثوذكسية المذهب في ولاية حلب إلى قريتين ، متار عين وحاقدين كل واحد منهما على الآخر ، كما نجحت الإرساليات في إيجاد كنائس كاثوليكية مرتبطة بروما ، رغم بطريركية السلطنة العثمانية والشعب إلى الكاثوليكية على أنها عدو للسلطنة ، كونها ممثلة للبابا عدو السلطان ، مما أسهم بشكل فعال إلى انقسام وحدة تركيكية المجتمع العربي في ولاية حلب ، وأضعفت مقاومته أمام الدول الاستعمارية .

كما تمكن المبشرين من إدخال الثقافة العربية الأوروبية إلى الولاية المذكورة ، بواسطة المدارس التي أقاموها ، لإعداد وتدريب أجيال تؤيدهم وتعمل لصالحهم ، ومن خلال زيارة البعثات المسيحية وأماكن عملهم والتطبيب وطبع الكتب الدينية حيث أدخلت أول مطبعة عربية إلى حلب في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي . مما زاد في كمية الكتب المطبوعة وبخاصة الكتب الدينية ، التي تؤثر على عقول قارئها وتجعلها تؤيد وتسلم كل ما يهب لصالح دول الإرساليات التبشيرية .

وكما كانت فرنسا الساقطة هي إرسال الإرساليات التبشيرية لجذب مسيحيي الشرق . ليكونوا وسيلة لها في التدخل بشؤون السلطنة العثمانية الداخلية ومطالبها المستمرة باعتراف السلطنة بحماية فرنسا على جميع المسيحيين في الشرق .

ولم تكف فرنسا جهداً إلا وسلكت في دعم الإرساليات التبشيرية لنشر الكفالة ، كونها تعتقد أنها البنت الأولى للكنيسة الكاثوليكية . وأرادت فرنسا السيطرة على بلاد الشام من خلال دعمها لإرسالياتها .

كذلك ساركت بريطانيا على حطى فرنسا فأرسلت إرسالياتها التبشيرية البروتستانتية ، تقوم بالتعليم ، وبت أفكارها ، ثم سارعت إلى إبعاد طلاب أدكياء من مدارسها التبشيرية إلى جامعة أكسفورد ليتعلموا فيها ، ويعودوا ليكونوا نواة تعلن للعود البريطاني الاستعماري . مما أفسح المجال أمام إرساليات روسب التي سارعت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، للسعي لإعلان حمايتها على الأرثوذكس بها ، أسوة بالفرنسيين ، هذا الصراع بين الدول الأوروبية أفسح المجال واسعاً للتدخل تحت ستار الدين لتحقيق أهدافهم ومشاريعهم الاستعمارية .

- **النتائج الفكرية:** لعبت الجاليات الأوروبية في ولاية حلب دور مهم في توجيه اهتمام رجال العلم والآثار ، إلى أهمية بلاد الشام كونها مهد الحضارات الإنسانية والديانات السماوية ، والآثار العمرانية شاهدة على حضارة هذه البلاد . فقد كان للجالية الانكليزية السبق في تنبيه علماء الآثار إلى مدينة تدمر وثرها الجميلة ، إلا رارها ووصفها القس هاليفاكس ، الذي قام برحلة إليها سنة ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م ، وتابع دراستها في القرن الثامن عشر عام ١١٦٥ هـ / ١٧٥١ م . وكذلك قدم علماء الآثار بسرقة عدد كبير من المخطوطات الشرقية ، وهي حالياً محفوظة في المكتبات الأوروبية نتيجة عملية النهب الفكري الاستعماري ، وكل ذلك تم ودعم بواسطة الجاليات الأوروبية التي شكلت نقطة استند لهؤلاء العلماء الأتريين أثناء وجودهم في حلب .

وتحتوي هذه المخطوطات على اختصاصات كثيرة (التاريخ - الجغرافيا - الطب - الشعر - الفلسفة - الرياضيات - الشعر والنحو والمعاجم - علم اللغة والفصاحة والقرآن الكريم والتفسير... إلخ) ومجموع المخطوطات الموجودة في مكتبة باريس ١٠٤٠ مخطوطة ، وفي مكتبة لندن ١٦٦٥ مخطوطة ، وفي مكتبة فلورنسا الإيطالية ٣١٨ مخطوطة<sup>(١)</sup>

كما لعب الرحالة الأوروبيون دوراً كبيراً في التمهيد لفرص السيطرة الإستعمارية على البلاد العربية ، وخير مثال على ذلك الرحالة الفرنسي فولني الذي قدم معلومات قيمة عن رحلته إلى مصر وسوريا من كافة النواحي الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فاستند إليها نابليون في حملته على مصر وسوريا عام ١٧٩٨ - ١٧٩٩ م ، وبدأ الرحف الفرنسي نحو المشرق العربي ، علماً أن فرنسا كانت قد سيطرت على الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وعلى تونس عام ١٨٨١ م ، كما احتلت بريطانيا مصر والسودان عام ١٨٨٢ م .

كل ذلك تم باسهم البعثات الدبلوماسية والتبشيرية والرحالة الأوروبيين التي كان لها أهداف سياسية استعمارية باطنية ، تختلف عن الأهداف المعلنة في الظاهر .

(١) رسل المصدر السابق ، ص ٣٠٣

وهكذا لاحظنا أن ولاية حلب استطاعت بحكم موقعها الاستراتيجي العام والتجاري الحاصل أن تستقطب عدداً من الملوك والأفراد وغير المسلمين ، وتفاعلت معها اجتماعياً واقتصادياً كسنت من ورائهم شهرة كبيرة، وعملت أموالاً كثيرة ، وامتازت بهما من سائر الولايات العربية في العصر العثماني ، انفردت عن غيرها بكثير من المواصفات.

وما زالت حلب حتى اليوم ملتقى الأمم حاضراً باسمها التاريخي العريق ، ورغبة في موقعها الجغرافي واقتصادها المميز .

## مصادر ومراجع البحث

### المصادر:

#### أ - سجلات الأوامر السلطانية في ولاية حلب:

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٢	٦٩	١١٣٥	١٧٢٢
٤	٣٩٦	١١٥٧	١٧٤٢
٢	٨٤	١١٣٥	١٧٢٢
٢	٢٢٧	١١٣٧	١٧٢٤
٢	٣٧٥	١١٣٧	١٧٢٤
٢	٤٤٠	١١٣٨	١٧٢٥
٢	٤٣٠	١١٣٨	١٧٢٥
٤	١١٢	١١٥٢	١٧٣٩
٤	١٠٧	١١٥٢	١٧٣٩
٤	٣٦١	١١٥٤	١٧٤١
٤	٣٤٢	١١٥٤	١٧٤١

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٤	٣٥٦	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٥٨	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٩٦	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٥٩	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٦٠	١١٥٥	١٧٤٢
٤	٣٩٦	١١٥٥	١٧٤٢
٥	١١٣	١١٥٦	١٧٤٣
٤	٣٢٩	١١٥٦	١٧٤٣
٥	٤٧٦	١١٥٨	١٧٤٥
٥	٤٧٦	١١٥٨	١٧٤٥
٥	٧٨٦	١١٥٩	١٧٤٦
١	٢٣٣	١١٦١	١٧٤٧
١	٣٤٢	١١٦٣	١٧٤٨
١	٤٣٢	١١٦٢	١٧٤٨
١	٢٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٥٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٢٧٣	١١٦٥	١٧٤٩
١	٢٦٤	١١٦٣	١٧٤٩
١	٥٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٢٧٣	١١٦٣	١٧٤٩
١	٦٤٢	١١٦٣	١٧٤٩
١	٤٧٧	١١٦٣	١٧٤٩
١	٣٤٥	١١٦٣	١٧٤٩
١	٣٤٦	١١٦٣	١٧٤٩
١	٦٣٠	١١٦٣	١٧٤٩
٦	١٢١	١١٧٥	١٧٦١
٦	٣٣١	١١٧٧	١٧٦٣
٧	١٦	١١٧٧	١٧٦٣
٧	٩٧	١١٧٨	١٧٦٤

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٧	٢٢١	١١٧٩	١٧٦٥
٧	٢٤	١١٨٠	١٧٦٦
٧	٢٧٢	١١٨٠	١٧٦٦
٨	٦٦	١١٨١	١٧٦٧
٨	١٩٧	١١٨٢	١٧٦٨
٨	٩٥	١١٨٢	١٧٦٨
٨	٢١٨	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٣٢٠	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٢٨٢	١١٨٣	١٧٦٩
٨	٢٣٤	١١٨٣	١٧٦٩
١١	٣٢	١١٨٧	١٧٧٣
١٢	٢٠	١١٨٨	١٧٧٤
١٢	٢١	١١٨٨	١٧٧٤
١٢	١٢٣	١١٨٩	١٧٧٥
١٢	٢٦٢	١١٨٩	١٧٧٥
١٣	٨	١١٩٠	١٧٧٦
١٤	١٢٩	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٩٤	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٧٨	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٧٨	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٨٦	١١٩١	١٧٧٧
١٣	١٩٤	١١٩١	١٧٧٧
١٤	١٦٣	١١٩٢	١٧٧٨
٢٠	١٠١	١٢٠٤	١٧٧٨
١٦	٣٩	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٤٠	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٨٤	١١٩٥	١٧٨٠
١٦	٢٢٢	١١٦٦	١٧٨١
١٦	١١٤	١١٩٦	١٧٨١

رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
١٦	١٩٥	١١٩٦	١٧٨١
١٦	١٩٢	١١٩٦	١٧٨١
١٦	١٧٨	١١٩٦	١٧٨١
٢١	٢٦	١٢٠٣	١٧٨٧
٢٠	٣	١٢٠٣	١٧٨٧
٢١	٢٦	١٢٠٣	١٧٨٧
٢٠	٢٣	١٢٠٤	١٧٨٩
٢٠	١٠١	١٢٠٤	١٧٨٩
٢٠	١١١	١٢٠٥	١٧٩٠
٢٣	١١٩	١٢٠٦	١٧٩١
٢٣	١١	١٢٠٦	١٧٩١
٢٣	٨٢	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٣	٣٦	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٣	٣٧	١٢٠٧	١٧٩٢
٢٤	٣١	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٢٦	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	١٥	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	١٦	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٢٧	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٤	٥٠	١٢٠٨	١٧٩٣
٢٥	٦٧	١٢٠٩	١٧٩٤
٢٥	٦٨	١٢٠٩	١٧٩٤
٢٥	١١٣	١٢١٠	١٧٩٥
٢٥	٥١	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	٥٢	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	١٤٩	١٢١١	١٧٩٦
٢٥	١٧٢	١٢١٢	١٧٩٧
٢٥	١٩٥	١٢١٢	١٧٩٧
٢٥	١٩١	١٢١٢	١٧٩٧



رقم السجل	رقم الوثيقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٢٥	١٩٢	١٢١٢	١٧٩٧
٢٧	١٠٦	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣٤-٣٣	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣٠	١٢١٣	١٧٩٨
٢٧	٣١	١٢١٣	١٧٩٨

## ب - المصادر المطبوعة:

١	الأسدي ، خير الدين	أحياء حلب وأسواقها ، ت: عبد الفتاح روس قلعة جي ، مشتورات وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠٠٦ م .
٢	راسل ، ألكسندر وباتريك	تاريخ حلب الطبيعي ، ت: خالد الجبيلي ، شعاع نشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ١٩٩٩ م
٣	الطباح ، محمد راغب	أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٣ ، دار القلم العربي بالحلب ، ١٩٢٦ م.
٤	العري ، كامل البالي الحلبي	نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ أجزاء ، دار القلم العربي ، حلب ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م .
٥	فوار ، فوار	المرقاة في تاريخ حلب وبعثها (مخطوط دراسة وتحقيق ، رسالة ماجستير في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، جامعة دمشق ، اشراف د: أحمد طربين ، ١٩٧٧ م) ،
٦	كرد علي ، محمد	حطط الشام، ٦ أجزاء ، مطبعة المعيد بدمشق ، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م .
٧	ماركوس ، إبراهيم	الشرق الأوسط عشية الحداثة حلب في القرن الثامن عشر، ت: هيثم حمام ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م .
٨	مراش ، جيني بوحه	صور حدي ، مكتب كرسا للتصميم ، حلب ٢٠٠٦ م .

## ج المراجع العربية:

١	ابن مطور	لعن العرب ، دس صادر ، بيروت.
٢	أحمد ، صلاح	الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الاسكندرية ، ط ١ ، ٢٠٠٤ م
٣	أحمد ، عبد الفتاح	التشهير الصليبي والعرو الاستعماري ، دار الجهاد ، ط ١ ، ١٩٨٨ م
٤	أردا غارد ، سورمايان	ناريح حلب ، ت: ألكسندر كشيشيان ، دار النهج حب ، ٢٠٠٣ م.
٥	الأرناؤوط ، محمد	منشآت محمد باشا بوكحس في حلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م
٦	إسماعيل ، عادل وميل حوري	السياسة الدولية في الشرق العربي ، ح ٣ ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ م.
٧	إسماعيل ، عادل ومنير إسماعيل	الصراع الدولي حول الشرق العربي ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت ، ١٩٥٩ م
٨	أصاف ، يوسف بك	المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروبية ، ط ٢ ، المطبعة العمومية ، مصر ١٩٨٦ م.
٩	أنطاكي ، سمير	صورة حلب لدى لزوار والرحالة ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م.
١٠	باطوك ، شوكت	التاريخ المالي للدولة العثمانية ، ت: عبد اللطيف الحارث ، دار المدار الإسلامي ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م
١١	بوحه ، أدولف	حلب وعلاقتها مع أوروبا ، جمعية عاديات حلب ، ع ٣٩-٤٠ ، ١٩٧٦ م.
١٢	بيهم ، محمد جميل	العرب و الترك في الصراع بين الشرق والعرب ، ١٩٥٧ م .
١٣	القابعي ، محمد	السفرات في الإسلام ، مطبعة مديولي ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .
١٤	توتل ، فردينان	وثائق تاريخية عن حلب ، ح ٤ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨ م
١٥	لتونجي ، محمد	التدخل الاجتماعي في ولاية حلب بين العثمانيين والعرب ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية ، رعوان ، ١٩٨٨ م.
١٦	لجاسر ، لمياء	مدارس حلب الأثرية ، دار الرضوان بحلب ، ط ١ ، ٢٠٠٠ م.
١٧	جب ، هاملتون ، وهارولد يون	المجتمع الإسلامي والغرب ، ت: أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ح ٢ ، دار المعارف بمصر.

١٨	جبران ، عمان	التجارة وغرفة التجارة في حلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
١٩	حجار ، عبدالله ١	معالم حلب الأثرية ، منشورات جامعة حلب ١٩٩٠ م
٢٠	حجار ٢	إصابات حلب ، المكنبة الرقمية ، جامعة حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م
٢١	حجار ٣	قصصية دار بوحة بحلب ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٢٢	حرياني ، محمود ١	تاريخ اليهود في حلب ، شعاع للنشر والعلوم ، ط ١ ، ٢٠٠٨ م .
٢٣	حرياني ٢	حلب وعلاقتها الدولية عبر التاريخ ، مجلة اقتصاديات حلب. ع ٣ ، دار الوفاء للطباعة حلب ، ١٩٩٢ م.
٢٤	الحسي ، علي	تاريخ سورية الاقتصادي ، مطبعة بذائع الفنون دمشق ، ت ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م.
٢٥	حسن ، علي	الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الإسلامي .
٢٦	الحصري ، ساطع	البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ م.
٢٧	الحكيم ، دعد	التجارة وغرفة التجارة في حلب من خلال الأوامر السلطانية ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٢٨	حلاق ، عبد الله يوريكي	حلبات ، مجلة الصاد ، حلب ، ١٩٨٣ م.
٢٩	الحمص ، فايز	حلب القديمة ، منشورات المديرية العامة للأثار والمتاحف ، دمشق ١٩٨٣ م
٣٠	حميدة ، عبد الرحمن	محافظة حلب ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق .
٣١	حميدة ، عبد الرحمن	حلب وطريق الحرير ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٣٢	خوري ، جورج	المصالح الاستعمارية البريطانية والحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع ٤١-٤٢ ، ١٩٩٢ م.
٣٣	هافيد ، جان كلود	إقامة تجار الجملة في خانات حلب ، ت: غادة الحسين ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م.
٣٤	هايد ، جان كلود جورج ، جبران دو	حلب في الدراسات العلمية ، ت: محمود حرياني ، دار فلاهريرس ، باريس ، ٢٠٠٢ م.

٣٥	الدباع ، عائشة	الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٢ م
٣٦	ديك : اغسطس ١	الحصور المسيحي في حلب خلال الألفين المتصرمين ، مطبعة الإحصاء للروم الكاثوليك ، حلب ، ٢٠٠٣
٣٧	ديك ٢	الشرق المسيحي ، المطبعة البولسية ، لندن ، ١٩٧٥ م
٣٨	ديك : شارل	البندقية جمهورية روستقراطية ، ت : توفيق سكندر وأحمد عبد الكريم ، دار الفرجاني طرابلس ليبيا .
٣٩	رافق ، عبد الكريم ١	دراسات تاريخية ، العديدين السابع عشر والثامن عشر ، ١٩٨٤ م
٤٠	رافق ٢	المشرق العربي في العهد العثماني ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٦ ، ١٩٩٩ م .
٤١	رجحي ، محمد	المصالح الفرنسية الاقتصادية في سورية ، مجلة دراسات تاريخية ، ع - ٢٧ - ٢٨ ، ١٩٨٧ م
٤٢	ريمون ، لدره	المدنية العربية حلب في العصر العثماني ، ت : ملكة أبيض ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ٢٠٠٧ م .
٤٣	رينوفن ، بيير وجان بانفست دوروريل	تاريخ العلاقات الدولية ، ت : فاير كم نقش ، دار منشورات عويدات بيروت ، ط ١ ، ١٩٦٧ م .
٤٤	زكريا ، أحمد وطفي	جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ، دار الفكر .
٤٥	زهان ، ربا	الخصائص المعمارية لحانات حلب ، مطبعة جامعة تشرين ، ١٩٩٤ م .
٤٦	ربود ، محمد	النشاط ، التجاري في حلب خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م .
٤٧	السابطي ، أحمد	التنشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، مكتبة الإيمان للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٩ م .
٤٨	سعد ، شوقي	حلب وتجارة الحرير وصناعاته في العهدين المملوكي والعثماني ، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م .
٤٩	الشناوي ، عبد العزيز	الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٧ ، ١٩٨٦ م .

٥٠	الصباغ ، ليلى ١	الجاليت الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس والسادس عشر ، ح ٢ ، بيروت ١٩٨٩ م .
٥١	الصباغ ٢	المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ، ١٩٧٣ م .
٥٢	الصباغ ٣	تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، مطبعة ابن حيل ، دمشق ، ١٩٨٢ م .
٥٣	الصباغ ، عبد الكافي وآخرون	تاريخ أوروبا في العصر الحديث ، مصبعة الدودي ، دمشق ، ١٩٩٨ م .
٥٤	طربش ، أحمد	تاريخ المشرق العربي المعاصر ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٧ ، ٢٠٠٠ م
٥٥	عامر ، محمود	المكاييل والأوران والنقود ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٩٩٧ م
٥٦	عبد السلام ، عادل	الموقع الجغرافي لحلب ، مجلة الحوائيات الأثرية العربية السورية ، العدد ٤٣ ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٩ م
٥٧	عبد العبي ، عماد	السلطة في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، دار الفانس ، بيروت .
٥٨	عزازيان ، هوري	الجاليت الأرمينية في البلاد العربية ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
٥٩	عمر ، عبد العزيز عمر	تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٢٢ م ، دار النهضة ، بيروت ١٩٨٥ .
٦٠	عيسوي ، شارل	التاريخ الاقتصادي للهلال الحبيب ١٨٠٠ - ١٩١٤ م ، ت. رؤوف عباس حامد ، مركز دراسات الوحدة العربية ، مكتبة أسودر العقصاري ، صنعاء
٦١	الفادري ، مطيع	صدعة السبيح البنوي بحلب ، اقتصاديات حلب ، العدد ٢ / دار الوفاء للطباعة حلب ، ١٩٩٣ م .
٦٢	غابيه ، هاينتر وفيرت ، أويغ	حلب ، ترجمة. صحر علي ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠٠٧ .
٦٣	الغيتي ، محمد علي	العرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، مطابع الدار القرمية .
٦٤	غرابية ، عبد الكريم	سورية في القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٤٠ - ١٨٧٦ م ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦١ - ١٩٦٢ م .
٦٥	غوستوف	تاريخ التحرير في بلاد الشام ، مجلة الشرق ، العدد الخامس .

٦٦	فارس ، محمد كمال	حانات حلب ، مجلة اقتصاديات حلب ، ع ٣ ، دار الوفاء للطباعة ، حلب ، ١٩٩٢ م
٦٧	فرح ، نعيم	الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، منشورات جامعة دمشق ، ط ٢ ، ١٩٩٩ م
٦٨	فروخ ، عمر مصطفى خالدي	التشجير الاستعماري في البلاد العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٥٧ م
٦٩	الفوازل ، فوار	حوادث حلب اليومية ١٧٧١ - ١٨٠٥ م ، دار شعاع للنشر والعلوم ، حلب ، ط ١ ، ٢٠٠٦ م
٧٠	القاسمي ، محمد سعيد وأحرار	قاموس الصناعات الشامية ، ت: صاهر القاسمي ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط ١ ، ١٩٨٨ م
٧١	قسطون ، وديع	الإفراج في حلب في القرن الثامن عشر ، مطبعة الصاد ، حلب ، ١٩٦٩ م
٧٢	قلعه جي ، عبد الفتاح رواش	حلب القديمة والحديثة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩ م
٧٣	كحالة ، جويرف	عبدالله الراحر الحلبي ، المطبعة الرقمية ، جامعة حلب ، ط ٢ ، ٢٠٠٦ م
٧٤	كشيشيان ، الكسندر	إسهامات المواطنين الأرمن في الحياة العامة للبلاد السورية منذ أقدم العصور وحتى يومنا ، حلب ، ٢٠٠٧ م
٧٥	كوثرث ، دونالد	الدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، ت: أيمن أرمرري ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ٢٠٠٤ م
٧٦	كوستائيتي ، فيرا	علاقات البدوية التجارية مع حلب ، ت: بيل اللو ، مجلة جمعية لعاديات بحلب
٧٧	لوتسكي ، فلاديمير	تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار التقدم موسكو ، ١٩٩٢ م
٧٨	ماسنر ، بروس	المدينة العثمانية بين الشرق والغرب حلب وأزمير واسطنبول ، ت: زلي ديلان ، مكتبة العبيكان الرياض
٧٩	مانتران ، روبير	تاريخ الدولة العثمانية ، ت: بشير الساعدي ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٣ م
٨٠	المحمي ، محمد فريد بك	تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ت: إحسان حقي ، دار النفائس ، ط ٨ ، بيروت ، ١٩٩٨ م
٨١	المدرس ، حسير و أوليفية سالمون	العلاقات بين البلاد المنخفضة وسورية العثمانية في القرن السابع عشر وأربعمئة عام من العلاقات الفصلية ١٦٠٧ - ٢٠٠٧ م ، ت: محمود حرياتي ، قيد النشر

٨٢	مشقوق ، عدد شه	الامتيازات الأجنبية ، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٢٢ م .
٨٣	المنجد ، صلاح الدين	النظم الدبلوماسية في الإسلام ، دار الكتاب الجديد بيروت لبنان ، ١٩٨٣ م
٨٤	ناحي ، عبد الجبار	دراسات في تاريخ المدر العربية الإسلامية ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر .
٨٥	نسكايا ، ايرينا سميليا	النسب الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث ، ت : يوسف عط الله ، ط ١ ، الفارابي ، بيروت ، ١٩٨٩ م
٨٦	نقاش ، ديوبيسيوس أهرام	غاية الرحمن في هداية السريان ، مطبعة صبرا ، بيروت ، ١٩١٠ م .
٨٧	هلال ، فؤاد ١	حلب الفيمة والحديثة ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٦ م
٨٨	هلال ٢	التحولات الثقافية والاقتصادية المهمة في حلب خلال الثلاثة قرون الماضية ، مجلة عاديات حلب ، مطبعة جامعة حلب ، ٢٠٠٣ م .
٨٩	يحيى ، جلال	العالم العربي الحديث ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ م
٩٠	اليسيف ، بيكتيا	طرق المواصلات في بلاد الشام من بين القرنين السادس عشر والعشرين ، ت: بدر الدين الرضاوي ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، ١٥١٦ - ١٩٣٩ م .

#### ٨ - المراجع الأجنبية

١	Berechet (gug.ielmo)	Relazioni dei consoli vnet. nella sin.a tonino ، ١٨٦٦
٢	D Arvieux	Memoires du chevalier D Arvieux Extrad.naire ala porte consul Alep dalege tomes
٣	Kaksumi Fokasaw	toilerie of commerce ed levant. ed CNE ١٩٨٧
٤	SANDEROEN (George)	the travels of ghon sanderson in the levant edited par by sir Wiliam Foster London ha.kluyt society ١٩٣١ .
٥	sauvaget	alep ، paris ، ١٩٤١
٦	wood (A C)	A history of the levant company. London ١٩٢٥



## الملاحق

### الولاية العثمانية في حلب

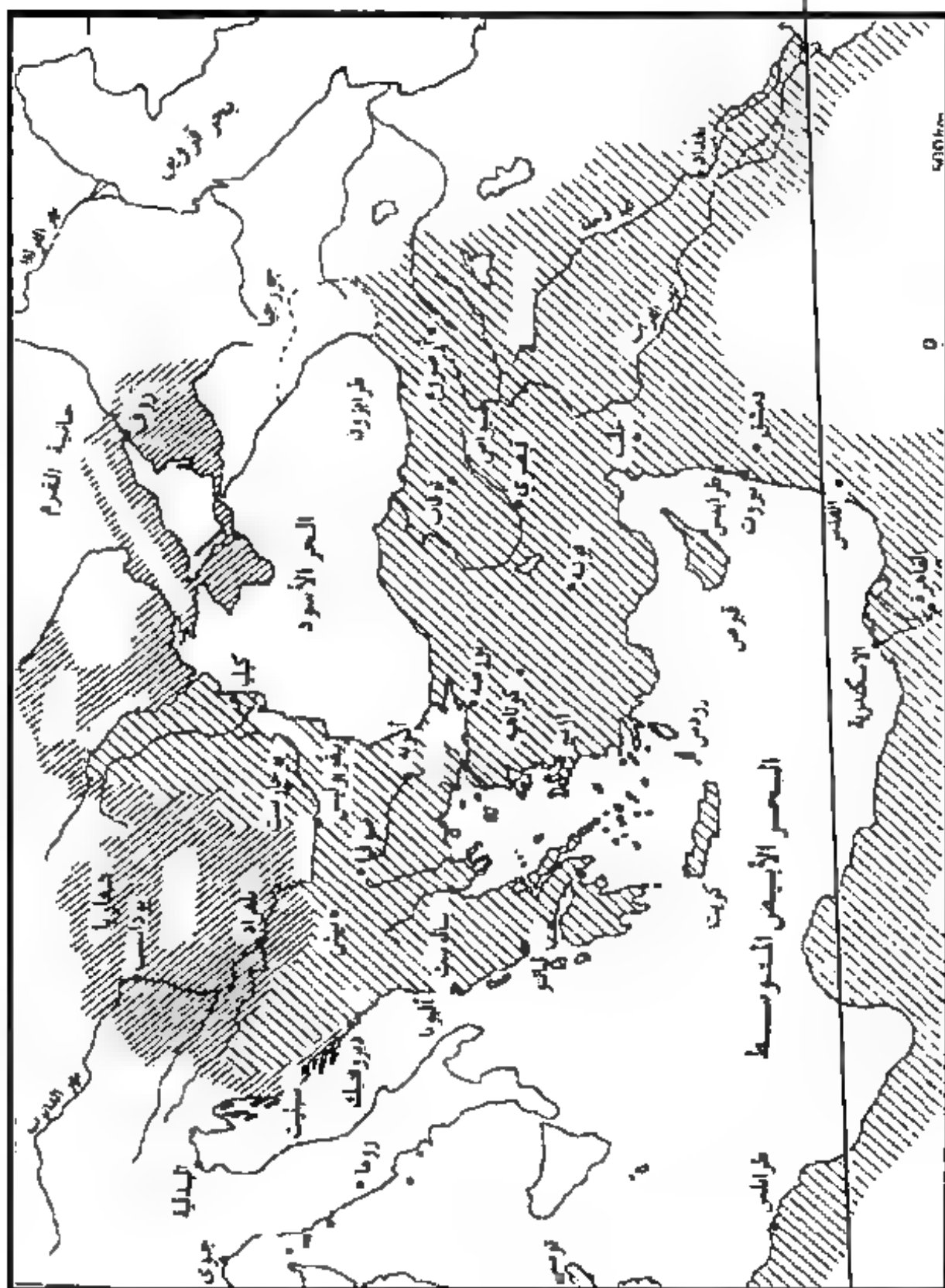
١١١٢ ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م

مسلسل	اسم الوالي	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
١	يوسف باشا	١١١٢	١٧٠٠
٢	جوريالي علي باشا السلحدار	١١١٥	١٧٠٣
٣	محمد باشا الحرکس	١١١٥	١٧٠٣
٤	الحاج قير ان حسن باشا	١١١٦	١٧٠٤
٥	أنازه سليمان باشا	١١١٦	١٧٠٤
٦	ابراهيم باشا	١١١٧	١٧٠٥
٧	عيزي باشا	١١١٩	١٧٠٧
٨	نيردار محمد باشا	١١٢٠	١٧٠٨
٩	ابراهيم باشا السلحدار	١١٢٢	١٧١٠
١٠	طوبال يوسف باشا	١١٢٥	١٧١٣
١١	محمد باشا الحرکس	١١٢٧	١٧١٥
١٢	علي باشا مقتول باشا	١١٢٧	١٧١٥
١٣	عبد الرحمن اغا الحلبي (باش جاويز)	١١٢٧	١٧١٥
١٤	مصطفى باشا	١١٢٨	١٧١٥
١٥	سليمان باشا السلحدار	١١٢٨	١٧١٥
١٦	عثمان باشا	١١٣٠	١٧١٧
١٧	مورملي علي باشا	١١٣١	١٧١٨
١٨	رجب باشا	١١٣١	١٧١٨
١٩	عارف أحمد باشا (رئيس كتاب)	١١٣٣	١٧٢٠
٢٠	رجب باشا	١١٣٤	١٧٢١
٢١	كورد ابراهيم باشا	١١٣٦	١٧٢٣
٢٢	علي باشا بن نوح أفندي	١١٣٧	١٧٢٤
٢٣	محمد باشا السلحدار	١١٣٨	١٧٢٥

٢٤	عارفي أحمد باشا	١١٣٨	١٧٢٥
٢٥	علي باشا	١١٤١	١٧٢٨
٢٦	أورير كوجك	١١٤٢	١٧٢٩
٢٧	أبراهيم باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٢٨	محمد باشا	١١٤٣	١٧٣٠
٢٩	أحمد باشا بولاد	١١٤٧	١٧٣٤
٣٠	عثمان باشا	١١٥٠	١٧٣٧
٣١	يعقوب باشا	١١٥٣	١٧٤٠
٣٢	حسين باشا	١١٥٥	١٧٤٢
٣٣	الحاج أحمد باشا	١١٥٧	١٧٤٤
٣٤	علي باشا حكيم باشي زاده	١١٥٨	١٧٤٥
٣٥	الحاج أحمد باشا	١١٥٨	١٧٤٥
٣٦	أحمد باشا كوبرلي زاده	١١٥٩	١٧٤٦
٣٧	أحمد باشا	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨	حسين باشا	١١٦٠	١٧٤٦
٣٩	كور ورير	١١٦٠	١٧٤٧
٤٠	أسما عيل باشا عثمان باشا	١١٦١	١٧٤٨
٤١	سعد الدين باشا العصم	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢	أحمد باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٣	صاري عبد الرحمن باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٤	الحاج أحمد باشا	١١٦٥	١٧٥١
٤٥	عبد الله باشا	١١٦٦	١٧٥٢
٤٦	راغب باشا	١١٦٨	١٧٥٤
٤٧	أمير الحاج سعد باشا	١١٦٩	١٧٥٥
٤٨	عبدي باشا القراري	١١٧٠	١٧٥٦
٤٩	علي باشا قائمقام	١١٧٠	١٧٥٦
٥٠	حسين باشا	١١٧١	١٧٥٧
٥١	محمد باشا محسن باشا	١١٧١	١٧٥٧
٥٢	عبد الله باشا ججي الصدر الأسبق	١١٧٢	١٧٥٨
٥٣	عبدي باشا قراري	١١٧٢	١٧٥٨

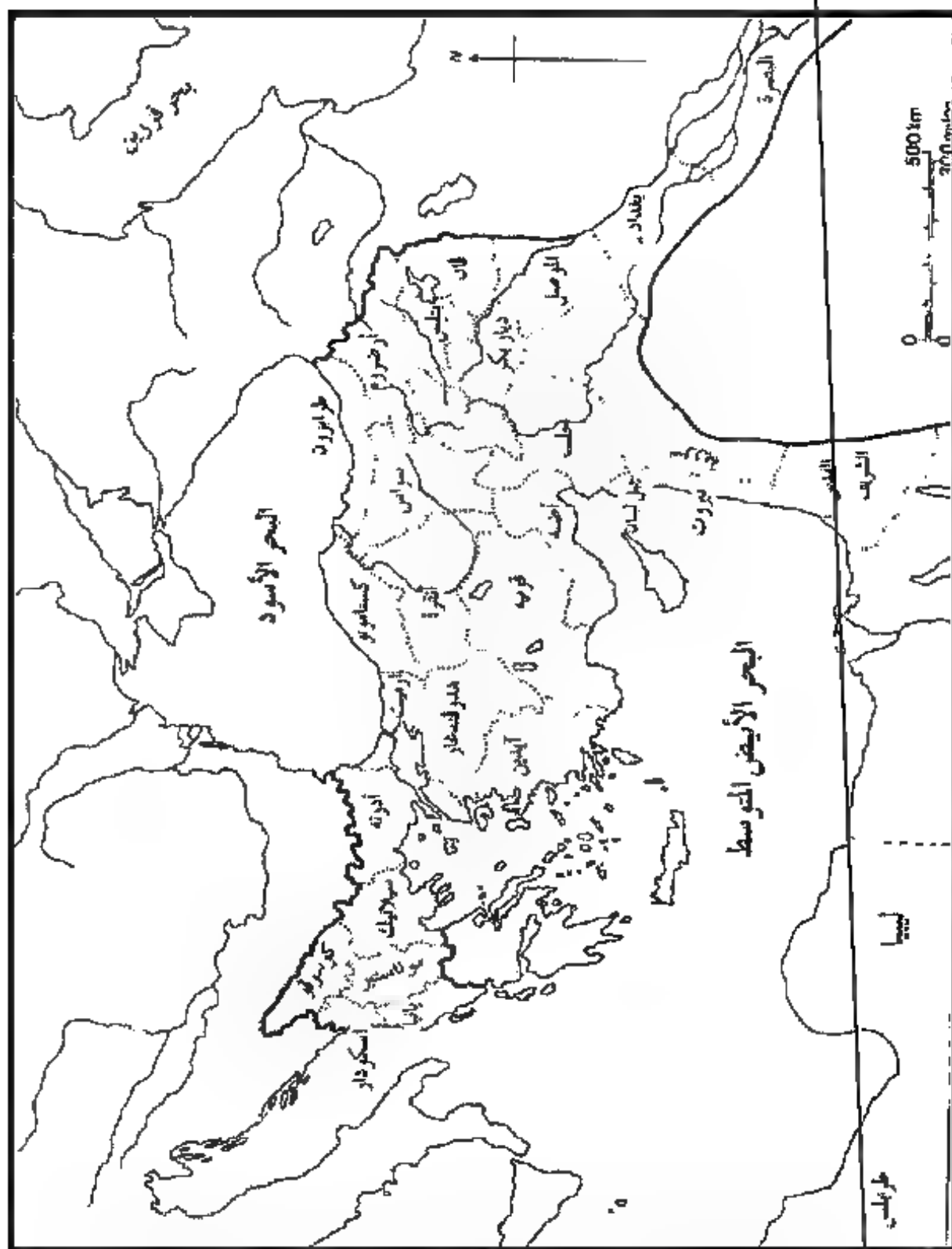
١٧٥٨	١١٧٢	مصطفى باشا الوزير	٥٤
١٧٥٩	١١٧٣	عبدي باشا قراري	٥٥
١٧٦٠	١١٧٤	نكر باشا (نكر أفندي أمير المطبخ)	٥٦
١٧٦١	١١٧٥	مصطفى باشا الصدر الأسبق	٥٧
١٧٦٣	١١٧٧	محمد باشا العظم	٥٨
١٧٦٣	١١٧٧	محمد باشا بن مصطفى باشا ابن فارس ابن ابراهيم الشهير بعظم راده	٥٩
١٧٦٥	١١٧٩	أحمد باشا ميرميران	٦٠
١٧٦٦	١١٨٠	علي باشا كور أحمد باشا راده	٦١
١٧٦٦	١١٨٠	حمزة باشا السلحدار	٦٢
١٧٦٧	١١٨١	ياغلقجي زاده محمد أمين باشا	٦٣
١٧٦٨	١١٨٢	رجب باشا	٦٤
١٧٦٩	١١٨٣	محمد باشا أحمد باشا زاده منصرف سلاطيك	٦٥
١٧٦٩	١١٨٣	محمد باشا من ولاية روملي	٦٦
١٧٧٠	١١٨٤	عبد الرحمن باشا	٦٧
١٧٧١	١١٨٥	محمد باشا عظم راده	٦٨
١٧٧١	١١٨٥	حسين باشا الداماد	٦٩
١٧٧٢	١١٨٦	الحاج عثمان باشا	٧٠
١٧٧٤	١١٨٨	محمد باشا	٧١
١٧٧٥	١١٨٩	محمد باشا بن محمد باشا عثمان بك راده	٧٢
١٧٧٥	١١٨٩	جنابه لي علي باشا	٧٣
١٧٧٥	١١٨٩	عزت باشا	٧٤
١٧٧٧	١١٩١	ابراهيم باشا الميرميران	٧٥
١٧٧٩	١١٩٣	مراد باشا	٧٦

خريطة الامبراطورية العثمانية خلال الحقبة ١٦٨٣ - ١٨٠٠م<sup>(١)</sup>

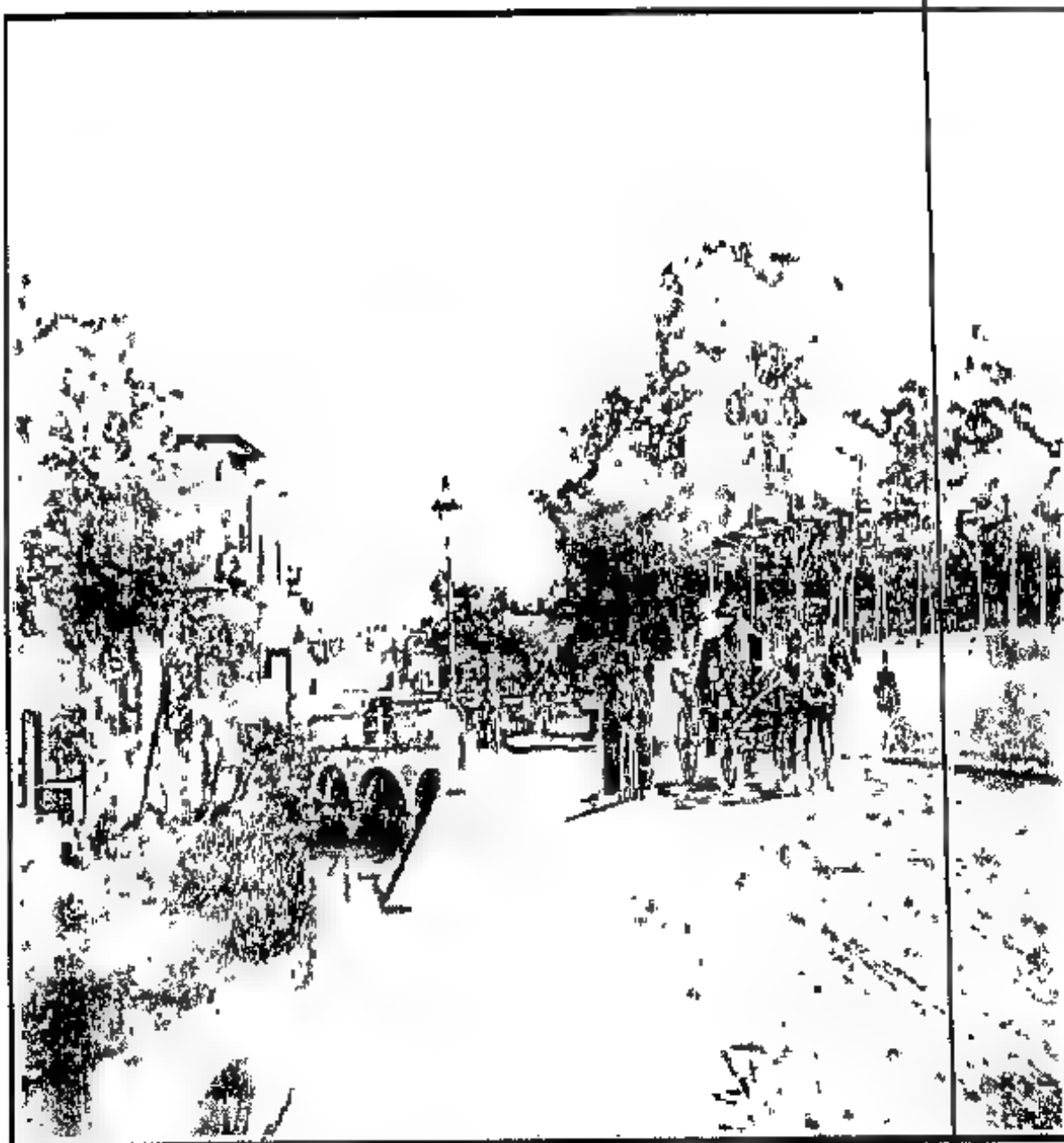


خريطة الولايات التابعة للدولة العثمانية<sup>(١)</sup>

(١) - كراتيت ، دونالد: الدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢ ، للمرجع السابق ، ص ١٠



(١) - كوترا، دوما، لدولة العثمانية ١٧٠٠ - ١٩٢٢، ب. لوس أرمانزي، مكتبة الميكس، الرياض، ٢٠٠٤ م. ص ٩٠.



Caleche au bord du fleuve (Quartier Kattab)

عربة حنطور على صفة النهر (حي الكتاب)

(التقريب عام ١٨٦٥ م)

(١) مرآة ، جيني يوحنا صور جدي ، مكتب كوما للتصميم ، حلب ٢٠٠٦ م. (أخذت جميع الصور في هذه الرسالة بولتي تعود إلى عام ١٨٦٥ م من هذا المصدر)



Carrefour Bab el-Faraj Café Kerdani.

مفرق باب الفرج - قهوة الكرداني.

(التقطت عام ١٩٦٥ م)



Alep. (vue prise de la citadelle)

حلب (منظر مأخوذ من القلعة)

(النقطة عام ١٨٦٥ م)

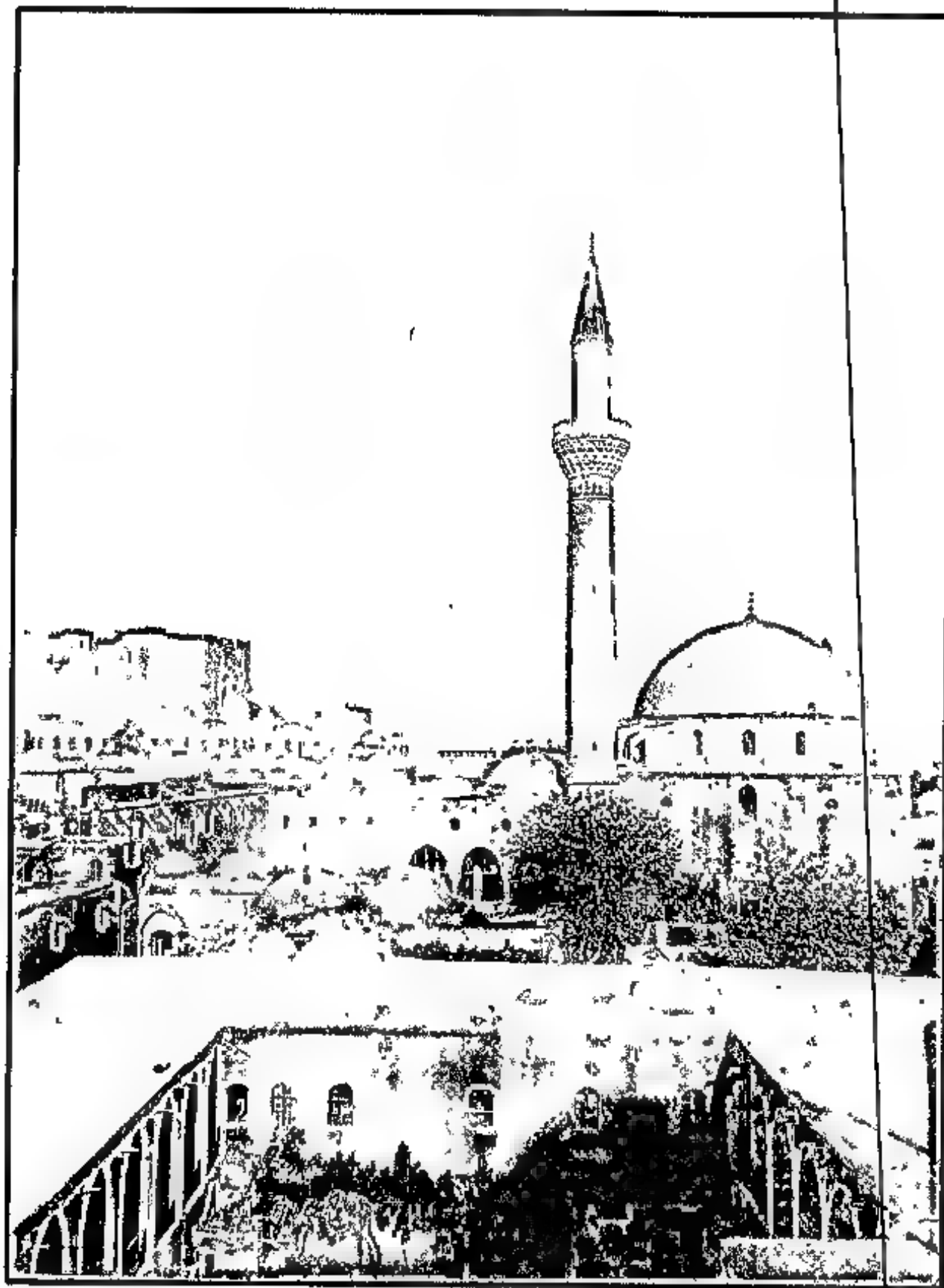




Les souls d A.ep.

السوق حطب

(النقطة عام ١٨٦٥ م)



Khan mosque et la citadelle

خان جامع و القلعة

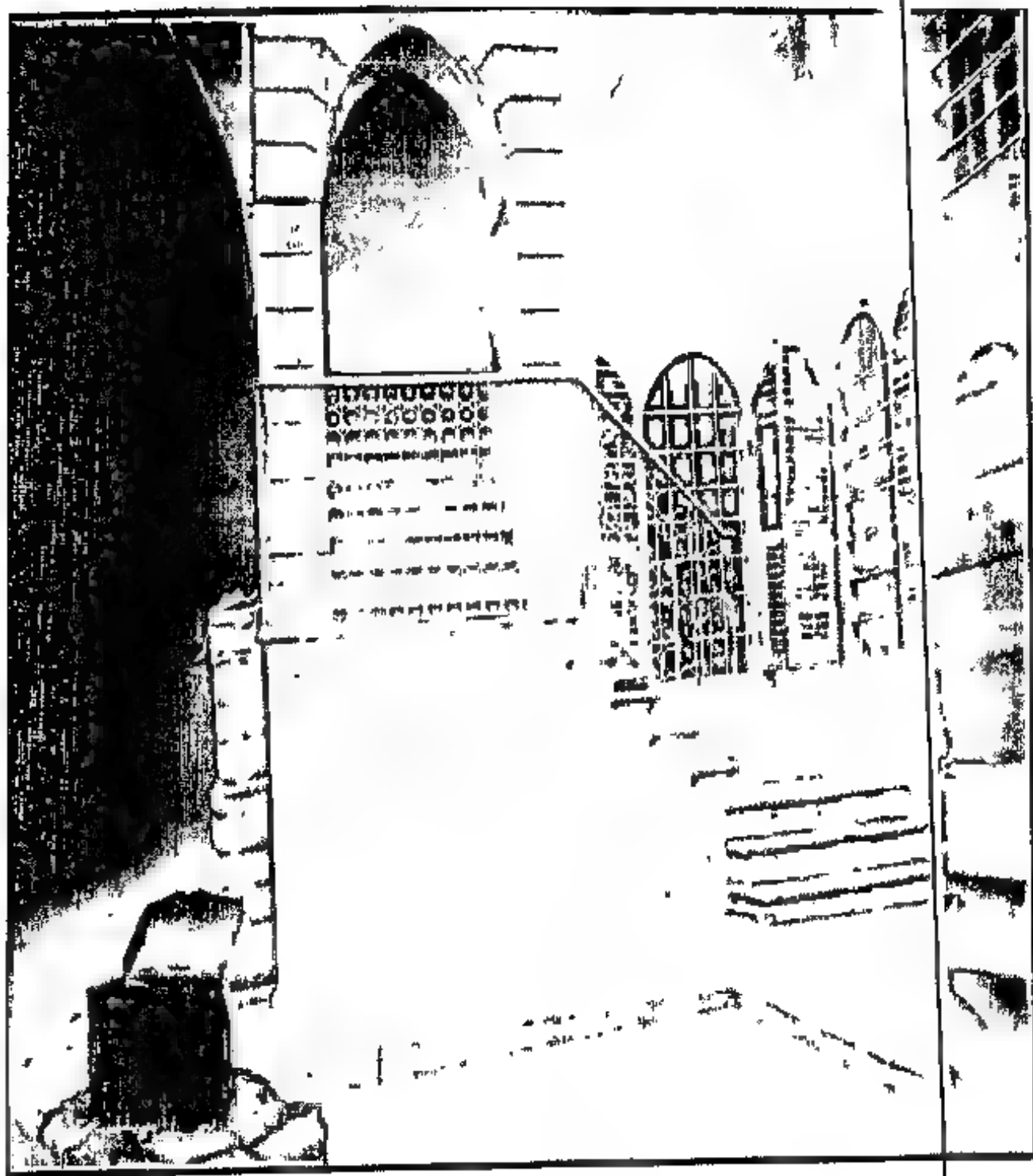
(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Salon maison Poche

غرفة الاستقبال في بيت بوحة

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



مدخل بيت بوخه منيد عام ١٥٣٩ (أول قنصلية للسفيرة) (النقطة عام ١٨٦٥ م)

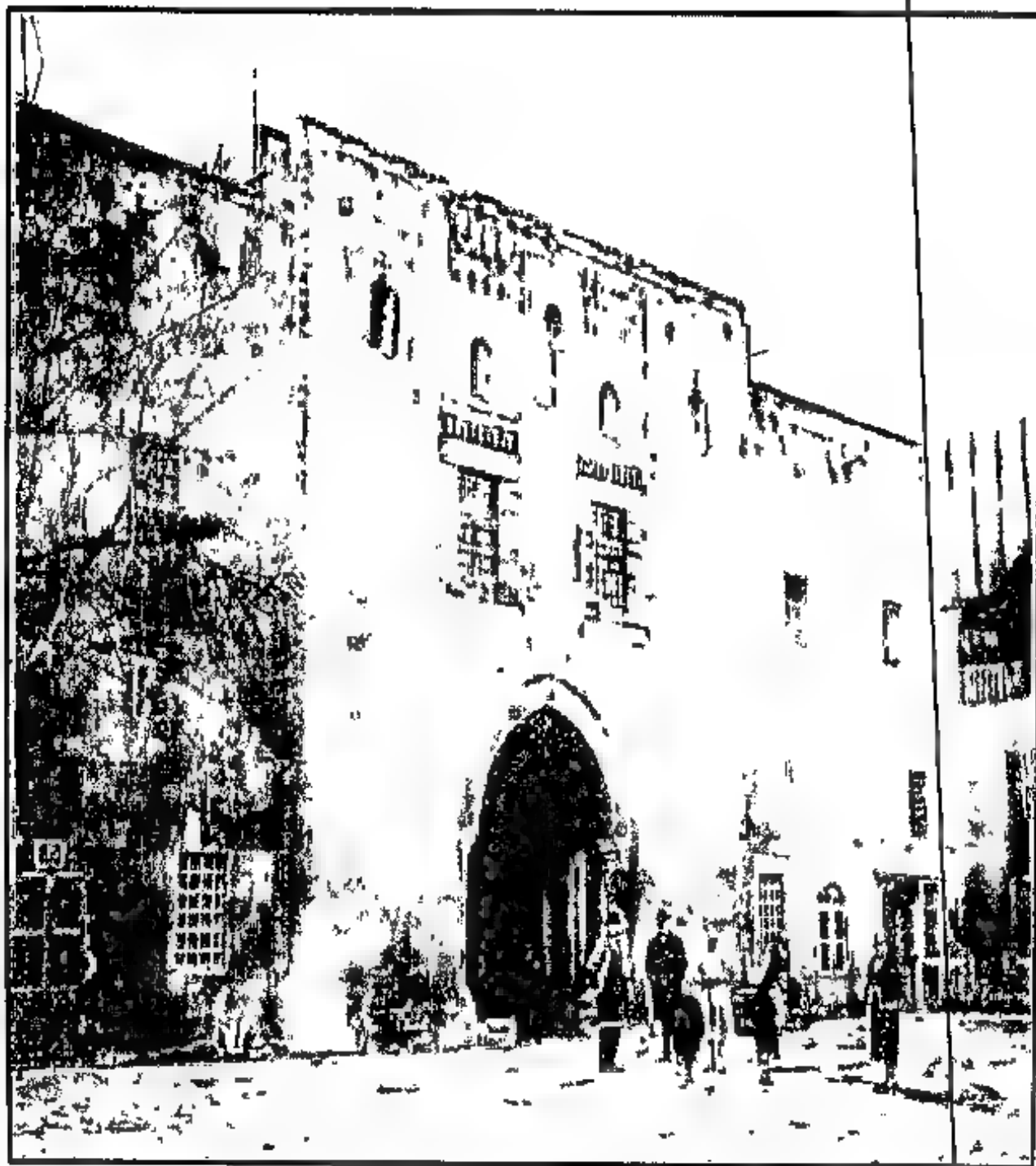
Entrée maison Poche, construite en 1539 (Premier consual de Venise)

(النقطة عام ١٨٦٥ م)



خان الوزير. (الواجهة الخارجية) Khan al-Wazir. (façade extérieure)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Porteur d'eau.

سقاء الماء.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Porte/aix kurdes. (hammats)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)

حمالون.





Caravane de chameaux au repos. (à l'extérieur d'un caravansérail)

فلاحة جمال نيسريج. (خارج حدى الحائات)

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Jad (Sayes)

سلاسل

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Une caravane.

١٨٦٥

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Ha. ssier de Cons. al. (kawass)

لوازم من حرس القنصلية.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul ■ Alep.

قنصل في حلب.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



L'officier ottoman.

الضابط العثماني.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul de France à Alep.

قنصل فرنسا في حلب.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Consul d'Italie à Alep.  
(Adolphe Sola et sa femme)

قنصل إيطالي . ( أدولف صولا و زوجته )

( التقطت عام ١٨٦٥ م )





Le départ pour la parade.

الانطلاق للعرض.

(التقطت عام ١٨٦٥ م)



Randonnée archéologique.

نزهة أثرية.

(النقطة عام ١٨٦٥ م)

## محتويات البحث

الصفحة	العنوان
٢	المقدمة:
٥	المدخل:
٦	الأهمية الاستراتيجية لموقع حلب الجغرافي وبيئتها الطبيعية.
٩	توسع السلطنة العثمانية في بلاد الشام وأوضاع ولاية حلب.
١٢	الامتيازات الأجنبية الممنوحة من السلطنة العثمانية للدول الأوروبية.
١٦	أسباب اهتمام الأوروبيين ببلاد الشام عامة وحلب خاصة.
١٨	بداية وجود الجاليات الأوروبية في ولاية حلب.
٢٢	<b>الفصل الأول: النظام الإداري للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
٢٣	السلطات الوطنية التي ترتبط بها إدارة الجاليات في بلادها الأصلية.
٢٥	السفراء الأوروبيون في العاصمة العثمانية (إستانبول).
٣٥	القناصل الأوروبيون في ولاية حلب.
٤٩	الهيئة الإدارية والعاملون في القنصليات الأوروبية في ولاية حلب.
٦٠	<b>الفصل الثاني: النشاط الاقتصادي للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
٦١	الأوضاع العامة للتجارة.
٦٤	تجارة الجاليات الأوروبية في ولاية حلب خلال القرن الثامن عشر.
٧٦	التبادل التجاري (الصادرات والواردات).
٨٣	النفقة.
٨٧	الجاليات الأوروبية والوسطاء المحليون.
٩١	الصعوبات التي واجهت تجارة الجاليات الأوروبية.
١٠٥	طرق المواصلات التجارية ووسائل النقل والموانئ البحرية التي اعتمدت عليها ولاية حلب.
١١٣	<b>الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية للجاليات الأوروبية في ولاية حلب</b>
١١٤	أماكن السكن.
١١٦	حياة الجاليات الخاصة.
١٣٣	علاقات الجاليات الأوروبية فيما بينها .

١٣٦	علاقات الجاليات الأوروبية مع الإدارة الرسمية العثمانية في ولاية حلب .
١٤٠	علاقات الجاليات الأوروبية مع القوى الاجتماعية المحلية في حلب.
١٤٩	<b>الفصل الرابع: الجاليات الأوروبية والإرساليات التبشيرية في ولاية حلب</b>
١٥٢	الإرساليات التبشيرية.
١٦٢	وسائل الإرساليات التبشيرية.
١٦٧	موقف لدول الأوروبية من الإرساليات التبشيرية.
١٧٣	موقف لسلطنة العثمانية من الإرساليات التبشيرية.
١٧٦	<b>أهم النتائج العلمية التي توصل إليها البحث</b>
١٨٠	<b>مصادر ومراجع البحث</b>
١٩١	<b>الولاة العثمانيون في حلب ١١١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٠٠ - ١٨٠٠ م</b>
١٩٧	<b>الصور</b>
٢١٨	<b>محتويات البحث</b>